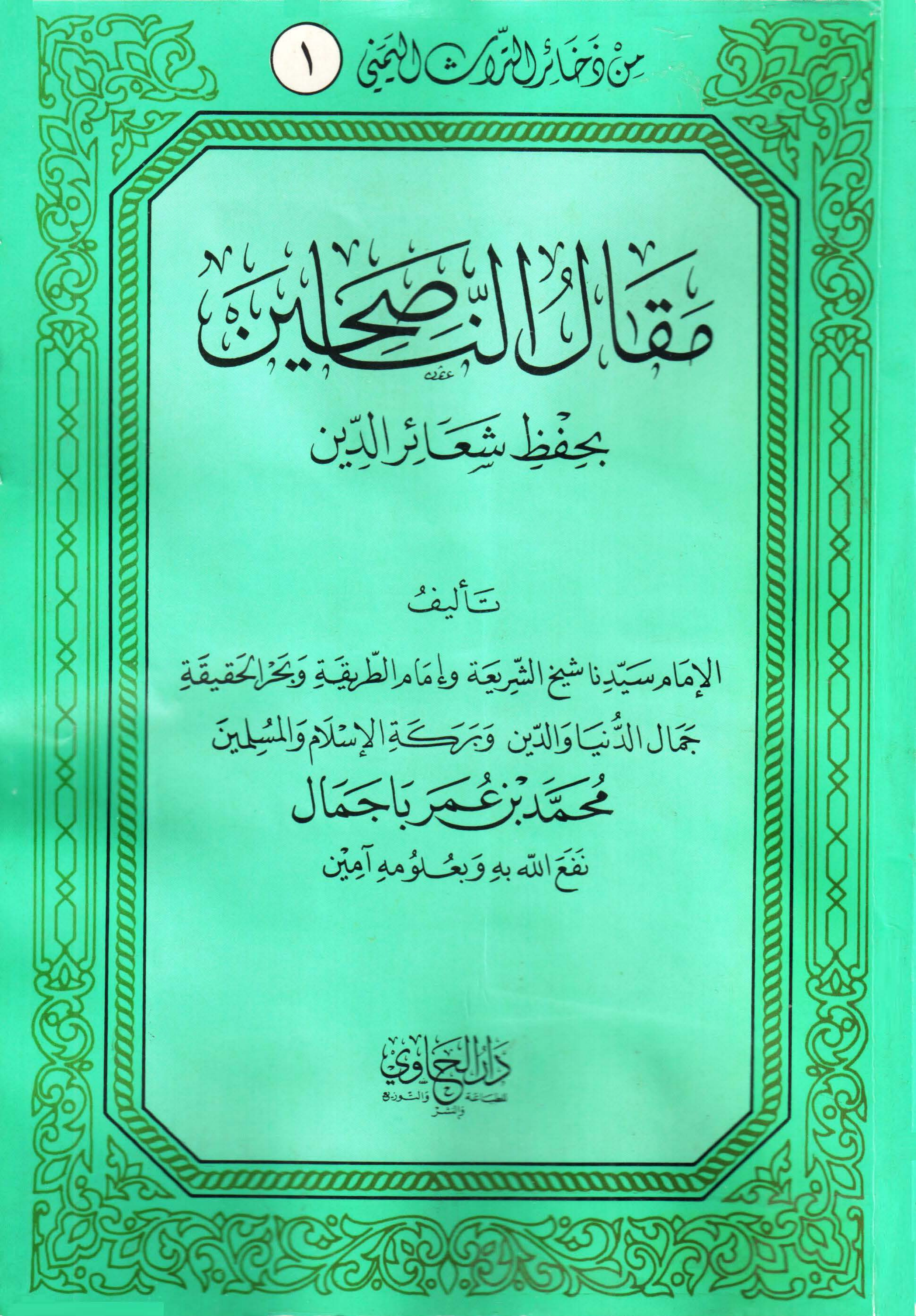

من ذخائر التراث اليمني
١
مقال الناصحين
بحفظ شعائر الدين
تأليف
الإمام سيدنا شيخ الشريعة وإمام الطريقة وبحر الحقيقة
جمال الدنيا والدين وبركة الإسلام والمسلمين
محمد بن عمر باجمال
نفع الله به وبعلومه آمين
دار الحاوي
للطباعة والنشر والتوزيع

من ذخائر التراث اليمني (١)

مقال الناصحين

بحفظ شعائر الدين

تأليف

الإمام سيدنا شيخ الشريعة وإمام الطريقة وبحر الحقيقة

جمال الدنيا والدين وبركة الإسلام والمسلمين

محمد بن عمر باجمال

نفع الله به وبعلومه آمين



الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

بالتعاون مع

الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان

هاتف: ٢٤٢٨٨٦ ـ ص.ب: ٥٩٢٠ـ١١٣ - تلكس: ٤٣٢١٨ ـ فاكس ٨٦٠١٣٨ـ١ـ٩٦١

ترجمة المؤلف

هذه ترجمة مؤلف هذا الكتاب... ذكرها الشيخ العلامة الفقيه محمد بن عبد الرحمن بن سراج الدين جمال... في كتابه (الدر الفاخر في تراجم أهل القرن العاشر)...

قال في مصنف كتاب (مقال الناصحين):

هو الشيخ الكبير... الولّي الشهير... الكامل النحرير... ذو القلب الطاهر المستنير... الزاهد المنير... شيخ الطريقة وإمام أهل الحقيقة... الفقيه العلامة المحقق محمد بن الشيخ الفقيه عمر بن عبد الله بن عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد جمال.

كان رضي الله عنه من المشايخ الكُمَّل العارفين... والأئمة العلماء العاملين... متمكناً في العلوم الشرعية؛ راسخاً في المعارف الحقيقية... وفي سائر العلوم التي حارت فيها الأفهام والحلوم... متضلعاً في جميع الفنون من العلوم المعقول منها والمنقول.

ولدَ رضي الله عنه قبيل طلوع الشمس يوم الثلاثاء السابع من شهر رمضان المعظم سنة خمس وتسعمائة... ونشأ من صغره وعليه لوائح السعادة.. وقرأ القرآن، ثم اشتغل بالعلوم الشرعية على والده حتى صار أوحد أهل زمانه.. ثمّ أقبل على العبادة والاجتهاد، وفارق الأهل والأولاد.. وتفرّغ للرياضات والمجاهدات.. ثمّ صحب الشيخ العارف بالله معروف بن عبد الله مؤذن جمال نفع الله به.. وأمره بالخلوات وتتابع الأربعينيات.. صام الدهر أربعين سنة، لم يفطر سوى العيدين والتشريق.. وطوى أربعين يوماً لم يأكل فيها شيئا

ولم يشرب.. وكانت له اليد الطولى في كتب الرقائق والتصنيف فيها في أسرار الحقائق.. وكان من خواصّ تلامذة الشيخ معروف ومريديه.. الذين لا يخرجون عن أمره ونهيه، ولا يفارقونه في إقامته وسفره.. وأنفق جميع أملاكه في وجوه البر.. وشهد له شيخه بتقدمه وسبقه ورسوخه، والتمكين في علوم اليقين.. وله مصنفات عظيمة كثيرة النفع.. ورسائل في التفرقة والجمع.. منها:

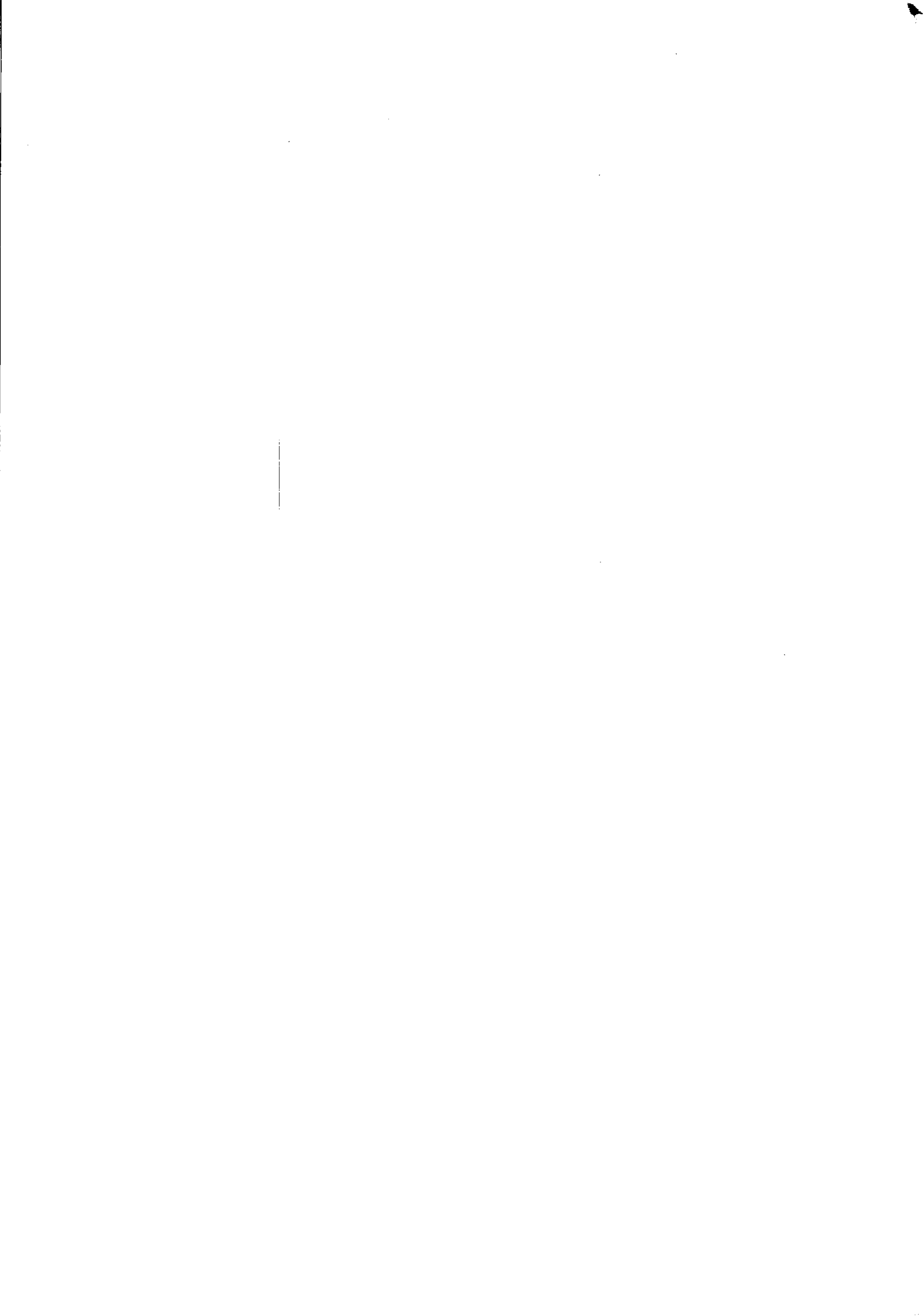
- كتاب مقال الناصحين ومنال المفلحين. «وهو هذا الكتاب».
- وكتاب الكفاية الوفية في إيضاح بعض كلمات الصوفية.
- وكتاب أوضح الحجج والمسالك في طريق المريد والسالك.
- وكتاب حقائق السنّة وطرائق الجنّة.
- وكتاب عيون العلوم النبوية الجامعة وفنون الفهوم في الوصايا النافعة.
- وكتاب منحة الطالب المتصوِّف ونفحة الراغب المتعرف.
- وكتاب سبيل العبادة ودليل السعادة.
- وكتاب كنز المتسبب للتقي المتورع.
- وكتاب تيسير العمل وتقصير الأمل.
- وكتاب مراد المريدين.
- وكتاب هداية العازم المتيمم إلى آداب العالم والمتعلم.
- وكتاب الحصون الأكيدة والقوانين السديدة للمملكة السعيدة.
- وكتاب مراتب الرجال.
- وكتاب العقد المنظوم من جواهر كلام القوم.

وقال لبعض خواصه من النساء يوصيها: يا مريم: الله الله في الصلاة وحب المساكين.. ولا تغبطين أهل الدنيا ومن يفتخر بزينتها وفراشها وقماشها.. فعن قريب يتركونه، ويلقون بعد الموت حسابه وعقابه.. والله الله في الصبر

على طاعة الله وطاعة الزوج..

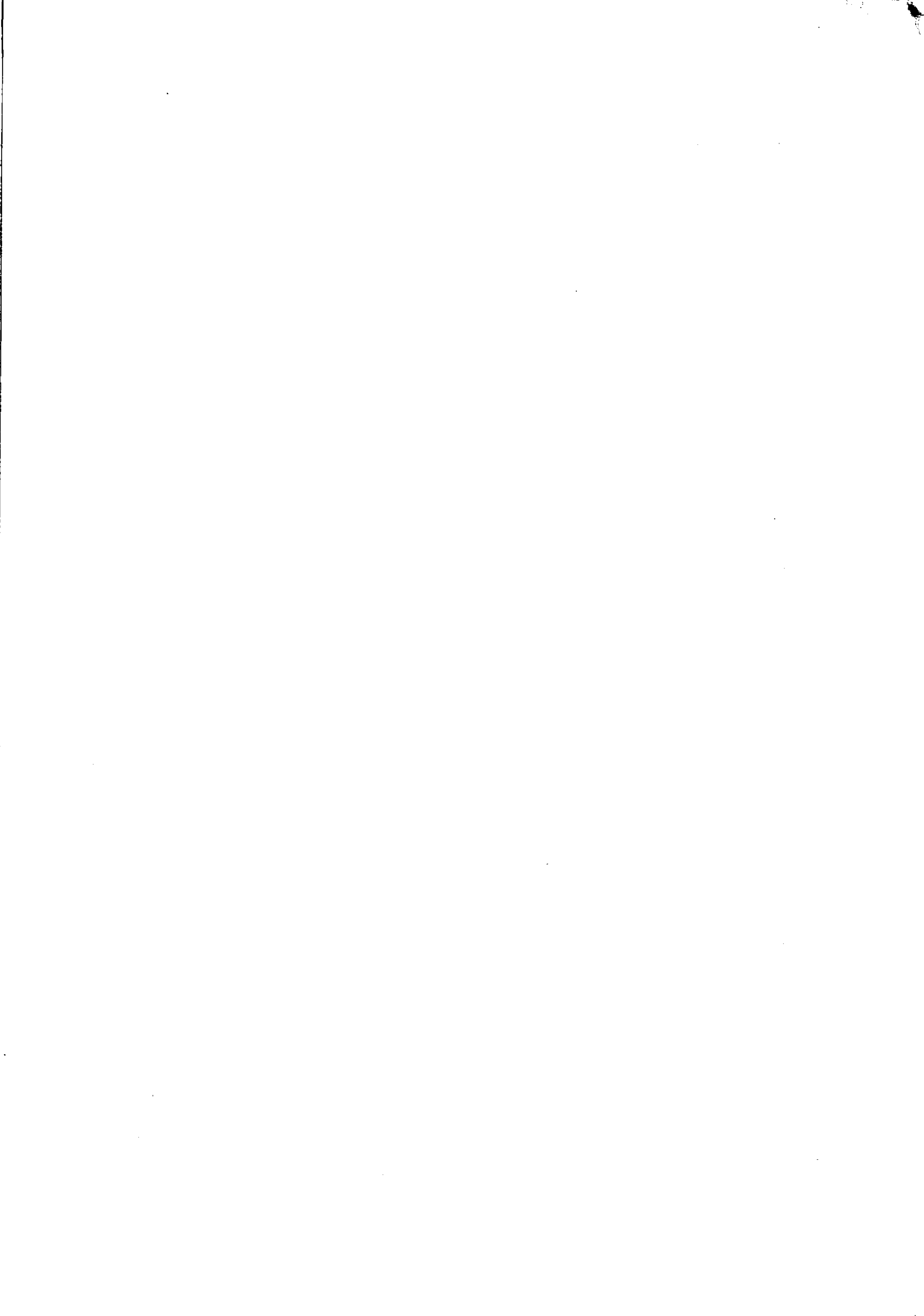
وقال عند خروجه وشيخه الشيخ معروف من (شبام): إن قلب الدنيا عليّ أهون من نزع خاتمي هذا..

وكان غلب عليه آخر عمره الشوق إلى لقاء ربه؛ فكان يقول: لو خُيِّرت بين الحياة إلى غدٍ وحال الشيخ عبد القادر أو أموت الساعة «لاخترت الموت»! وكانت وفاته يوم الأحد في جماد الاخر سنة أربع وستين وتسعمائة.. ودفن شرقي قبة الشيخ معروف رضي الله عنه بـ «ظرفون بدوعن».. وقبره معروف مقصود للزيارة والتبرّك. نفع الله به، وبجميع عباد الله الصالحين. انتهى!





صورة عينات من المخطوطة المستعان بها
في طبع الكتاب



كتاب مقال الناصحين بحفظ شعائر الدين
وحفظ حرمات المومنين ومجالس الصالحين
تأليف الإمام سيدنا شيخ الشريعة
وإمام الطريقة وبحر الحقيقة جمال
الدنيا والدين وبركة الإسلام
والمسلمين محمد بن عمر
باحماز نفع الله به
وبعلومه
امين

صلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم

صفحة الغلاف من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم فإنه ما ذكر اسمه
عند امر مهم الا كفاه، ولا على ذي غصة وسقم الا شفاه،
والحمد لله الذي لا يحمده يدرك الانسان من الاحسان
غايته ومنتهاه، المتفضل بالفضل والجود والامتنان،
وصلوات الله وسلامه على المكرم بالقرآن المخصوص
بجوامع الكلم والحكم والتبيان، محمد رسوله وعبده وعلى
آله واصحابه على ممر الجديدان، وسلم كثيرا وبعد
فهذه النبذة اليسيرة اشتملت على الفوائد الكثيرة
النافعة الجامعة لكثير من قواعد الاسلام وفوائد الاحكام،
مما لا يسع جهله، ويتأكد علمه وعمله على قدر ما
فهمناه من العلوم الدينية والرسوم الشرعية، والغرض
بها تنبيه الغافل وتوجيه العاقل والمشاركة لحزب الله
المفلحين وعباده الصالحين بالمعاونة والنصيحة والوصية
والرحمة لهم ايناسا بالمذاكرة لهم والتماسا لله عنا منهم
فقد امر الله ورسوله بالتعاون على البر والتقوى والتواصي
بالصبر والحق عليه، والنصيحة الخاصة والعامة، وسميتها
مفتاح الناصحين لحفظ شعائر الدين، ومجال الصالحين لحفظ
درجات المؤمنين المهتدين، ومنال المفلحين بحسن الظن بالله
سبحانه وبحسن الاعتقاد في السادة المعتقدين قال الله
تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم
والعدوان

صورة الصفحة الأولى من المخطوطة

فبهن اتنال القرب من الله والمكانة عنده وقد صح ادركنا بذلك ما لم يدركه بعلومنا واعمالنا فالزم وقال صلى الله عليه وسلم الخادم في امان الله عز وجل ما دام الخادم في خدمة اخيه وللخادم في الخدمه اجر الصايم القايم بالليل واجر المجاهد في سبيل الله وللخادم كاجر من يخدم فافهم وهذا حاصل في خدمة عوام المومنين فكيف في خدمة خواصهم وفي هذا كفاية للسعيد الموفق وحكى لي الاخ الفقيه الصالح محمد بن ابي بكر باقشير رحمه الله قال ذكر الامام محمد بن محمد الغزالي رحمه الله في بعض كتبه انه طلب من بعض المشايخ المربيين ان يجعل له وضيفة منه وخدمة يخدم بها الشيخ فقال له الشيخ قد اخذ اصحابنا حوايجنا وخدمتنا هذا لكل واحد منهم وضيفة من خدمتنا يقوم بها من الما وهذا للحطب الى اخرها ولم يبق من خدمتنا الا من يغسل احجار المستراح للاستنجا فقال الغزالي يا سيدي اجعل خدمتي احجار الاستنجا فجعلها اليه فلزم ذلك كلما تلوثت تلك الاحجار بالنجاسة نظفها وغسلها وما فقد منها ابدله بغيره والتزم هذه الوضيفه مغتبطًا بها وبارك الله له فيها وانته الامداد بسببها

صورة صفحة من وسط المخطوطة

اسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك انبت وبك
خاصمت واليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما اخرت
وما اسررت وما اعلنت وما انت اعلم به مني انت المقدم
وانت المؤخر لا اله الا انت ولا حول ولا قوة الا بالله اللهم
اني عبدك وابن عبدك وابن امتك ناصيتي بيدك ماض
فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك اسالك بكل اسم هو لك
سميت به نفسك او انزلته في كتابك او علمته احدا من خلقك
او استاثرت به في علم الغيب عندك ان تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي
ونور صدري وجلاء حزني وذهاب غمي وهمي وان تكفيني ووالدي
ومشايخي في الدين كل مهم وتعطيني كل خير وتشملني
باللطف والرحمة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة مع
واحبابنا واهلنا وقراباتنا وجيراننا واهل بلدنا ومن
احسن الينا وجميع المسلمين الاولين والآخرين
اللهم صل على الرحمة الكبرى التامة العامة في الاولى والآخرة
محمد عبدك ورسولك النبي الامي وعلى آل محمد واخوانه
واصحابه وعلى المومنين والمومنات الاحيا منهم
والاموات وعليه وعليهم السلام ورحمهم [illegible]

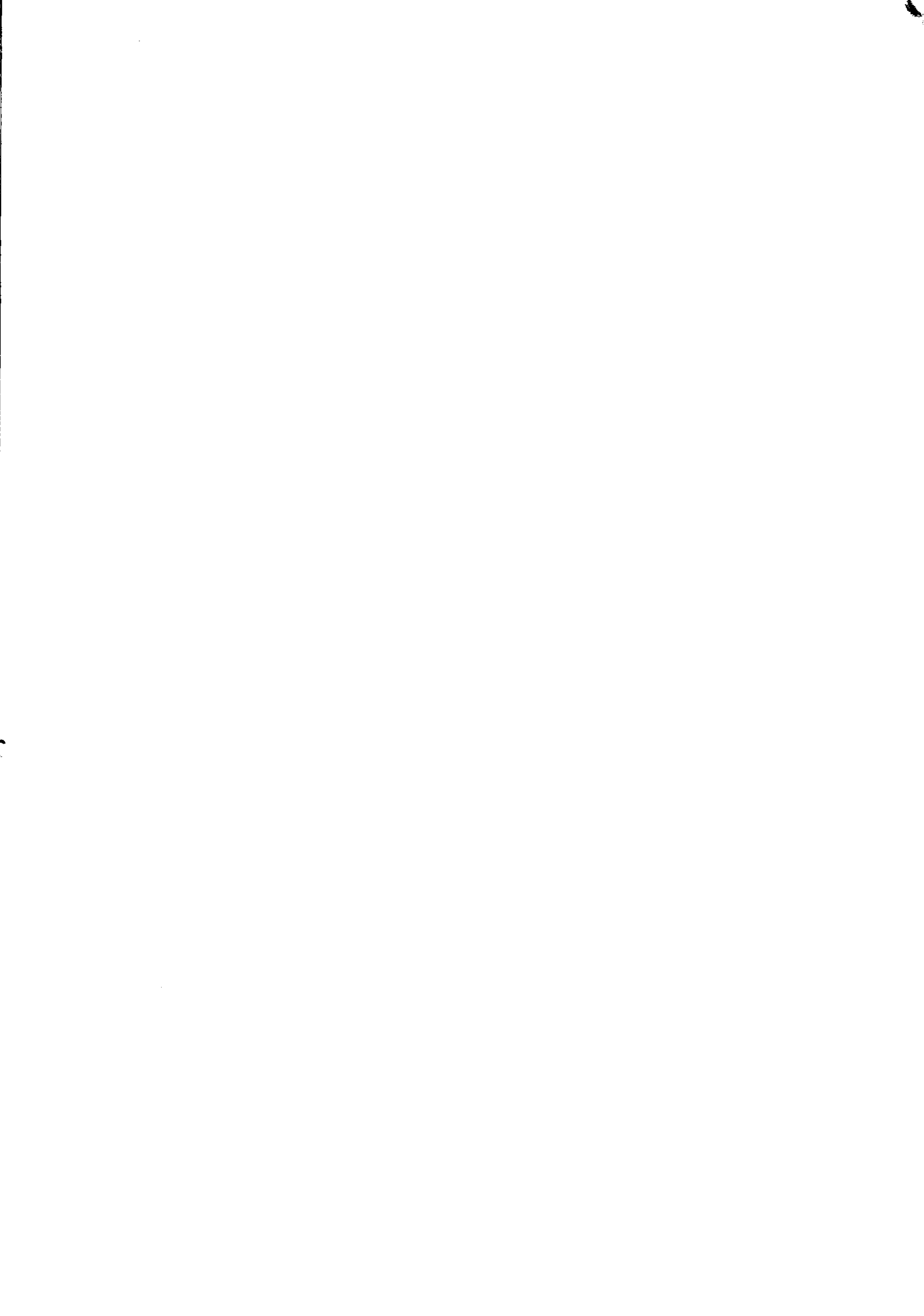
صورة الصفحة قبل الأخيرة من المخطوطة

وبركاته سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت
استغفرك وأتوب إليك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي
إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت سبحان ربك رب العزة عما يصفون
وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وآخر دعواهم
أن الحمد لله رب العالمين تم الكتاب بعون الملك الوهاب
قال مصنفه رحمه الله ورضي عنه انتهى جمعه وكتابته وقت
الضحى يوم الخميس العاشر من ربيع الثاني سنة ٩٥٣ ثلاث وخمسين
وتسعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين

اعلم أن كتاب مقال الناصحين بحفظ شعائر الدين هذا
كثير الفوائد حسب الفوائد سلس العبارة رائق الإشارة
مجمع الفوائد مشتمل على إحدى وأربعين فائدة كل فائدة
قائمة مقام باب تنفصل في أربعة فصول كل فصل محتوي
على عشر فوائد سوى الأخيرة فهو منفرد بزيادة واحدة
فأول ... الفصل فائدة الترغيب في كتب الغزالي
رضوان الله ... يغشى روحه الكريمة وإيانا وآخر فائدة
الحث على العلوم الدينية وأول الفصل الثاني فائدة

اقتنوا

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة



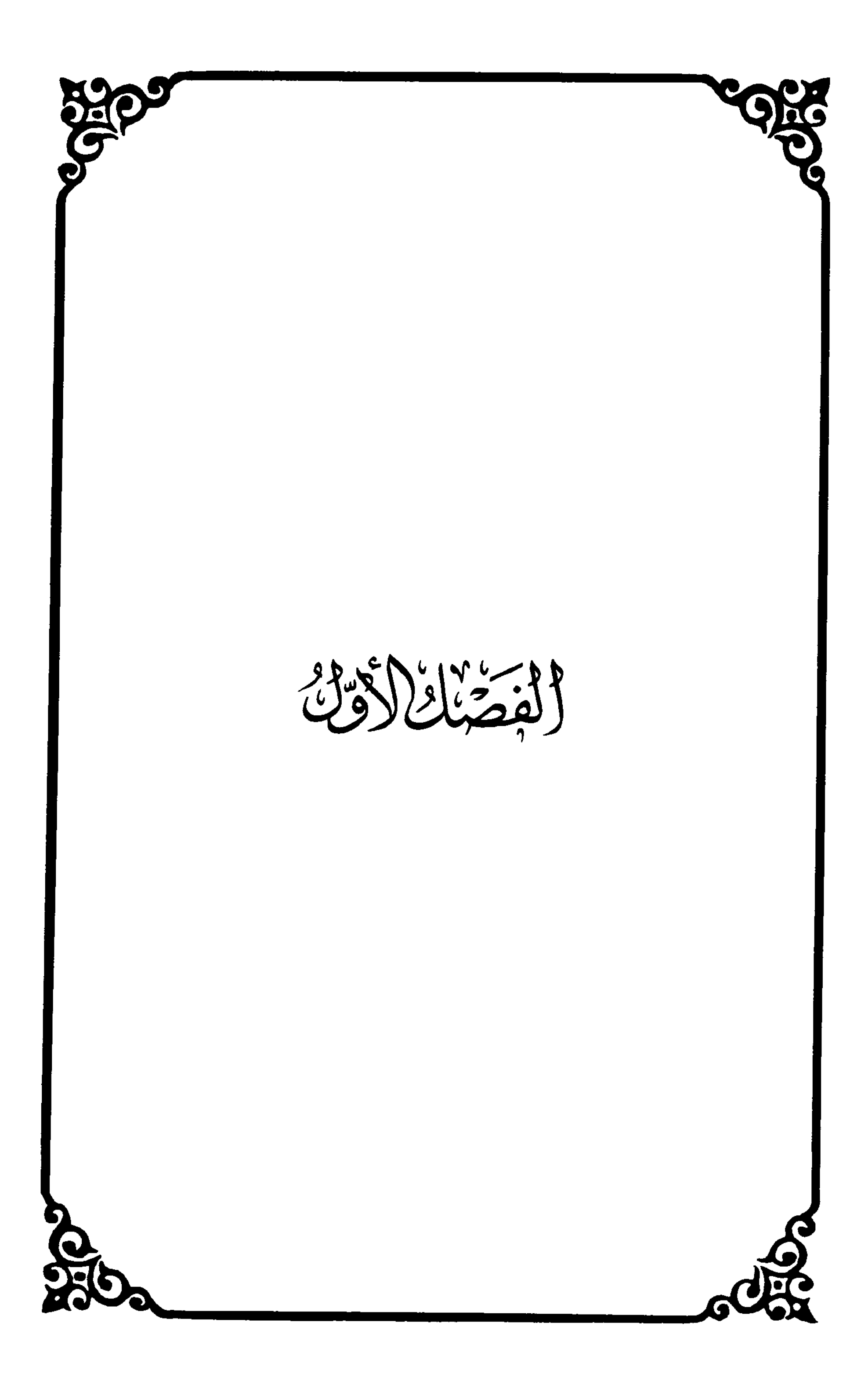
بسم الله الرحمن الرحيم

فإنّه ما ذُكر اسمه عند أمر مهمّ إلاّ كفاه، ولا على ذي ضُرٍّ وسقم إلاّ شفاه، والحمد لله الذي بحمده يدرك الإنسان من الإحسان غايته ومنتهاه، المتفضل بالفضل والجود والامتنان، وصلوات الله وسلامه على المكرّم بالقرآن، المخصوص بجوامع الكلم والحكم والتبيان محمد رسوله وعبده وعلى آله وصحبه على ممر الجديدان وسلم كثيراً.

وبعد، فهذه النبذة اليسيرة اشتملت على الفوائد الكثيرة، النافعة الجامعة لكثير من قواعد الإسلام وفوائد الأحكام، مما لا يسع جهله ويتأكد علمه وعمله على قدر ما فهمناه من العلوم الدينية والرسوم الشرعية.

والغرض بها تنبيه الغافل، وتوجيه العاقل، والمشاركة لحزب الله المفلحين وعباده الصالحين بالمعاونة والنصيحة والوصية والرحمة لهم؛ إيناساً بالمذاكرة لهم، والتماساً للدعاء منهم. فقد أمر الله ورسوله بالتعاون على البر والتقوىٰ والتواصي بالصبر والحق عليه، والنصيحة الخاصة والعامة وسمّيتها «مقال الناصحين بحفظ شعائر الدين، ومجال الصالحين بحفظ حرمات المؤمنين المهتدين، ومنال المفلحين بحسن الظن بالله سبحانه وبحسن الاعتقاد في السادة المعتقدين» قال الله تعالىٰ: ﴿وتعاونوا على البّر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ وقال تعالى: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ وقال تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ قال الإمام الشافعي رحمه الله: عجبت للناس من إهمالهم لهذه السورة مع علمهم بها، ما أعظمها من سورة. وقال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة». قلنا لمن

يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» حديث صحيح وقال تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ وفي الحديث: «قل الحق ولو كان مُرًّا» فعليك يا أخي بتفهم القرآن وأكثر لتلاوته بالتدبر له، وتفهم أحكامه وأسراره، ومجالسة علماء الدين والمشايخ العارفين وعباد الله الصالحين، خُذْ عنهم العلوم الشرعية السّنيّة فأخذها من أفواههم أقرب لجمعك، وأعون على نفعك. فقد عرفوا المقاصد فليلقون إليك سَنّي الفوائد فكن لهم مُجالساً، وللعلوم قابلاً، وبها عاملاً، وعلى ذلك صابراً مصابراً. وفقنا الله وإيّاك لكل خير، وحفظنا من كل شر آمين..



الفصل الأول

فائدة ١٧

في الترغيب في كتب الإمام الغزالي جملة

قال الشيخ الشريف عبد الله بن أبي بكر العيدروس علوي رحمه الله ونفع به: «لو بُعِث الأمواتُ لما أمروا الأحياء إلاّ بمطالعة الإحياء». وقال غيره من المشايخ: «مَنْ لم يطالع الإحياء ما فيه حياة» وقال الفقيه الشريف محمد بن علي عيديد رحمه الله ونفع به: «من لا يحب كتب الغزالي فليس هو من أبناء الاخرة بل هو من أبناء الدنيا» وسمّى بعضهم كتاب الإحياء (البحر المحيط) أي بحر الدنيا والاخرة والعلوم النقلية والعقلية، وسمّاه آخر (مغناطيس القلوب. يجذبها إلى حضرة علاّم الغيوب) قال الفقيه المقدم بالخميلة عثمان بايزيد قلت للشيخ عبد الرحمن بن على بن أبي بكر - رحمه الله تعالى - كم طالعت كتاب الإحياء؟ قال أكثر من أربعين مرة بعضها قراءة على والدي، وقال بعض العلماء كاد كتاب الإحياء أن يكون قرآناً، فإنه ما فرط فيه من شيء قد أعجز العلماء عن مزاحمته ومشاكلته، وقال الفقيه الكبير الشيخ محمد بن أبي بكر عبّادَ - رحمه الله - للشيخ أحمد بن العفيف: هل عندكم في الهجرين كتاب الإحياء؟ قال لا. فقال له: واظلمتاه واضعف إسلاماه وتأثيره لمن طالعه قوي جداً، وبركته شاملة لصاحبه، ظاهرة منفعته انتهى. وهذه النبذة مجموعة من كتب شتى أكثرها من كتاب الإحياء، وحريّ بالتقدم والثناء فعليك بتكرار مطالعته وإمعان النظر فيه.

فائدة ١٧

في مراتب العلوم النافعة

قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» حديث صحيح، واعلم أن أصل الدين الإيمان التام الراسخ والعلم الكامل الواسع والعمل الخالص الصالح. فمن هذه الأصول تشعبت كل الخيرات وحصلت جميع السعادات في الدنيا والاخرة، والفقه في الدين فنون كثيرة وعلوم واسعة وأنواع متشعبة بعضها أهم من بعض، والدين عبارة عن الأمر والنهي الصادرين عن الله ورسوله وكذا الرخصة واليسر، وكل إنسان يعقل مأمور ومنهيٌ في ظاهره وجوارحه وفي باطنه وقلبه، فيلزمه تعلم أحكام ما عليه في ظاهره وباطنه وإصلاح شأنه أهم عليه ومقدم على كل شيء وهو فرض عينه والفقه المتعلق بمصالح الناس وفتواهم والفصل بينهم في خصوماتهم وعند تنازعهم هو طرف من الفقه المأمور به، لكنه فرض كفاية يقدم عليه فرض عينه المتعلق به المأخوذ به في الدنيا والاخرة، ومن أهمها علم أحوال القلب وأخلاق النفس المحمودة الواجب اكتسابها والتحلي بها، من الإنابة إلى الله تعالى والصبر لله والرضا عن الله والشكر له، ولا يخلو كل عبد من نعمة يجب الشكر عليها لله، أو بليّة يجب الصبر عليها لله والرضا عن الله، أو طاعة يجب إخلاصها لله تعالى أو معصية تجب التوبة عنها والإنابة إلى الله، وغير ذلك من أحوال القلب المأمور بها والمنهي عنها. فتعلم أحكام ذلك أهم من غيره، واشتغال العبد بمجاهدة نفسه وتزكيتها وتقويمها على الصراط المستقيم أولى من غيره، ومقدم على ما سواه. وقد اندرس هذا العلم وعدم أهله في هذا الزمان، بل تناقصت فيه سائر العلوم كلها وذلك من أشراط الساعة، فالحمد لله على كل حال و «إنا لله وإنا إليه

راجعون وإنا إلى ربنا لمنقلبون». فقد عمَّت المصيبة وطمت الظلمة والريبة؛ فإن بقت من الفقه بقية في هذا الزمان فهي من الفن المتعلق بمصالح الناس مع إهمال الفقيه من نفسه الأهم عليه المتعين اللازم له، وذلك لاستيلاء الغفلة على القلوب وغلبة حب الدنيا وحظوظها عليها، وفي ذلك نبذ السنّة وطرح مقاصد الشريعة وهجر طريق السلف كلهم، فانصح لنفسك، وتدارك ما فرط من أمسك قبل حلول رمسك، ولا تغتر بكل بطال من أبناء جنسك، وأحسن الكتب المصنفة في علوم الدين وأحكام أحوال القلوب المشتمل على النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم هو كتاب إحياء علوم الدين للإمام حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي رحمه الله وجزاه عنا خيراً، فهو إمام في العلوم النقلية والعقلية المتبحر فيها، فقد اعترف بفضله وتقديمه فيها أكابر العلماء وأجلاء المشايخ، واعتمدوا عليه وأخذوا ببصيرته وأثنوا عليه وعلى كتبه كلها في الطبقات، حتى كان بعضهم يسمّي كتاب الإحياء أعجوبة الزمان، وقد أثنى على كتابه هذا رسول الله ﷺ في منام لبعض أهل البصيرة وقال فيه: هو موافق لسنتي فتأكد بهذا طمأنينة القلب لما فيه من العقائد الإيمانية والعلوم العلمية، قال الإمام أبو الوفا الشاذلي رحمه الله: «ينبغي للمبتدىء مطالعة كتاب البداية له، والمنتهى كتاب الإحياء والمتوسط كتاب المنهاج للغزالي». وذكر الشيخ الشرجي اليمني أن رجلين من علماء اليمن كانا يجتمعان على مطالعة الإحياء، فمات أحدهما فرآه صاحبه فقال له: «أخبرني بحال الموتى. فقال: يا أخي هم كما ذكر الإمام الغزالي في كتابه الإحياء سواء من غير مخالفة، انتهى. فعلوم كتب الغزالي تثمر السر الغالي، فعليك بمطالعتها والرغبة فيها.

فائدة ١٧

في فوائد الطاعة لله تعالى بالعلم الديني وأعمال البر ونحوها

اعلم أن الله تعالى دعا الخلق إلى طاعته، ووعدهم عليها بلطفه وكرامته، وعجّل لعباده الطائعين في هذه الدار ما لا يعد ولا يحصى من الفوائد القلبية والألطاف الغيبية والنعم الظاهرة، في النفس والمال والأهل والولد، ودفع المصائب وجلب العوافي والمنافع والرزق والمودة من الخلق، وتسخير كل رطب ويابس وكفاية كل همّ. وهذه وأضعافها في الحياة الدنيا ﴿وللاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾ قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: ﴿يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غِنىً ويديك رزقاً. يا ابن آدم لا تباعد مني أملأ قلبك فقراً ويديك شغلا﴾ رواه الحاكم، صحيح الإسناد. وقال رسول الله ﷺ: «من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه - يعني فقر القلب المستعاذ منه - ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كانت الاخرة نيته جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة» رواه ابن ماجة والترمذي، وزاد: «وما أقبل عبد إلى الله بقلبه إلا جعل قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالمودة والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع». وقد قال تعالى: ﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدّا﴾. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه إن العبد يخلو بمعاصي الله لم يطلع عليه غيره فيلقي الله بغضبه في قلوب المؤمنين حيث لا يشعر، فعليك يا أخي بإخلاص عبادتك كلها لله تعالي وحده، وقد قال تعالى: ﴿وما أُمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ وقال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ قيل في التفسير مخرجاً من كل ضيق وهمّ، وقال ﷺ: «من تفقه في دين الله تعالى كفاه الله ما أهمه، ورزقه من حيث لا يحتسب» رواه الإمام أبو حنيفة رحمه

الله، وذكره الفقيه أبو الليث في كتاب التعليم قال: والمراد بالهمِّ المكفوهمّ لا يخل بأعمال الخير ولا يخل بإحضار القلب في الصلاة وقد قيل: العز في طاعة الله؛ فمن طلبه في غيرها لم يجده أبداً ولله درُّ القائل:

مَـنْ عـرف الله فـلـمْ تـغـنـهِ مـعـرفـةُ اللهِ فـذاك الـشـقـيُّ
مـا يـصـنـعُ الـعـبـدُ بـعزِ الـغِـنىٰ والـعـزُّ كـل الـعـزِّ لـلـمـتـقـي

ولله در الإمام الشافعي رضي الله عنه حيث قال:

رضـينا قـسـمـة الجبّـارِ فـينا لـنـا عِـلـمٌ ولـلـجُـهـال مـالُ

وقال رسول الله ﷺ: «احفظ الله يحفظك» يعني في نفسك وأهلك ومالك، وما أحاطت به شفقتك. يحكى أن بعض العارفين ولعله إبراهيم بن أدهمْ رحمه الله مرَّ بالبادية في سياحته فرأى أعرابيًا يرعى غنماً له فصال الذئب عليها وجرح فيها بنابه، فطرده عنها. فلما غفل صال الذئب عليها مرة أخرى وجرح فيها فطرده، ثم كذلك مرة أخرى فذهب العارف أياماً ثم رجع بطريقه هذه فرأى ذلك الإعرابيّ يُصلي ناحية والغنم ترعىٰ حوله والذئب يرعى معها؛ فعجب من ذلك. فلما سلم من صلاته ناداه يا فلان: متى صالحت الأغنامُ ذئبها؟ فقال: من حين صالحت الرعاةُ ربها. ذكره الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره فتأمل ذلك ولله درّ القائل حيث قال:

رأيـت صـلاحَ المرءِ يُـصـلـحُ أهـلـهُ ويـشـمـلُـهـم داء الـفـسـادِ إذا فـسـدْ
ويُـكـرم فـي الـدنـيـا لـفـضـل صـراحِـه ويُحفظ بعد الموتِ في الأهلِ والولدْ

وقد قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا﴾ حتى قال: ﴿نحن أولياؤكم في الحيٰوة الدنيا وفي الاخرة﴾ فبشرهم بالسرور المتواصل ونفى عنهم الأحزان فلم يحزنهم في أنفسهم وفيما أحاطت به شفقاتهم وأنزل على قلوبهم السكينة والألطاف العميمة. وقال تعالى: ﴿مَنْ عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثىٰ وهو مؤمنٌ فلنحيينه حياة طيبة﴾ الاية فتأمل يا أخي أسرار كتاب الله تعالى وسنة نبيه الذي لا ينطق

عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يُوحى، المعصوم بالحفظ والعصمة، المؤيد بالنور والحكمة، الصادق الناصح للأمة في كل إشارة وكلمة فجزاه الله عنا وعن الأمة أفضل ما جزا. واعلم أن الأسرار والخواص والبركات فيما نسبت إليه إنما هي أمور من ربانيٍّ سماويّ غيبيّ تقصر عنه العقول ويخفى شأنه إلاّ على أهل البصيرة فيجب على كل مؤمن التصديق بأسرار كتاب الله تعالى والأخبار النبوية في جميع الحالات، وتفويض علمها إلى الله تعالى والراسخين في العلم. فالعقل يقصر عن إدراكها. فعليك ثم عليك يا أخي بتعظيم حرمات الله تعالى وشعائر الدين قال الله تعالى: ﴿ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾ وقال تعالى: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ فشعائره أعلام دينه. وحرماته هي من ارتضاه واجتباه وما أنزله من عنده؛ فعليك بحفظ حرمات الله وشعائره كلها وتعظيمها وإظهار شأنها وإعلان ثنائها وإشاعة ذكرها وحبها وموالاتها، فمنها أنبياء الله ورسله وملائكته وكتب الله المنزلة من عنده على رسله كلها وصحابة أنبيائه والعلماء الأمناء والمشايخ الأجلاء، ومنها الكتب المصنفة في علوم الشريعة وشعائر الدين وفي سيرة عباد الله الصالحين، والترغيب في شمائل العلماء المجتهدين والعبّاد المتعبدين الورعين الزاهدين، ومنها حب أعمال البر والطاعات. ومن كان متصفاً بها من العاملين ومقت أعمال المناهي والمعاصي ومن كان بها من الغافلين، ومنها تعظيم بيوت الله تعالى ومساجده المعدّة للعبادة، ومنها تعظيم قبور عباد الله الصالحين، ومنها إظهار مباني الدين الخمس وأركان الإسلام؛ فيعتني بإشاعة ذكرها وإظهار شعارها والإكثار من ذكر أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فيجب على كل مؤمن معرفة الرسول بما يتميز به عن غيره من نسبه وحسبه وبما يجب له من المنزلة والتشريف من ربه، قاله أهل التحقيق. وكذا إكثار ذكر الله تعالى كله بجميع أنواعه والجهر بذلك كله في محافل الناس ومجامع المسلمين؛ ليقتدوا بفعله ويقولوا بقوله، فيحصل لهم الأجر ومن الله الشكر، ومنها إظهار الجماعات في الصلوات وتكثير الأذان والدعاء إليها في جميع الأمكنة وملازمة صلاة الجمعة وتعظيم يومها، وإظهار صيام رمضان وإقامة شعائره ليلاً ونهاراً، وإظهار تفرقة

الزكاة والتحدث بها، ومثله إظهار الحج والعمرة وشعائره وتعظيم البيت والمواقف كلها وما أشبه ذلك للأمر بذلك كله.

فائدة ١٧

في الحث على العبادة والاقتصاد فيها

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن السعيد من طال عمره في طاعة الله، والشقي من طال عمره في معصية الله، وفي الحديث: «أحبُّ الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل» وقد ورد الثناء على رجال منهم رجل قلبه متعلق بالمساجد واليسر في الأمر والطاعة واستشعار العبد لها ودوام رغبته فيها والتباعد عن الملل واستمرار عزم القلب على الطاعات في ممر الأوقات. فقد قال العلماء: «من دام عزمه ونيته على أعمال البر والطاعات بالرغبة فيها وإن قلّ عمله أفضل ممن كثرت أعماله ثم تركها أو كان فيها بالسآمة والملل؛ لأن قلبه حينئذٍ بصفة الإعراض عن ذكر الله، وذاك بصفة الإقبال على الله. وإنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم هكذا قد ورد في الحديث. فأفهم ما قلناه وقس عليه كل عمل وعبادة، وقد ورد الأمر بالاقتصاد في العبادة وأخذ النفس فيها بالرفق والتدريج حذراً من الملل. وقد ورد «لا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله. خذوا من الأعمال ما تطيقون» وكفىٰ بهذا نصحاً وتعليماً. والعاقل فطِنٌ لما ينفعه حذِرٌ عمّا يضره. فعليك ثم عليك بالتفقه في الدين، والتشبه بعباد الله الصالحين. فاحرص أن تحب أهل العلم والصلاح وتشبه بهم في أحوالهم وأفعالهم بل في هيئتهم وزيِّهم بل في سيرتهم وعاداتهم وجالِسْهم وزاحِمْهم بالركب واعرفْ حقهم واحفظْ لهم الأدب إذ هم خير الناس والسادة القادة لهم فالعلماء العاملون هم السادة الأولياء قاله العلماء وفي الحديث: «المرء مع من أحب وإن لم يعمل كعملهم» وكذا ورد «من تشبه بقوم فهو منهم ومن كثر سواد قوم فهو منهم» وقال رسول الله ﷺ: «كن عالماً أو متعلماً

أو محباً ولا تكن الرابع فتهلك». وورد أيضاً: «الناس اثنان عالم ومتعلم والثالث همج رعاع» وورد أيضاً «لولا العلماء من بعدي لرجع الناس إلى الجاهلية الأولى» ولقد صدق ونصح أمته ﷺ فكل جاهل في ظلمة الضلال والجهل حتى تزول عنه بنور العلم، وإنما العلم بالتعلم من عند أهله بكل حال. وقولنا في مواضع كثيرة قد ورد يعني في الخبر النبوي المشهور فافهم. فالعلم الديني خير كله بكل حال ولا خير في الجهل بحال من الأحوال، وعمل البر والطاعة خير كله فاغتنم من ذلك ما يسره الله لك منها، ولا تستقل منها شيئاً؛ فلعل فيه رضا الله تعالى الذي يصلح العمر ويصلح بها المرء. فاغتنم ما أمكنك من العلم والعبادة ولو أن تصلي ركعتين، أو تقرأ سورة من القرآن، أو تتعلم في اليوم مسألة من العلم، أو تذكر الله ساعة أو نحو ذلك، أو تتفكر في خلواتك في ملكوت الله وقدرته وبطشه ورحمته. فكل ذلك من ذكر الله تعالى المأمور به وليس في طاعة الله ما يُستقل ويُستحقر، وفيه رضا الله الكريم. ولله درّ القائل حيث قال:

افعل الخير ما استطعت وإنْ كا ... ن يَسيراً فلنْ تحيطَ بكلِّهْ
ومتى تفعلُ الكثيرَ منْ الخيرِ ... إذا كنتَ تاركاً لأقلِّهْ؟

وكل عمل حصل لك عنده التعظيم لله والخشوع له وحضور القلب فيه، وجمع الهمّ على الله به فهو أفضل، وإنْ قل. وقد ورد أن الذكر لله تعالى أفضل الأعمال وإن خفت مؤنته على اللسان، وكانت سهولته أكثر على الإنسان، نعمة من الله على عباده، وأفضل الذكر تلاوة القرآن. قال الشيخ الكبير داوُد الشاذلي رحمه الله: «إقبال القلب على الله حسنة يرجىٰ أن لا يضر معها ذنب، وإعراض القلب عن الله سيئة لا يكاد ينفع معها حسنة. فاعلم ذلك واعمل بما هنالك». وقال: من حفت به عناية الله بورك في أوقاته كلها.

وقال الشيخ علي: جالس الكرام وإن لم تكن أهلاً للعطاء؛ فإن لهم أخلاقاً جميلة وعطايا جزيلة. انتهى.

فائدة

في لزوم الرحمة والشفقة على خلق الله تعالى عموماً وخصوصاً

قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن» وورد أيضاً: «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء» والصدقة محمودة على كل نفس منفوسة موجودة. ففي الحديث: «في كل كبد رطبة أجر» وفي الحديث: «أثقل ما يوضع في الميزان الصمت وحسن الخلق» قال العلماء: هو معاملة الخلق بما يؤنسهم ولا يوحشهم ما لم يخالف الشرع القويم. وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تتنافسوا ولا تناجشوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله. المسلمُ أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى هاهنا ثلاثاً ويشير إلى صدره» إذ هو محل خوف الله تعالى وتقواه وخشيته تمامه «بحسب إمرءٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم» فتأمل هذا؛ فأقل أحوال المسلم أن يكون قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. فهذا أنزله منزلته فاحفظ له حرمته ولا تحقره بكليته مع بغضه في الله ومهاجرته إلى حين فيئته وتوبته. «كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله. إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وروي: «ونياتكم» بدل أعمالكم. وروي أيضاً: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم» بدل أموالكم والكل حق وله وجه صحيح. وفي رواية: «ولا تهاجروا ولا تناجشوا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض» رواه البخاري ومسلم. فهذا الحديث في الصحيح ما أعظم فوائده، وأكرم عوائده، وأظهر شواهده، وأشهر قواعده. من تمسك به وعمل بمقتضاه صلحت عشرته للخلق، ورجحت خلطته وربحت صفقته، وكان فيهم محبوباً، وبينهم كريماً، ولهم رحيماً، وهنا مجال المسلم الصالح. وقال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة

قلنا لمن يا رسول الله؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه البخاري ومسلم. وتشمل النصيحة المشار إليها بهذا الحديث جميع أبواب البر وشعب الإِيمان أمراً ونهياً خصوصاً وعموماً، وهي الدين كله لا يخرج عنها منه شيء. فرحم الله من عرف الحق وأنصف وأشفق على دينه، واعترف ونصح لنفسه، ثم لمن يليه ثم لإِخوته من المؤمنين باللطف والشفقة والرفق ولين الكلام وطلاقة الوجه وزوال قبضه وعبوسته. وما أشبه ذلك من غير صولة فيه ولا تعيير ولا تحقير. فهذا أقرب إلى قبول النصيحة، وهذا كله من التعاون المأمور به في كتاب الله تعالى. قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوىٰ ولا تعاونوا على الإِثم والعدوان﴾ الاية، وإذا سَلِمَ القلب من ظلمة الهوى والجهل، وصدق صاحبه القول والفعل اتضحت له أسرار الشريعة ومقاصد الكتاب والسنة؛ فيرى حقائق الأمور على ما هي عليه. إذ القلب كالمرآة الصافية. فإن فَسِدَ بجهل أو هوى فَسدَ لبّه فيرى المنكر معروفاً والمعروف منكراً، فَيضِلّ ويُضِلّ والعياذ بالله. فالصادق ينفذ في الأسماع خطابه، وتأخذ القلوب حكمه وصوابه. فالناطقون من أهل العلم به فهم كثير، ولكن قلّ انتفاع الناس بهم لموانع في الجانبين في ذلك وفي ذا ومن الشفقة على الخلق العفو قال جعفر الصادق رضي الله عنه: لأن أندم على العفو عشرين مرة أحبُّ إليَّ من أن أندمَ على العقوبةِ مرة واحدة.

ولله درّ من قال:

إنّ الكرامَ إذا ما استعطفوا عطفوا ... والحرُّ يعصي ويهفو وهو معترفُ

والصلحُ خيرٌ وفي الإِغضاء مكرمةٌ ... وفي الوفاءِ لأخلاقِ التُقىٰ شرفُ

والعفوُ بعد اقتدارٍ فعله كرمٌ ... والهجرُ بعد اعتذار فعلهُ سَرفٌ

انتهى. فتمسك بذلك، واعمل بما هنالك. وفقنا الله وإياك آمين.

فائدة ١٧

في حكم العادة وتأثيرها

اعلم أن العادة والتكرار للشيء والتعود له أصل كبير نافع جداً كثير، في تسهيل الأمر الذي اعتاده وتكرر منه فعله، واعتياده مرة بعد أخرى على القرب والتوالي من غير فاصل يطول. فالعادة أصل في التسهيل والتيسير لكل أمر دين ودنيا ورياضة وخلق وعلم وعمل وغيرها. فمن هذا قال العلماء: حُسن التربيةِ للولدِ في صغره من أعظم السعادات؛ إذ الثوابُ يحصل للصغير بعمله له دون العقاب، ويحصل لوالده كمثله كما قد ورد ذلك وقالوا من ربى ولده بالأدب صغيراً قرَّت به عينه كبيراً. فمن ربىٰ ولده بالأدب والتعليم النافع والتعريف له بمصالح دينه ودنياه ورعاه في صغره بالحفظ والصيانة عن قرناء السوء، وعن الهمَّة الدنية في كل أحواله وعوَّده الهمَّة الرفيعة في أقواله وأفعاله، وعوَّده أفعال الخير والأدب في أكله وشربه ولبسه وخلطته ومعاشرته وكلامه وسكوته ونومه وانتباهه ونحو ذلك حتى نشأ وكبر على اعتياد الأدب في ذلك وسكنت نفسه عن الطيش والعجلة. وإفراط حب اللهو واللعب؛ فيكون هذا في كبره وإدراكه ساكن النفس عن بخارات حظوظها الشهوانية لضعف نفسه، وهواجسها، صحيح العقل صالح المزاج حسن الأخلاقِ فبمثل هذه الخصال ساد من ساد من الرجال، وظفروا في الدين والدنيا بالكمال؛ فإن ظهرت نفس صاحب التربية الحسنة وجمحت في بعض الأحيان سهل ردّها إلى الصواب بأدنى تذكير وتذكر وموعظة وعتاب وتفريع بخلاف من أُهمل في صغره ونشأ يجري مع نفسه في كل وادٍ لم يكن لها زمام ولا قياد، تتبع هواها وحظها في كل مرادٍ، ولم يكن له أب صالح يربيه، ولا معلم ناصح يهديه، فتولت نفسه سياسته، وقادت بزمامه

فاعتاد إذ ذاك الاعوجاج والانحراف، ونشأ على المعاصي والخلاف، وتعوَّد ذلك مدة من عمره، وبرهة من دهره؛ فتكون نفسه خبيثة متكدرة ومتحركة غير ساكنة، وعقله مريض غير صحيح، وفكرته وقريحته سقيمة غير سليمة، ولا يردعه عن فساده رادعٌ، ولا يقمعه عن عناده قامعٌ، قد تعدا على حدّه، وعتا فوق قدره، فلا للكبير عنده حرمة، ولا للجليل في عينه حشمة. فهذا صعب علاجه، عسر مرهمه ودواؤه قد صار داؤه كأنه غذاؤه وعادته السيئة التي نشأ عليها طبيعته وجبلته. فهذا في الغالب إلا على الندور وخفي لطائف المقدور. قال الحكماء: العادة طبيعة خامسة، يعنون أنها تؤثر في نفس الشخص كتأثير الطبائع الأربع، فافهم. وفي الحديث: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، وكذا كل مولود يُولدُ على الفطرة إلاّ أنّ أبواه يهودانه، أو ينصرانه» فهذا الحديث فيه إشارة إلى قوة تأثير العادة. وقال العلماء: ليست الفطرة متساوية، ولا الغرائز متدانية؛ بل تختلف اختلافاً متباعداً حسب قسمة الحكيم العليم. فمن كانت فطرته عليه قوية الصفات النورانيه سهلت تربية صاحبها، وهان تقويمها. وإن كانت الفطرة خبيثة بضد ذلك يصعب تقويمها ويعسر علاج صاحبها. ومع ذلك فللعادة والتعوّد أثر كبير ظاهر جلي في ذاك، وفي ذا. ومن ذلك المرء من جليسه الحديث: «والمرء على دين خليله» الحديث يعني أنه يتأثر بجليسه لطول مجالسته له، واعتياده لها، وطول مشاهدته لأحواله وأفعاله، وتشبه بخليله وانجذب إليه بطبعه والطبع ليسرق من الطبع حيث لا يشعر فافهم. واختر لنفسك خليلاً صالحاً تحتشمه وتهابه وتستحي منه. فهذا أعون لك على دينك وعلى صلاح أمرك. فأنت على دين خليلك. والنفوس مجبولة على حب التشبه والاقتداء. وقد أشار إلى معنى ما ذكرناه كله الشيخ الجليل عبد المعطي المالكي في كتابه إرشاد السالكين وأحسن التقسيم، وأمعن في التفهيم ويؤيد ما قلناه قوله ﷺ: «يموت المرء على ما عاش عليه» فهذا دليل كافٍ شامل لجميع ما ذكرناه ولله درّ الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله حيث قال في قصيدته:

نفوسُ البرايا كالمطايا تعوُّدُها ... إذا عوِّدت في كل شيء تطاوعُ

فان عوَّدوها الشرَّ جاءته عادةً ... وإن عوَّدوها الخيَّر جاءت تسارعُ

فاجتهد في تعويد نفسك أفعال الخير والطاعة والبر مع الخلقِ والخالق، وصابر على اعتياد ذلك تقرباً إلى الحق تسعد إن شاءَ الله تعالىٰ.

فائدة

في حُسن التّربية

اعلم أَنّ تربية الصغار والأطفال على الطريقة الحسنة والسمت الحَسن أصل أكيد أكيد، ونفعه قوي عتيد عتيد. فاعمل به في أطفالك وصغارك؛ ولو بالضرب ونحوه تكن محموداً عند الله، مشكوراً عندهم. فالأب مُطَالب بتعليم أولاده وتأديبهم، لما يلزمهم في دينهم ودنياهم، ومُحَاسب فيهم ومسئول عن ذلك لهم. قال الحكماء: صُنْ أطفالك عن رضعات اللئام. فالرضاع يُغيّر الطباع. إذا عرفت تأثير هذا في شأن الرضيع الذي لم يفهم ولم يميز فبعد التمييز يكون أقوى أثراً قال الحكيم:

وأسرع ما يأتي إليك تغيراً تكلف شيء في طباعك ضده

فالطبع هو ما نشأ عليه الصغير وربي به عليه في طفوليته حتى كبر عليه ونشأ به، ورسخ ذلك ولله درّ القائل حيث قال:

كُنْ ابن من شئت واكتسب أدباً من عجمٍ كنتَ أو من العربِ
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

قال الحكماء: شرف النسب له تأثير في طباع الأولاد. قال أبو الطيب المتنبي رحمه الله في شعره:

أفعالُ من تَلِد الكرامَ كريمةٌ وأفعالُ من تَلِد الأعاجمَ أعجمُ

وإنما هذا لحسن طبائع العرب الكرام، وحسن تربية الأولاد وقال أيضاً في عدم تأثير النسب:

أرى الأجدادَ يغلبُها كثيراً على الأولاد أفعالُ اللئامِ

وأمّا أفعالُ اللئام فهذا لسوء التربية، وإهمال الأولادِ في صغرهم، ومعاشرة اللئام، ومجانبة الكرام؛ ولا يخفى أن الخصال الكريمة في العرب أكثر منها في العجم. قال الحكماء: حُسن أدب خيرٌ من حُسن نسب. والحسنُ التربية والمعاشرة والتأديب والوالد الكريم الطباع يتأثر به ولده وينجذب إليه طبعه لطول المجالسة له والمشاهدة لأحواله، والممارسة لأموره لحديث: «المرء من جليسه». ولا يكون هذا التأثير إلاّ بالمراعاة لأطفالهم، وعدم إهمالهم مع نفوسهم فافهم.

فائدة ١٧

في الحث على علو الهمة

اعلم تحقيقاً أن علوّ الهمّةِ، وارتفاع العزيمة مطلوب في كل أمر من الأمور، مرغوب فيه جداً عند العقلاء والحكماء والرؤساء ذوي الصيانة والمروءة والديانة، وأيضاً فقد أرشد إلى هذا قوله ﷺ: إنّ الله يحبُ أن تؤتى معالى الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها أي دنيها. يعنى أنه يحبُّ الرغبة والطلب بالهمّة العليّة للأمور الرفيعة العليّة، ويكره الرغبه ووضع الطلب والهمة للأمور الخسيسة الدنيّة، ولا يخفىٰ ما قد نقل في الأخبار الصريحة والاثار الصحيحة عن الأنبياء والعلماء والحكماء من مدح المروءة والثناء على أهلها، وذكر فضائلها وذم من لا مروءة له واتّضاعه عند العقلاء وسقوط منزلته ورتبته في أعين العلماء والحكماء. قال رسول الله ﷺ: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإِسلام إذا فقهوا» يعنى أن من كان في الجاهلية له همّة علية لا يرغب أصلاً في الأمور الدنيّة، ويرتكب الشدائد والأهوال لتحصيل معالي الأمور، ويقاسي المشقات والمتاعب في ذلك طالباً لما هنالك. فهذا يكون بعد دخوله راغباً في الإِسلام، ومعرفته لحدود الأحكام من سادات المسلمين الأعلام، آخذاً في الدين بعزائمه، لا يترخص قط في شيء من أحكامه ولا تأخذه في الله لومة لائم له بملامة؛ فأمثال هؤلاء الرجال المتصفين بمعالي الخصال يكونون هم السادة المتبوعين، والقادة المتصدرين، والأئمة الهادين المهتدين. وهذه أعلى مناصب الدين وأصحابُها لهم الدرجات العلىٰ، والمراتب القصوىٰ في الجنة ناعمين. وأيضاً قال رسول الله ﷺ: «حب العرب من الإِيمان» هذا فيه إشارة إلى حبِّ الفضائل التي اختصوا بها دون غيرهم من العجم. فالعربُ طريقتهم التي سلكوا عليها، ودرج عليها أسلافهم والدّ بعد والدٍ هي

الخصال الحميدة، والأفعال السديدة، والطباع المستقيمة، والسجايا السليمة التي اجتمع رأيهم على الثناء عليها. ومدح المتصف بها وتقديمه رئيساً في قومه، وسيداً متبوعاً في جيله، مطاعاً في أمره. وقد نقل عن الحكماء منهم وصايا في ذلك. واشتهر عن الخطابين فيهم في مجامعهم الأمر بذلك، وتفاخروا في أشعارهم بعضهم على بعض باتصافهم بخصالهم الحميدة من الحلم عن الجاني واحتمال جفا الجاهل وإجارة الجار، والوفاء بالعهد، وحفظ الذمة، وصدق اللسان والسخا والجود في الخاص والعام، والقريب والبعيد، وإكرام الضيف غاية الإكرام بطيب النفس، وبشر الوجه. وكالشجاعة والصبر عند صدمات الأمور وقل الجزع والمواساة للغريب وإعانة الضعيف وإغاثة اللهيف، وكفل الأرملة واليتيم والحمية والغيرة للحريم والضعيف، وحرصهم على أمثال هذه من الأفعال الحميدة السديدة بحسن النظر في الأمور والعواقب الخفية وإصابة الرأي في المصالح العليّة. فمن اتصف بهذه في الجاهلية فبعد دخوله في الإسلام لا شك في أنه يكون من السادة الأعلام فقد كُفي مقاسات اكتساب الوصف الممدوح والتنزه عن القبيح المذموم لكونه قد اعتاد ذلك في الجاهلية، وأخذ بها نفسه وقوّم فيها طبيعته، ودرج عليها في كثير مدته بخلاف من كان من المسلمين ملطخاً بالقبائح عرياً عن المدائح، لم يكن قد اعتاد ذلك فيما سلف من عمره، ولم يرض بها نفسه في شيء من أمره. فلا بدّ له من المقاساة لتحصيل التحلي بالمحاسن، والتخلي عن المساوىء واحدة بعد واحدة فيتعوّد فعل الخير وخصاله بالهمّة العليّة أصل كبير جليل. فافهم فتعوُّدُ علوّ الهمّة وارتفاع العزمة في كل الأحوال والأفعال أصل كبير وأساس أكيد لتحصيل خصال السادة من الرجال المقتدى بهم في الأفعال والأحوال دون المتصفين منهم بصفات الأنذال الذين دنت بهم هممهم، وهويت بهم عزائمهم إلى حظيظ الخصال؛ فصاروا من الدناة الأراذل اللئام في غالب الأحوال. فكم من رجل قد انحط عن المراتب الرفيعة بعد نيله لها إلى حظيظ اليفاع الوضيعة فصار من أهلها لتعاطي الهمّة الدنيّة النازلة. فافهم ولله درّ من قال:

مــن تــدنـىٰ دنــت بـهِ هــمّــتــهُ   لــو يــكــنْ عــالــيــاً بــالــزبــرقــان

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا يحل للمؤمن أن يذل نفسه في طلب الدنيا والدنايا لا في طلب الدين والمعالي، فليست الذلة في الدين المحمودة بذلة فحقيقتها هي العزة. فالتواضع محمود والضعه مذمومة، والتكبر مذموم والعزّة محمودة». ولهذه الألفاظ حدود ذكرها المصنفون في كتبهم فانظرها قال بعض الحكماء في شعره:

الله يعلم أنني ذو همّةٍ ... تأبى الدّنايا عفةً وتظرّفا
لِمَ لا أصون عن الورىٰ ديباجتي ... وأريهمُ عزّ الملوكِ وأشرفا

وقال آخر:

يقولونَ لي فيكَ انقباضٌ وإنما ... رَأوا رَجلاً عنْ موقفِ الذُّلِ أحجما
يقولونَ هذا منهلٌ قلتُ قد أرىٰ ... ولكنّ نفسَ الحرّ تحتملُ الظما

وفي الأثر الطمع ذلٌّ وفقرٌ. واليأس عزٌّ وغنىً وورد القناعة راحة وغنى وعز وكنز لا ينفذ والرغبة والحرص همٌّ وذل وعناء وفقر لا ينتهي. فكل هذا مدحٌ للهمّة العليّة وذمٌ للهمّة الدنيّة قال الإمام الشافعي رحمه الله ونفع به:

أزلتُ مطامعي وأرحتُ نفسي ... فإن النفسَ ما طمعت تهونُ
وأحييتُ القنوعَ وكان ميتاً ... وفي إحيائه عرضي مصونٌ
إذا طمعُ ألمّ بقلب عبدٍ ... علته ذلةٌ وعَلاه هونٌ

وكان في الزمان الأول أهل الفضل والعقل يتعلمون الحرفة، ثم يتعلمون العلم حتى لا يطعمون في الناس صيانة للهمة، وتشريفاً للمؤمنين ذكره أبو الليث في كتاب الاداب. وقال الإمام الشافعي رحمه الله: لو كانت المروءة في ترك شرب الماء لم أشرب الماء رغبه فيها وحفظاً لها، وهي إشارة إلى رفع الهمّة عن الدنايا وتعلقها بالمعالي من الأمور والمصابرة عليها؛ ولهذا حرّم الله السؤال من الناس إلاّ لحاجة مهمة ماسة، مقارِنةٍ لضرورة صيانة لهمّة المؤمن عن الذلة في المسألة لغير الله تعالى؛ ولهذا حرّم الله قبول الزكاة على بني هاشم وبني المطلب تخصيصاً لهممهم، وصوناً لها عن أخذ أوساخ الأموال، وإن كانوا في الحاجة

بمثابة غيرهم من المؤمنين الفقراء والمساكين. فافهم وعوِّد نفسك فعل المعالي وترك الدنايا، وتحمّل في ذلك المشاق، وصابر وجاهد على اعتياد ذلك تظفر بالهمّة العاليّة في كل خير. قال بعض الصحابة رضي الله عنه: قيمة المرء همّته. أو قال: قدر المرء على قدر همّته. وقال بعضهم: الدنيا دنية وأدنا منها الراغب فيها، ومن أقوى ما يعين المرء على جلب الهمّة العليّة الجود بالمال، وتعوّده في العسر واليسر، وفي كل الأحوال فإنك لا ترى سخياً إلاّ ذا همّة عاليّة، ولا بخيلاً إلاّ ذا همّة خسيسة دنية وإن اتصف بجملة من الصفات الحميدة. فالبخل أم الخبائث والسخاء أم المعالي، فتعوَّد ذلك. قال بعض الأكابر المعروفين بالسخاء: إنا في ابتداء أمرنا لنتسخى ونكلف أنفسنا السخاء حتى صار لها خلقاً طبعاً. وقال الحسن البصري رحمه الله: لعن الله الدانق ومن تدنق، فلا همّة له. ومن تدنق دنق له، ومن يذكُر الدانق في معاملته فلا مروءة عنده ولا دين لمن لا مروءة له. فافهم فجمال المرء في حياته السخاء والجود بالمال في كل الأحوال، وجماله في آخرته بالتقىٰ وتمام الجمال للمرء في حياته أن اتصف بالسخاء والتقىٰ. وقال رسول الله ﷺ: «من تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه». أي لا يحل للمؤمن أن يذل لأهل الدنيا صيانة لهمّته؛ ولذلك مدح الله الفقراء الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعففِ لصبرهم وإظهار التجمّل في ظاهرهم، وكتمان فقرهم لا يسألون الناس صيانة لهمّتهم، واكتفاء بكفاية خالقهم ورازقهم لقوله تعالى: ﴿أليس الله بكافٍ عبده﴾ فافهم.

فائدة ١٧

في رتبة الصبر

اعلم أن الصبر أصل كبير، لا ينال أمرؤ خيراً في الدين والدنيا والاخرة إلاّ به، وهو من الدين كالرأس من الجسد. كما ورد في الحديث. وورد أيضاً: «وما أعطي أحد عطاء هو أوسع من الصبر». وقد ورد في القرآن العزيز والسنة النبوية في مدح الصبر والصابرين والثناء على ذلك بما لا ينحصر من الايات والأخبار والاثار، حتى قيل: ما مدح الله في القرآن شيئاً أكثر من الصبر. فقد تكرر كثيراً في آيات وسور كثيرة، وفضله ظاهر جلي لا يحتاج الترغيب؛ إذ لولاه ما حصل لأحد مرام، ولا بلغ شريفٌ حالاً ولا مقاماً، وجزاء الصابرين بغير حساب، ويؤتى من الأجر مرتين لقوله تعالى: ﴿إنما يُوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾. وقال تعالى: ﴿يُؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾. وفي الحديث: «واعلم أن النصر مع الصبر». يشير به إلى نيل الصابر وظفره بمراده. فافهم.

وفي هذا كفاية. والصبر يكون على امتثال أمر الله، وعلى السكون، وعدم الجزع عند نزول البلاء وحلول القضاء، والرضا عن الله، وانتظار الفرج من الله. فمن قويّ إيمانه، وصلب دينه، واشتدت عزيمته وصبره هانت له صعاب الأمور، فظفر بكل خير، وكانت عاقبته النصر والفرح والسرور. وقال رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل». وورد أيضاً: «يُبتلى المؤمنُ على قدر إيمانه» فإن كان إيمانه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة أبتليّ بقدر ذلك. فافهم. فالابتلاء للأنبياء وأمثالهم زيادة في الكرامة، وتشريف للمنزلة، وابتلاء الضعفاء والجهلة الأغبياء إن صبروا واحتسبوا فلهم أجر وتطهير، وإن لم يصبروا

وجزعوا فزيادة في الوزر مع عدم الأجر هكذا قاله العلماء ولله درّ من قال:

مَنْ تجرّع غصصَ الصّبرِ يَذُقْ حلاوةَ النّجحِ وإنْ طالَ المدا

وقال آخر:

علىٰ قدر فضل المرءِ تأتي خطوُبُه ويعرف عِنْد الصّبرِ فِيما يَنُوبُه
ومَنْ قلّ فيما يتقيه اصطبارُهُ فقدْ قلّ فيما يرتجيه نَصيبُه

واعلم أن التقوىٰ هو الكرامة الكريمة في الدنيا والاخرة، وهو وصية الله في الأولين والاخرين لقوله تعالى: ﴿ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾. وقال ﷺ لمن استوصاه: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها». وقد ورد آية واحدة لو عمل بها كل الناس لكفتهم في الدنيا والاخرة قوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾. رواه الحافظ البيهقي والتقوىٰ مأخوذ من اتقاء الأمر الضار، وأقل مراتبه فعل الواجب، وترك المحرم من العلم، والعمل فالله الله انصح لنفسك واتق الله حيث ما كنت، واصبر وصابر على ذلك حتى يأتيك اليقين، فما أحوج المرء إلى الصبر والعزيمة القوية على امتثال أمر الله بطاعته واجتناب نهيه ومعصيته. ففي الحديث: «الصابر على سنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد». فأعمال البر كلها يضاعف أجرها ويتزايد من الله شكرها لمن لزمها وصابر عليها في زمان الانعكاس وعند فساد الناس. فافهم والزم ولا يخفى على المتأمل شدة اعتناء الشريعة بالتحريض والحث على اجتناب النهي مطلقاً أكثر من غيره لقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمرٍ فافعلوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه». فأكد في النهي وخصص بعموم اجتنابه وقال تعالى: ﴿وذروا ظاهر الإِثم وباطنه﴾ قال الإِمام الجنيد ـ رحمه الله ـ ونفع به أعمال البرّ كلها سهلة يعملها البرُّ والفاجر وأمّا المعاصي فلا يجتنبها إلاّ وليّ صديق، يعنى مؤمن قوي الصبر شديد الحزم متأس بأولي العزم. وحُكي عن لقمان الحكيم ـ رحمه الله ـ أنه قال في وصيته لابنه: يا بني افعل ما يصلحك في دينك ودنياك، وامض في مصلحتك حتى تنتهي منها، ولا تحتفل بالناس، ولا تصْغ لقولهم واعتزلهم فلا سبيل إلى رضاهم

ولا حيلة في اجتماع قلوبهم: يا بني إئتني بحمار وانظر ما يكون فأتاه به فركب لقمان عليه وأمر ابنه يسوق به الحمار، فمرا بمحفل من الناس فقالوا الصغير يمشي والكبير يركب ما أجفاه وأغلظه، فقال يا بني ما قال الناس؟ فأخبره فنزل عن الحمار وأركب ابنه وساق به، فمرا بمحفل من الناس آخر فقالوا: الصغير يركب والكبير يمشي على قدمه ما أجفى هذا الصغير وأسوأ أدبه، فقال يا بني ما قال الناس؟ فأخبره بما قالوا فركب الأب عنده، فمرا بمحفل آخر فقالوا اثنان يركبان على حمار من غير علة ولا ضعف ما أغلظهما. فقال يا بني ما قالوا؟ فأخبره فنزلا جميعاً عن الحمار وساقاه، فمرا بمحفل آخر فقالوا سبحان الله حمار يمشي وهو صحيح قوي ورجلان يمشيان على القدم؛ هلا ركب أحدهما؟ فقال يا بني ما قالوا؟ فأخبره فقال: يا بني افعل ما يصلحك ولا تحتفل بالناس إنما أردت بهذا تعليمك. ولله درُّ الحافظ المنذرى حيث قال رحمه الله:

اعملْ لِنفسكَ صَالحاً لا تحتفلْ … بسماع قيلٍ في الأنامِ وقالْ
فالخلق لا يرجى اجتماعُ قلوبِهم … لا بدّ من مثنٍ عليكَ وقالْ

يعني مبغض جاف. فافهم ولا يصدك عن مصلحتك المحمودة في العقل والنقل الحياء فإنه من ضعف القلب وقلة الصبر فإنما يحمد مثل هذا في النساء والصبيان. وأما الحياء المانع عن ما يحمد في الدين فقبيح بكل حال، وليس من الدين في شيء فافهم وانصح لنفسك واستعن بالله على كل أمر، فهو المعين.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الإِيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل». رواه ابن أبي الصيف اليمني رحمه الله حكايه في الصبرِ حُكي أنّ السيد الصالح أبا عبد الرحمن عتيق باكثير الحضرمي رحمه الله كان كثير السفر، وكان طالباً في سفره الاعتبار والفائدة قال: كنت يوماً في سوق عدن أنظر في كثرة الجمع، وضجت الأصوات، فإذا فيهم رجل يكرر هذه الاية ويرددها وهي قوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنه أتصبرون﴾. ويرددها في نفسه ثم يقول: سمعنا وأطعنا بلىٰ نصبرُ، فكنت أرمقه حيث لم يعرفني؛ فلبث يومه يرددها ويجيب بمثل ذلك والناس عنه مشغولون لم يسمعه إلاّ أنا فانظروا حسن الظن بكل مسلم واعتقاد

وجود الحق بكل عصر وكراماتهم إلى قيام الساعة واجب اعتقاده على كل مؤمن. فقد ورد: ﴿لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من ناواهم إلى قيام الساعة فمن ايقظ الله قلبه واحياه بذكره وحبه كان صالحاً في كل موطن رابحاً في كل حين، واوان»﴾. فافهم ولا تحقرن في أهل الزمان. ففي الحديث: «إن الله أخفى ولايته وسرّه في خلقه، فلا تحقرن منهم أحداً، وكرمه على عباده لا يختص بزمن دون زمن».

فائدة ١٧

في الحثّ على العلوم الدينيّة

اعلم أن أصل السعادات والكرامات الدنيوية والأخروية ونيل الدرجات والمراتب العلوية والأخروية إنما هي بالعلم وأربابُها هم العلماء. قال الله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. والعلماء سادات الناس في الدنيا والجنة كما ورد في الخبر: «إن العلماء ورثة الأنبياء» والجهل أصل كل بلاء وشقاوة وحرمان وخسران. وقد ورد الثناء على العلم الديني في الكتاب والسنة بما لا ينحصر لحاصر، وورد أيضاً فيهما تسمية الجهلة وشبيههم بالموتى والعميان وكالنار الحرور، والظلمة التي ليس لها نور، وما أعظم هذه من قبائح قال تعالى: ﴿وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ الآية ذكر في التفسير أنه يريد بالبصير وإخوانه العالم ويريد بالأعمىٰ وإخوانه الجاهل. فافهم وانصح لنفسك قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يستخف بهم إلاّ منافق: ذو الشيبة المسلم، وذو العلم، والإمام العادل. وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تسد، وموت قبيلة أيسر من موت عالم، وهو نجم طمس. وما من شيء أقطع لظهر ابليس من عالم يخرج في قبيلة». وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لا تزالون بخير ما أحببتم خياركم وما قيل فيكم بالحق فعرفتموه، فإن عارف الحق كفاعله. وقال أيضاً: إني لأخبركم بالأمر ولا أفعله، ولكن أرجو أن أؤجر عليه ينفعكم علمي إن لم ينفعني لتقصيري. وقال حذيفة رضي الله عنه: عجب من هذا الزمان؛ إنَّ معروفكم هذا منكر زمان قد مضى، وإن منكركم اليوم معروف زمان قد دنى وإنكم لن تزالوا بخير ما عرفتم الحق. وكان العالم فيكم غير مستخفٍ فطوبىٰ لمن عرف الحق له وعليه وعظّم أهله

واعترف بتقصيره وقال أيضاً: يكون في آخر الزمان قوم يكون العالم بينهم بمنزلة الحمار الميت، لا يلتفتون إليه، يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فينا اليوم. فالمؤمن عندهم أذل من الأمة المستخدمة. فعليك يا أخي بتعلم العلم والجد فيه وسؤال أهله والمجالسة للعلماء الورعين. ففي الأثر: «جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله يحيي القلب بنور العلم كما يحيي الأرض الميتة بقطر السماء. وأيضاً أوصى لقمان ابنه بنحو ذلك. واعلم أن أئمة المذاهب الأربعة المعروفة على الحق لم يكن منهم قرشي سوى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى. وقد ورد: «الأئمة من قريش» فلهذا اختار العلماء مذهبه كما ذكره صاحب البيان. فيجب عليك أن تتعلم من علوم الدين ما تكون به من المتقين فتعرف حدود الأحكام وقواعد الإسلام، وتميز الحلال من الحرام، ويجب عليك أن تبحث عن ذلك وتتعلم ما هنالك، ولو بالرحلة إلى أهله لتأخذ الحق من أصله، ويحرم أن تقيم على الجهل بلوازم الدين وشعائره. فلا يعذر الجاهل في جهله. وقد ورد: «لا يحل للعالم أن يسكت عن علمه، ولا للجاهل أن يسكت على جهله» ويجب عليك أن تُعلِّم من يليك من أهلك وولدك وعبيدك ما يلزمهم في دينهم من عقائد أهل الحق، وتعرِّفهم حدود الأحكام وما عليهم من لوازم الإسلام والتمييز بين الحلال والحرام؛ ليعلموا تحريم الزنا والخيانة والسرقة والكذب والغيبة والضر والإيذاء ونحوه، ووجوب الصلاة والصيام والصدقة ونحو ذلك. والوالد والوالي مطالبون بتعليمهم وتأديبهم بما ينفعهم ولله درّ من قال:

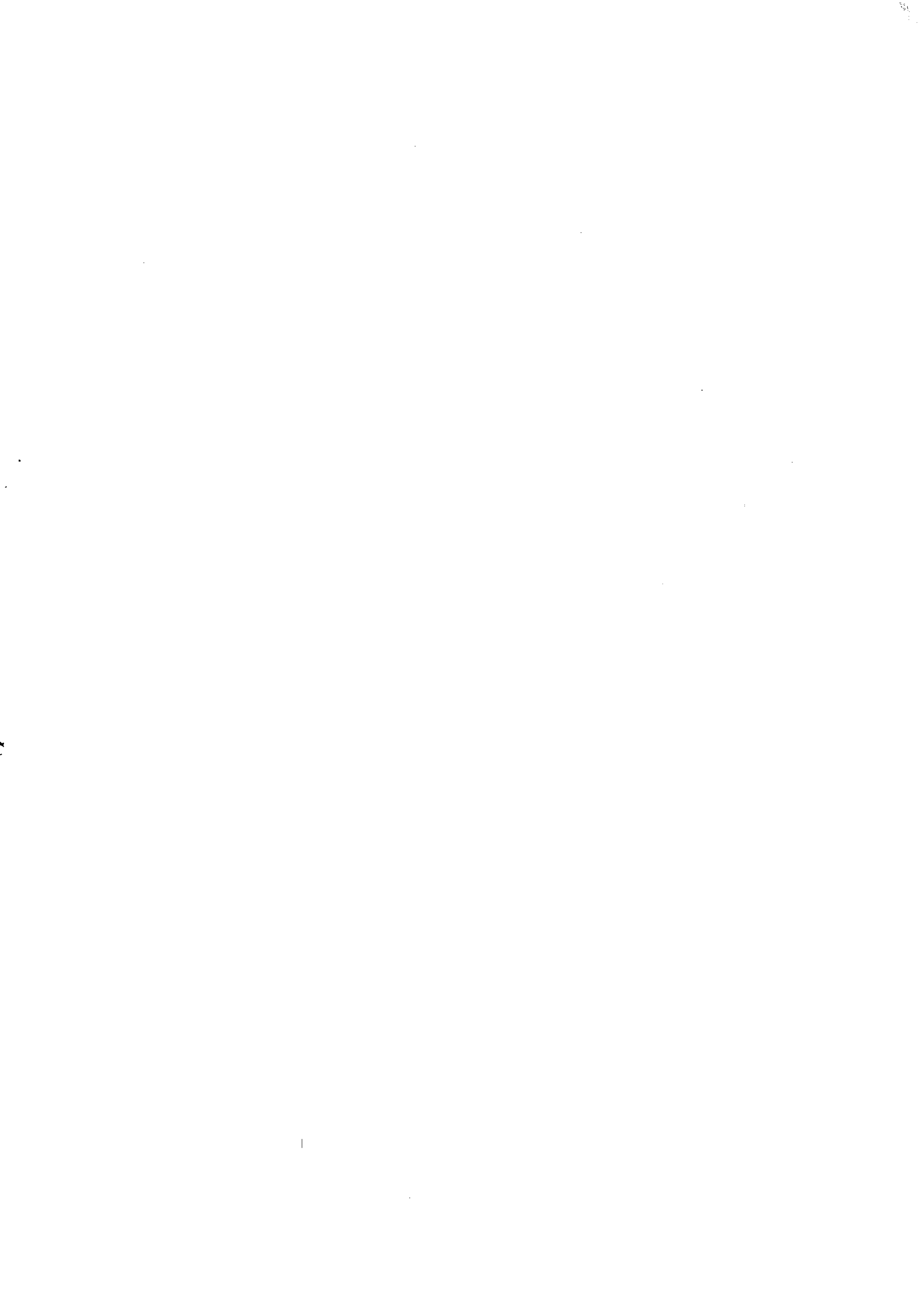
تـعـلّـم فـلـيـسَ المرءُ عَـالِماً ... وليسَ أخو علمٍ كمن هُو جاهلُ
وإن كـبـيـر الـقـومِ لا عـلـمَ عِـنـده ... صـغـيـرٌ إذا الـتـفـت عـلـيـه المحافـلُ

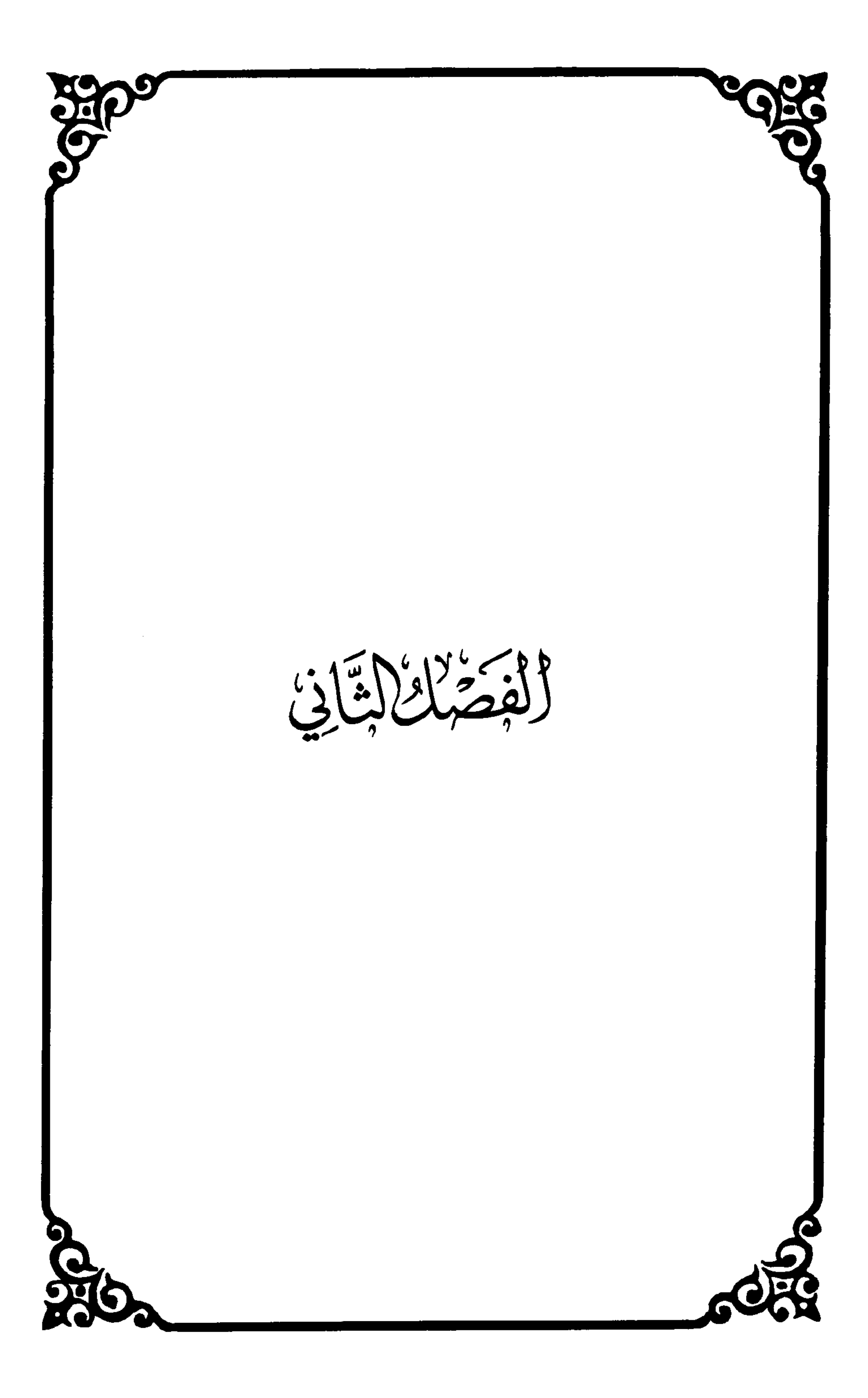
ولله درّ من قال:

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلهِ ... وأجـسـادهـم دون الـقـبـورِ قـبـورُ
وإن أمرأ لم يُحيي بـالـعـلـمِ صـدرَه ... فـلـيـسَ لـهُ حـتـى الـنـشـورِ نـشـورُ

قيل لابن عباس رضي الله عنهما. بم أدركت العلم؟ قال: بلسان سئول وقلب عقول. قيل العلم عز لا ذل فيه لا يدرك إلاّ بذل لا عز فيه. قال علي بن

أبي طالب كرّم الله وجهه؛ أنا عبد من علّمني حرفاً. وقال: أهل العلم تأنث تلقح ولا تفحل تقمح، يعنون به تواضع لمن تتعلم منه قال الإمام أبو الليث رحمه الله واعلم أن طالب العلم لا ينتفع به إلاّ بالتعظيم للعلم وأهله، وتوقير الأستاذ فإن حفظ الحرمة خير من الطاعة. ألا ترىٰ أن الإنسان لا يكفر بالمعصيه، وإنما يكفر بترك الحرمة. وقال الشيخ الشريف علي بن ميمون المغربي المالكي رحمه الله في حق الأئمة الأربعة يعني الإمام الشافعي ومالك وأبا حنيفة وأحمد بن حنبل رحمهم الله وجزاهم عنا خيراً أرباب المذاهب قال وقد انعقد الإجماع على أنهم أئمة الهُدىٰ في العقائد الإيمانيه والعلوم العمليه محفوظون بحفظ الله في كل أحوالهم، منزهون عن كل وصف يؤدي إلى النقص ولا يجوز استنقاصهم. فمن لم يمتثل الكتاب والسنة في تعظيمهم وتنزههم عما لا يليق بهم فقد خرق الإجماع. قال الله تعالى: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوىٰ القلوب﴾. وأعظم شعائره أنبياؤه وورائهم. فافهم وإن الإمام الجليل سيد الطائفة الجنيد رحمه الله إمام في السنة وطريقته مستقيمة وأصولها في الكتاب والسنة معلومة إذ هي مبنية على الصدق والإخلاص والتبرى من الهوىٰ والحول والقوة. والدعوىٰ أربابها هم السادة الصوفية أهل الصفا والنور والمعرفة واليقين، والرسوخ في رتب التمكين هم أولى الناس بالمتابعة والأسوة وأحقهم بمذهب أهل السنة، كما وصفهم بهذا الإمام ابن السبكي في أصوله وغيره. فعليك بالتمسك بهم والأخذ بعزائمهم تظفر بالخير انتهى. وأيضاً فالإمام أبو الحسن الأشعري إمام في السنة مقدم عندهم في العقائد الإيمانية، وهو من ذرية الصحابي أبي موسى الأشعري رضي الله عنهم ذكره العالم السيوطي في النقاية.





الفَصْلُ الثَّانِي



فائدة ١٧

في تأكيد لزوم اقتفاء الكتاب والسنة والتمسك بهما إلى يوم القيامة والتحذير من الابتداع في كل شيء فلا خير فيه .

قال رسول الله ﷺ: «تركت فيكم ثقلين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيكم». وفي رواية «كتاب الله وحفظ أهل بيتي». وقال رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين. عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». وكان العلماء والأئمة من السلف أهل شدة في التفحص والبحث عن الكتاب والسنة، يقتفون آثارهما ويهتدون بهديهما ونورهما، في أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم وعلومهم وعقائدهم وعاداتهم، لا يخرجون عن ذلك أصلاً حتى كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مر بشجرة يوماً فأدار راحلته بها طائفاً فقيل له في ذلك: لا أدري إلاّ أني فعلت كما فعل رسول الله ﷺ وما أدري هل هو فعل ذلك قاصداً، أو ناقته دارت به. وكان آخر يتعهد شجرة بعد عهده ﷺ، يحمل لها الماء في سفره ويسقيها. فقال: كان رسول الله ﷺ إذا مرّ يستظل تحتها فأنا أريد بقاؤها لأستظل تحتها. وأشباه هذا كثير. فتأمل قدوة أصحابه في هذا الحال فضلاً عن أفعاله وجميع أحواله. قال بعض الأئمة: إياك أن تدعو الله بدعوات من عندك، تضرع إليه بما ورد عن نبيه من الدعوات يفتح لك باب الإجابه، فإن الدعوات المأثورة عنه تعرف طرق السماء، وما صح في الكتاب والسنة فخذ به وعض عليه، ولا تعدل عن ظاهر النصوص في الأحكام إلى غيرها واعزل عقلك عن التأويلات الفاسدة. فقد ضل بها من لا خلاق له في الاخرة ورأى سعيد بن المسيب رحمه الله رجلاً يصلي في غير أوان الصلاة، فنهاه عنها وقال:

يعذبك الله إن لم تنته. فقال له: أيعذبني الله على الصلاة والعبادة؟ فقال: لا. ولكن يعذبك على مخالفتك للسنة. وسمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رجلاً عطس فقال: الحمد لله والسلام على رسول الله. فقال له: وأنا أيضاً أقول الحمد لله والسلام على رسول الله، ولكن ليس ذلك من السنة في هذا الموطن. قل الحمد لله رب العالمين. فنقول لك يرحمكم الله والسنة اللازمة الإتباع في كل شيء ووضع كل شيء موضعه منها من غير تبديل ولا تحريف، وعزل العقل والفعل عن غير ذلك. وهذا هو النصيحة لله ولكتابه ولرسوله. والدين النصيحة. فتمسك بها دائماً شديداً فشريعته مستمرة دائمة إلى يوم القيامة، وأحكامها ثابتة لا تبدل ولا ينسخها ناسخ إلى يوم الدين. بل هي الناسخة لما تقدمها من جميع الشرائع. وقوله ﷺ: «سيأتي زمان من تمسك فيه بعشر ما أنتم عليه اليوم نجا» قال الأئمة المحققون من السلف والخلف معناه محمول على النهي عن المنكر والأمر بالمعروف. ففي الصدر الأول لا يكاد يبدو منكر إلا تبادروا لإزالته فأزالوه، ولا معروف إلا تسابقوا له وفعلوه. فانحسم الشرُّ فانقطع كيد اللعين. وفي آخر الزمان تكثر المنكرات، ويتظاهر بها أهل الفساد، وتسلب الشوكة والغلبة فلا يكاد أحد يقوم بعشر الإنكار فيها والزجر لأهلها لكثرتها، وخوف الحتف والتلف من أهلها. أو يحمل الحديث على من تمسك بعشر ما كانوا عليه من الوفاء بينهم والتحابب والمصافاة والإنصاف والإيثار. فأفعال أهل الصدر الأول في ذلك مشهورة مذكورة، وطريقتهم هذه بعدهم صارت مهجورة لا يكاد أيضاً يفي أحدهم بعشرها، أو يحمل على معنى لائق بمحاسن الشريعة، سائغ في أصول الدين. وكلام العلماء في ذلك مبسوط. وأما الشريعة وأحكام الكتاب والسنّة من الفرض والواجب والحلال والحرام ونحو ذلك، فلا يتغير في الزمن الأخير ولا ينقص من أحكامها ذرة إلى يوم القيامة. والمجتهد من أهل السنّة والحق إنما هو متبع لهما ومهتد بأنوارهما. فالله الله في التمسك بهما، ولا تغتر بكثرة الضالين الخارجين عنهما. فصابر على ذلك. ففي الحديث: «الصابر على سنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد». الحديث قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾. واستعن بالله واخلص له وقل إياك نعبد وإياك نستعين.

فائدة

في تقديم العلوم الإيمانية على غيرها

اعلم أن أهل السنّة من الخلف والسلف ومن له عناية بدينه وشفقة على نفسه يكون المقدم عنده والأهم عليه بحثه ونظره وتفحصه في تصحيح عقائده في الدين وترسخها وتأكيدها بأنوار العبادة الخالصة لله وتأييدها بالأدلة والبراهين الصحيحة السليمة عن الرأي الفاسد والهوىٰ المتبع، وبالتباعد عن الشبهة والأغاليط المشوشة لصفاء العقيدة التي هي من تلبيس الشيطان وكيده فعقائد أهل السنة والطريقة الأشعرية موجودة مبسوطة مثل عقيدة حجة الإسلام محمد الغزالي وشهاب الدين السهروردي وشبههما من عقائد أهل السنة الصحيحة. فمعرفة الوصف بالمتميز بين القديم والمحدث فرض متعين. فإمعان النظر في ذلك واجب، وتعلمُ حدودها لازم هذا على طريقة من أثبت الإيمان بالتقليد الصحيح إذ الجزم به عقد المقلد وصمم عليه. فقد قال جماعة من أهل السنّة والمحققين أن ذلك يكفي في عقائد الإيمان والحمد لله، فلا يسع عموم المسلمين إلاّ ذلك. وقال جماعة من الأئمة وسلف الأمة لا بدّ للمؤمن في عقائده من البحث والنظر ووقوفه على الأدلة حتى ترسخ عقائده بما عنده من البراهين عليها، ولا يكفي فيها التقليد. وقد ورد في الكتاب والسنة لفظ الإسلام تارة ولفظ الإيمان تارة، وللعلماء في الجمع بينهما كلام طويل. والحاصل أن الإيمان هو التصديق بالقلب والإسلام هو الانقياد والاستسلام. فالإيمان باطن والإسلام ظاهر دال عليه. وقالوا لا يكفي الإيمان بالقلب دون نطق اللسان بالشهادتين للمتمكن منه. وقالوا: الدين قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان للحديث في سؤال جبريل عليه السلام يا رسول الله اخبرني عن الإسلام قال: «هو أن تشهد

أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت قال: فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وبالقدر خيره وشره» الحديث رواه مسلم فانظر كيف جعل الإسلام عملاً ظاهراً والإيمان عقداً باطناً، ولا بدّ للمسلم من الجمع بينهما وقوله تؤمن باليوم الاخر يعنى وبما اشتمل عليه من البعث والحشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار ونحوه. فكل ذلك حق ثابت في الكتاب والسنة فيجب على كل مسلم الإيمان بذلك جملة، وتفويض حقائقه وتفاصيله إلى الله تعالى. فرسوخ العقيده في القلب أهم كل أمر والاعتناء بذلك أصل كل خير وعلى ذلك ينبني كل الدين أوامره ونواهيه والعبادات والعادات والأذكار والطاعات ويكون إخلاصها وثوابها وقبولها، ويتضاعف جزاؤها ونفعها في الدنيا والاخرة على قدر قوة اليقين، ورسوخ الإيمان. فإذا قوي إيمانه لا يتزلزل عند هجمات البلايا وصدمات المصايب، فما أحوجه إلى ذلك خصوصاً عند سكرات الموت وأهوالها وصدماتها. فالسعادة إنما هي حسن الخاتمة وإنما الأعمال بخواتيمها. ومن دعائه عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعل خير عمري آخره وخير عملي خواتمه وخير أيامي يوم ألقاك فيه». فهنيئاً مريئاً لمن احسن الله خاتمته بالعمل الصالح وطوبىٰ ثم طوبىٰ لمن توفي وقُبضت روحه على الإيمان وبخٍ بخٍ لمن كان خاتمة عمره وآخر أمره التوبة الصادقة. فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، فمن أحسن الله خاتمته وأصلح له عاقبته. فهو السعيد يرجى له كل خير في الاخرة، وتدركه كل نفاعة وشفاعة في جميع أحواله فعليك ثم عليك بتصحيح إيمانك، وتدارك ما فات من زمانك بحسن التوبه وصلاح العمل والسريرة. وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضىٰ، وختم لنا بكل خير في عافية. وقد ورد في الحديث: «أن الملكين منكراً ونكيراً سائلان صاحب القبر عن ربه ونبيه ودينه. فالسعيد يثبته الله بالقول الثابت، وآخر إذا سئل من ربك وما دينك؟ فيقول في كل ذلك لا أدري فيقولان له لا دريت ولا تليت الحديث. وهذا يشمل بالضرورة من كان ينطق بالشهادتين ولا يدري ما معناهما ولا ما المراد بهما. فقد قال الشيخ الجليل الصفار رحمه الله في عقيدته: ليس من أهل الإيمان من

يقول لا إله إلاّ الله محمداً رسول الله قولاً مجرداً عن المعرفة بمعناهما حتى إذا قيل له ما المراد بقولك هذا فيقول لا أدري. سمعت الناس يقولون مثل ذلك فقلت مثلهم ولا أدري. انتهى بمعناه والحق عند جمهور أهل السنّة أن الإيمان يزيد وينقص. يزيد بأنوار الأعمال الصالحة وينقص بشؤم أعمال المعاصي؛ ولذلك عندهم أدلة نقلية وبراهين عقلية، ويشهد له معرفة المؤمن بنفسه واختلاف أحواله عند طاعته ومعصيته.

فائدة

في الحث على العمل الصالح

اعلم أنه ورد في القرآن العزيز إقتران العمل الصالح بالإيمان. فأكثر ما يأتي ذكر الإيمان إلاّ وقُرن به العمل الصالح. قال الله تعالى في مواضع كثيرة: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وفي مواضع ﴿وآمن وعمل صالحاً﴾ قال العلماء: والعمل الصالح هو العمل الموافق للسنة السليم من البدعة الخالص لله تعالى. قال الفضيل رحمه الله: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل أيضاً حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله تعالى. والصواب أن يكون على موافقة السنة، ويشمل كل عبادة وعمل برٍّ وطاعةٍ من الأذكار والدعوات والتلاوة وفعل الصدقة والتعلم والتعليم والخلطة والمعاشرة ونحو ذلك. فالله الله جاهد هواك واجتهد في طاعة ربك ومولاك حتى يأتيك اليقين. فعند الصباح تحمد القوم السرى وعند الحصاد يغلب الفرح الترح فعوِّد نفسك أفعال الخير وأعمال الطاعة في كل أحوالك. فالنفس منقادة لما عرفته من العادة. ففي الحديث: «يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه» يعني العالم بعلمه والجاهل بجهله. فهذا أصل عرفناه في الناس كذلك لا يتغير إلاّ في النادر. وقالوا النادر لا حكم له أي في القياس فعليك ثم عليك بأفعال الخير جملة. قال تعالى: ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾. قالوا ومن ذكره كل عمل برٍّ وقربة لله تعالى قولاً وفعلاً وتمني أفعال الخير بالعزيمة الصادقة كفعلها في الأمر، وكذا تمني ضدها كما دل عليه الحديث الصحيح. قيل لبعض العارفين بالله تعالى: إنا لنذكر الله بألسنتنا ولا نجد لقلوبنا حضوراً. فقال: اذكروا الله واشكروه على

ذلك. إذ زين جارحة من جوارحكم بذكره. أما ترون تسليطه على ألسنة الغافلين بما لا يرضي قال بعض العلماء المحققين: اعمل لله كيف ما كنت ولا تنظر إلى آفات العمل فإنه داع إلى الفتور والكسل، وذلك من كيد الشيطان اللعين. قال ابن عطاء في مفتاح الفلاح عن بعض العلماء: إنَّ في آخر الزمان يكون الإخلاص موجوداً لجميع الناس في كلمة التوحيد، فينبغي الإكثار منها وهي لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ﷺ، ويجب على كل مسلم معرفة معنى كلمتي الشهادتين المعروفتين، وذكر بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأؤلئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾. وهذا بعد أن ذكر قبله أصنافاً من المناهي والمحظورات. وقد اختار جماعة من أهل التفسير أن العبد إذا تاب من سيئاته أن الله يبدل كل سيئة حسنة تكرماً منه، وفضلا لخبر صحيح ورد بذلك رواه أهل التفسير كالإمام البغوي والواحدي وغيرهما. وقد ذكر بعض العلماء في تأويل الآية في تبديل السيئة حسنة بالتوبة تأويل غير ما ذكرناه؛ لكنّ ما ذكرناه أشبه وأدخل في القواعد، ومن أعظم فوائد أعمال البرِّ والطاعة أنها تثمر الأنس بالله لصاحبها، وتعود بركة أعمال الطاعة وأفعال الخير والمرؤة على صاحبها عند موته في أحوج ما يكون إليه عند انتزاع روحه فيثبته الله في هذا الموطن بتأييده، ويجازيه عليها حينئذٍ بحسن الظن به، وغلبة الرجاء لله والأنس به فيقبض الله روحه ويدرجها على ذلك؛ فيحب لقاء الله ومن أحبّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءَه. وهذا هو المطلوب لعباده الصالحين.

فائدة ١٧

في حكم أعمال القلب واعتقاده

اعلم أن الله إنما تعبّد كل عبد بما يعتقده لا بما هو في نفس الأمر، فإنما الأعمال بالنيات. وأيضاً من ذلك النمط اجتهاد العلماء وأخذهم الأحكام من الكتاب والسنة. فاختلافهم رحمة. إذا المجتهد والمتأهل المصيب له أجران، والمجتهد المخطيء له أجر واحد لأجل قصده واعتقاده الحق معه ومن ذلك أيضاً: إن الطاعة بفساد النية تصير معصية كالمرائي بها وكذا الفعل المباح يصير قربة بنية القربة ويصير أيضاً معصية بالقصد الفاسد. فافهم ذلك وقِسْ على ما هنالك. فقد قال العلماء؛ لو وجد الزوج امرأة أجنبية مضطجعة على فراشه الذي يعتاده للخلوة بزوجته فتمتع بها ووطئها على اعتقاده أنها زوجته لم يأثم بفعله؛ لأجل اعتقاده. وأيضاً لو وجد امرأة في خلوة فاعتقد أنها أجنبية وعزم على الزنا بها فوطئها أثم بذلك وإن كانت هي زوجته؛ لأجل اعتقاده. فقس على هذا. فحسنات القلوب أجلُّ قدراً وأجزل أجراً من غيرها، وكذا ذنوب القلوب أثقل وزراً، وأعمل ضرراً من غيرها قاله أهل التحقيق فتفطن لذلك، ويشير إلى ما ذكرناه قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمر ما نوىٰ» وكذا قوله ﷺ يقول الله تعالى: «انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما أشاء، فإن ظن خيراً فله، وإن ظن شراً فله» فأحسن الظن بجميع المسلمين تسلم، بل تغنم. ففي الحديث: «إنّ الله أخفى أربعاً في أربعٍ: أخفى رضاه في طاعته فلا تتهاون بشيء منها فلعل فيه رضاه. وأخفى غضبه في معصيته فلا تحقرن منها شيئاً فلعل فيها سخطه. وأخفى سرّه في خلقه فلا تحقرن منهم أحداً فلعل السرّ فيه واخفى الموت في وقته فاستعد له في كل وقت فلعله يأتي فيه». الحديث.

فائدة ١٧

في الحثّ على الإخلاص

اعلم أن أعمال الاخرة المقربة إلى الله تعالى لا تعتبر إلاّ بالنيّة، ولا تُقبل إلاّ بالنية الخالصة لله تعالى؛ لا يشرك العبد في عبادته شيئاً غيره. فقد جاء «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرءٍ ما نوى» الحديث وجاء أيضاً: يقول الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من أشرك معي غيري تركته لشريكي، ولا أقبل من العمل إلاّ ما خلص لي» الحديث. واعلم أن الإِخلاص أمر عزيز جداً، وهو سرٌّ الله عند من اصطفاه واختصه من عباده، يضاعف به الثواب في العمل اليسير، ويصلح الله باللحظة منه فساد العمر الكثير لكن ينبغي أن تعلم آفات الأعمال التي تحبط ثوابه، وتبطل إخلاصه من الرياء والسمعة والعجب والغفلة ونحو ذلك. فمنه ما هو أدق وأخفى من دبيب النمل على الصفا، وأكثر الافات إنما تعرض بسبب ظهور العمل للخلق وإطلاعهم عليه؛ فلذلك قال العلماء: من كنوز البر المصونة كتمان الأعمال؛ ولذلك فُضِّل عملُ السرِّ على عمل العلانية بأضعاف كثيرة كما ورد به الحديث. وقد جاء «صدقةُ السرِّ تطفيء غضب الربِّ» الحديث وأشباه هذا. فإذا فهمت ذلك فاجتهد في إخلاص عملك وكتمانه والتبرؤ من الحول والقوة ومن نسبته لنفسك. بوجه من الوجوه أصلاً لعلّ عملك يسلم ويخلص لك. قال الشيخ الكبير أبو العباس القرطبي في التذكرة. ومما يعينك على الإِخلاص أن تغلق بابك عليك، وتحافظ على عملك من إطلاع الناس عليه، ولا تُحدِّث به أحداً حتى نفسك؛ فاجتهد في ذلك. فقد ضاعت الأعمار، وحبطت الأعمال بقلة التحفظ من الافات والإِهمال. «اخلص عملك يكفك العمل القليل» الحديث، والنيات المعتبرة كثيرة

وأفضلها العبادة على نية امتثال الأمر لطاعة الله تعالى ابتغاء مرضاة الله. فهذه عبادة أهل العبودية السليمة من الحظوظ. فانصح لنفسك.

فَائِدَة

فِي رُتبَةِ حُضُورِ القَلْب

اعلم أن الدعاء مخُ العبادة كما جاء في الحديث؛ لأن الداعي شرطه الذلة والخضوع والاستكانة والحرمة لله والتعظيم ورفع الهمّة والحضور وإلاّ فهو كالمتلاعب، ولا يقبل الله الدعاء من قلب ساهٍ لاهٍ. فافهم الحديث وكذا مخ كل عبادة وروحها وحياتها ونورها إنما هو التعظيم لله والحرمة له، المقتضي لحضور القلب في كلها. وأيضاً قبولها والجزاء عليها، وكمالها وتضعيف ثوابها ورضاء الله عن صاحبها بسببها. كل هذا على قدر قوة التعظيم لله سبحانه فيها وفي جميع أجزائها، وقوة استغراق القلب في ذلك. فمن شاء فليقلل أو يكثر قال الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء: ركعتان من عارف بالله تعالى أفضل من عبادة العابد ولو عُمِّرَ ألف عام. وهذا التفضيل كله لأجل اجتماع ما ذكرناه وكماله في العارف بالله. والعبادة مع الغفلة والسهو قليلة الجدوىٰ، بل قد اتفق العلماء على أنه لا ثواب عليها وإلى الردّ والعقوبة أقرب كما ذكره العلماء. فلهذا كان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول للحجاج بعد فراغ الحج: يا أهل الشام شامكم، ويا أهل اليمن يمنكم. هذا خير لكم، ولا يحب مكثهم ومجاورتهم لبيت الله تعالى، ويقول أخشى على المجاور من طول مكثه سقوط تعظيم بيت الله تعالى وشعائره وحرمته عن قلبه، ولا يحب الله من عبده إلاّ التعظيم والخضوع والخشوع له. فافهم. ومثل ذلك عن أكابر العلماء والمشايخ رحمهم الله تعالى فعلى قدر قوة الإِيمان بالله وبحرماته وصحته يكون التعظيم والحرمة له، وعلى قدر ذلك يكون الخضوع والخشوع اه، وعلى قدر ذلك يكون الحضور معه، وعلى قدر ذلك يكون الهمّ عليه، وعلى قدر ذلك يكون القبول والجزاء عليه. فافهم وانصح لنفسك.

فائدة ١٧

في الحث على تصفية المطعم ونحوه

ومن آكد ما يعتني به ويهتم به لصحة العبادة تصفية المطعم والملبس ونحوه فاجتهد جداً في أن يكون ذلك من الحلال الطيب. فقد دلّ الحديث على أن كل جسم نبت من حرام فالنار أولى به. وقد صح أيضاً: إن دعاءه لا يقبل ولا يستجاب له؛ لأجل أن مطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام الحديث ويقاس على الدعاء سائر أعماله كلها كما قاله بعض العلماء المحققين. وقد جاء أيضاً: إن من لبس ثوباً بعشرة دراهم وفيه درهم من حرام لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه. قال بعض المشايخ العارفين بالله تعالى: من أكل طيباً جاء فعله وقوله طيباً، ومن أكل خبيثاً أي حراماً أو شبهة جاء فعله وقوله مثل ذلك. قال العلماء: أطب مطعمك يكفك العمل القليل. وقوله تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ أي يتقون الله وعقوبته ويحذرونه بامتثال أمره وطاعته واجتناب نهيه ومعصيته. وفي هذه دليل على ما قلناه ونحوه كما ذكره العالم المحقق القلعي في كتابه (التحفة) فاعمل بذلك ولا تهمله؛ فإنه أساس العبادة وأصلها وبه يحصل صفاها ونورها وثمرتها.

فائدة ١٧

في رتبة التوبة

اعلم تحقيقاً أن منة الله على عباده بقبول التوبة للمسيء منهم ما لم يغرغر. أعظم كل منّة وأكرم كل عطية وأعود كل منفعة فعليك ثم عليك بإكثار الاستغفار والرجوع إلى الغفار، ولزوم التوبة من كل ذنب صغير وكبير، والمبادرة بها والاعتناء بتصحيحها؛ فإن التوبه الصادقة تمحو كل حوبة، وتجلب لصاحبها القربة والمحبة. وإن تكرر منك الذنب فاتبعه التوبة ولا تقنط من المغفرة؛ فالقنوط من أكبر الذنوب. وفي الحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» وهنا مجال المسلم المخلص الموفق المصلح. وفي الحديث: «إن الله يحب كل مفتتن تواب» أي يكثر التوبة عند كل ذنب؛ وإن كثرت قال الله تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين﴾ فانظر فقد ذكر أن المحبة منه حاصلة للتواب وما أعظمها من كرامة. والتوبة من الذنب ندم صادق بالقلب على فعله، وعزم جازم على أن لا يعود إلى مثله، ومفارقة الذنب والخروج من تبعته إن تعلق به حق لادمي بالبراءة منه أو الاستحلال، وقضى ما لزمه مما فات من الحق الواجب لله كصلاة وزكاة. والمؤمن لا يكره البلايا والمصائب، بل يحبها فإنها مكفرات ومطهرات وأعظم التبعات تبعة الادمي لا خلاص منها إلاّ البراءة عنها والرضىٰ من جانب صاحبها، ويتسارع عفو الله إلى الذنب الذي بينه وبين عبده ليس لغيره تبعة، وتطهره البلايا والمصائب وتذهب بالحسنات. فعليك بالتوبة فالله الله في التوبة وأعمال البرّ وتكثير الحسنات والرضا عند المصائب. ثبتنا الله وإياك آمين.

فائدة

في رتبة العقل

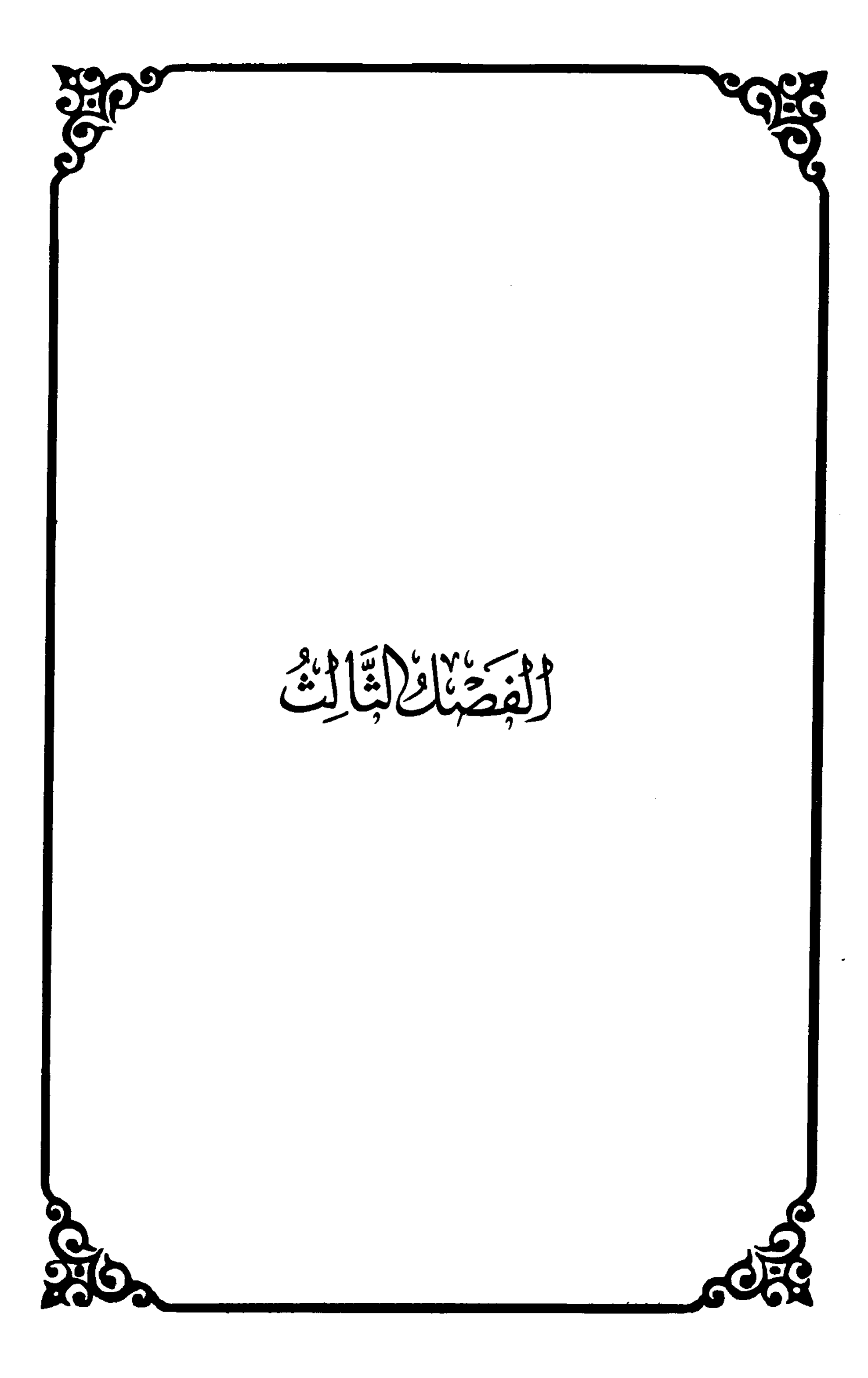
اعلم أن العقل به شرف الإنسان على الحيوان؛ ولأجله توجه عليه الخطاب والعقاب والتكليف، ولولاه ما وُحّد الله وعُرف وعُبد. وعلى قدر العقل ينال صاحبه شرف الدرجات. وفي الحديث: «يا عليّ إذا تقرب الناس إلى الله بأعمالهم فتقرّب إليه بعقلك». وقد ورد موقوفاً ومرفوعاً: «العجب من نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبن صوم الحمقى وسهرهم». والعقل أصله الغريزي وإنما يتسع مجاله ويرتفع مقاله بأعماله بالفكر والنظر الصحيح الصائب بالفهم الثاقب ودوام التجارب وهذا الحاصل يسمى العقل الكسبي والمسموع. وأيضاً العقل أطوار كثيرة يجمعها قولهم العقل معادي ومعاشي. فالمعادي هو الذي يبعث صاحبه ويحمله على الزهد في العاجل وقصر الأمل في هذه الحياة الفانية، وإيثار الآجل وقوة الإيمان والتصديق بما أخبر الله به ورسوله من الأمور الغيبية والأخروية، وارتكاب المشاق وهجران اللذائذ ابتغاء مرضاة الله تعالى وأنساً بالخلوة والفراغ مع الله فتتجلى لمرآة هذا العقل العجائب الملكوتية، ويخبر بالغرائب الغيبية. وقد تهجم عليه المعاني القدسية فتذهله عن النفسية والحسيّة والعقل المعاشي به يدرك الأمور الدنياوية، وما يتعلق بمصالح المعايش العاجلة من التدبيرات الدقيقة واستخراج الحكم المستغربة والصناعات البديعة؛ وبهذا النوع قامت مصالح الدنيا وانتظمت أمورها، وعرفت سياستها واتقنت صناعاتها. وقد يسمون هذا النوع الحذق في عرف الوقت. وصاحبه هو الحاذق بخلاف النوع الأول، فليس له اسم إلاّ العقل النوراني، ونوع الحذق هذا ليس بفضيلة ولا الاتساع فيه تكملة عند أبناء الاخرة بخلاف الأول. وقد يوجد الحذق في

الصناعات البديعة ومعرفة الحكم والطبائع الخفية في طائفة اليهود والنصارىٰ ومن ليس على الملة أكثر من أهل الملة الحنيفية؛ وسبب ذلك انصراف عنايتهم إلى الحياة العاجلة بالتمتع فيها والحفظ لها. وكان حظهم للآخرة والآجل ضعيفاً. وأهل الملة قوي ايمانهم بالغيب؛ فكان حظهم وافراً من السعادة الأخروية ففازوا بالخيرين، وحازوا الدارين.

فائدة

في رتبة العلوم والأحوال الذوقية

قال المشايخ والعلماء: مراتب الإيمان بالله وبحرماته وزياداتها كثيرة. وإلى النهاية أشار أبونا آدم عليه الصلاة والسلام بقوله في دعائه: أسألك إيماناً يباشر قلبي، ويقيناً صادقاً. وقول نبينا محمد ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً» وقوله ﷺ لمن أراد مواصلة الصيام وترك الشراب والطعام: «لا تواصلوا الصيام. وأما أنا فأواصل فإني لست كهيئتكم، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني». وفي ذلك كله إشارة إلى شراب القوم. وعلم الطائفة الصوفية فإنه أمر ذوقي يعرفه من ذاقه، ولا تبين للغير العبارة عنه شيئاً فعلومهم وكشفهم وأمرهم طوراً آخر وراء طور العقل النظري العادي الذي أجرى الله عادته بإيجاده لغالب الناس، وهو من عالم القدرة وهو طور النبوة وأهل الولاية فيجب الإيمان به؛ لأنه إيمان بالقدرة فإنكار هذه الأمور إنما هو إنكار للقدرة. فسلم تسلم وتغنم.



الفصل الثالث



فائدة ١٧

في مراتب المكاسب

اعلم أن التكسبَ في المعيشة على الطريقة المرضية، وبالصيانة طريقة السلف الصالح والصدر الأول من الصحابة ومن تبعهم من أهل السنّة، والورع لصيانة النفس والأهل والأولاد، وعلى قصد الإستعانة به على طاعة الله والتفرغ لعبادته، وآداء حقوقه المتعلقة به، طيبة به نفسه. وهذا السعي بهذه النية وعلى هذه الطريقة من القربات المرضية، والحسنات المكتوبة، والطاعات المثوبة. وقد ورد في ذلك أخبار وآثار وترغيبات كثيرة. وأمّا التجرد عن التكسب والتسبب لذلك على نية التفرغ للعبادة والإنقطاع عن الخلائق والعلائق بالتباعد عن ذلك كأهل الصفة من الصحابة وهم سبعون. وقيل أكثر من ذلك رضي الله عنهم. فهي أيضاً طريقة الخواصّ من السلف، ومن اقتفى آثارهم من الخلف؛ لكن لم يحملهم على ذلك إلاّ قوة اليقين، ورسوخ الإيمان بالله وصحة الزهادة، وجمع الهمِّ في إخلاص العبادة؛ فلذلك صفت لهم خلواتهم، وتزايدت لهم أنوارهم، وأثمرت لهم دعواتهم وأذكارهم؛ فانقطعت عن الخلق أطماعهم، ولم تأنس بهم طباعهم، وانزلوا على الله حاجاتهم، ورفعوا إلى الله شكاياتهم، وكتموا مصائبهم وكان نظرهم في أقسامهم وانتظارهم في أرزاقهم وقفاً على خالقهم، ورازقهم لا يشهدون نفعاً ولا ضراً من غيره، ولا فضلاً ولا خيراً إلاّ من برِّه وخيره.

وأمّا ترك التكسب على غير هذه الطريقة من صحة الزهادة، وقوة اليقين، وانقطاع الطمع عن الخلق على زعم التفرغ للعبادة والتخلي لها؛ فذلك شيء لا يصح، وعبادة لا تخلص، وخلوة لا تصفو، وهمٌّ لا يجمع، ودعوى غرور وتزوير وطمع عن الخلق لا ينقطع وقلب بهم متعلق، وإليهم ملتفت، فالتكسب

للكفاية والصيانة أولى من ذلك على الطريقة السليمة. والتكسب والتوكل يمكن الجمع بينهما إذ التكسب محلّه الجوارح، والتوكل محلّه القلب، وهما غير مختلفين. وقد أوضح كل ذلك علماء الطريقة في كتبهم وفي الحديث: «ليس لابن آدم حقٌّ إلاّ في ثلاث: بيت يكنه، وثوب يواري عورته، وقوت يسد خلته. فهذه الثلاث أصول المعيشة وحدود الضرورة. وقد اقتصر بعض الزهاد الأقوياء في البيت على ما وجد من البيوت الموقوفة لمصلحة المسلمين كالمساجد والرباطات ونحوها اقتداءً بأهل الصفة من الصحابة - رضي الله عنهم - وهذا حسن لمن صانه وكفاه ذلك. وتحصل الكفاية للمرء بما يسد خلته من الثلاث المذكورة من أدنىٰ ما وجد وسهل. وأمّا طلب الأحسن من ذلك والأرفه والأنعم فليس من الزهادة بشيء؛ فإن الإقتصار فيها والتقلل حسب الضرورة مطلوب جداً للزهادة عن الدنيا، والتباعد عن التمتع بها فإن حلالها حساب، وحرامها عذاب. كما جاء في الحديث وقد اختلف العلماء في اختيار المكاسب؛ فاختار بعضهم التكسب بالتجارة؛ لأنها المعمول بها عند أكثر الصحابة، وأختار آخرون الحراثة في الأرض لعموم نفعها للادمي والحيوان. واختار آخرون الحرفة وعمل المرء بيده كالتكسب بالوراقة وكتابة العلوم الشرعية، وكالخياطة وما أشبه ذلك مما هو لائق به، وقد ثبت في الحديث «خير الكسب عمل المرء بيده». وفي آخر «أطيب ما أكل الرجل من عمله بيده» كنبيّ الله داود عليه السلام وغيره. وقد اختار بعض المحققين من ذلك كله ما حصل له الكفاية مع الصيانة والبعد والإنفراد عن الناس؛ لفساد الناس وفساد معاشرتهم فكون سلامة الدين مع الخلطة لا تحصل أصلاً، قطعت المشاهدة والتجربة بذلك لا ينكر ذلك في هذا الزمان إلاّ أحمق غر، وينبغي للمكتسب أن تكون نيته بحرفته إعانة نفسه على دينه وإعانة المسلمين بها، وتحصيل رفقهم، فبذلك يكون في سعيه من المجاهدين والمتقربين إلى رب العالمين. كما جاء في الحديث. ومن أقوى قواعد الإيمان وأوثق عراه الحب في الله، والبغض في الله. كما صح في الحديث قال العلماء أهل السنّة في تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ وقالوا فكل من ظلم نفسه بمعصية الله فهو من الذين ظلموا، خصوصاً من

ارتكب الكبائر وتجاهر بالفواحش، فيجب بغضه في الله وهجره. فيحرم إيناسه بكل ما يؤنسه من مباسطته ومواكلته ومراسلته للإيناس ولو بالسلام، وكل ذلك منهي عنه لغير غرض شرعي، فينبغي تدقيق النظر في ذلك فربما يخطىء بعض الناس في مخالطته للظلمة بالإيناس زعماً منه أن له قصداً صالحاً وغرضاً شرعياً مباحاً في الدين، وقد غلط في ذلك أكثر من عاشر الولاة وخالط الأمراء فاستمر في خلطتهم والتردد إليهم بتلبيس النفس وتزيين الشيطان. بصّرنا الله بأحكام دينه وأعاننا على ذلك. آمين فالله الله انصح لنفسك وتباعد عن كل الظالمين، والحذر الحذر من التقرب والتردد إلى الأمراء والسلاطين، واحترز من تناول أدرارهم وأموالهم غاية الاحتراز، وصُنْ نفسك عنهم بكل حال، وتباعد عنهم وعن النظر إليهم وإلى مساكنهم؛ فذلك كله ظلمة للقلب، وخطية مكتوبة تكتب. كما ذكره الإمام الجليل سفيان الثوري - رحمه الله - وغيره. وفي الحديث: «المدارة رأس العقل» منها يزيد بذلك الرخصة لمن اضطر إلى لقاء الظلمة، ومن تخاف شرّه وأذيته فيتقي شرّه بما يكفيه من إظهار البشر له، ولين الكلام معه ايهاماً له بالتودد مع أنك في الباطن متوحش من قربه، معتقداً بغضه في الله بقلبك، متضرعاً إلى الله بكفاية شرّه؛ فإنك بالحقيقة غير مجالس له، ولا مؤانس فافهم. فيجب على الفاسق حب المطيع، ويجب على المطيع بغض الفاسق امتثالاً منهما لأمر الله ورسوله بذلك. فالزم وعليك ثم عليك بالعزلة عن الناس جملة إلاّ من يعينك على دينك، أو يكفيك من الدنيا همّك. فلا خير في الخلطة للناس في هذا الزمن خاصة أصلاً أصلاً، لا تخرج من الخلوة إلا لصلاة الجمعة أو جماعة مع لزوم الصمت والتغافل في الطريق إلى المسجد حتى ترجع. فانصح لنفسك ولا تغتر بكل بطال من ابناء جنسك فتندم حيث لا ينفعك الندم، وعليك ثم عليك بالزهد في الدنيا وأنواعها كلها. لا تأخذ منها إلا ما يعينك على دينك، ويفرغ قلبك لعبادة ربك. فالزهد أساس الدين وسلاح الصالحين؛ لدفع وساوس الشياطين، والبعد عن الظالمين. إذ الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية تتشعب بقدر هموم القلب في أودية الدنيا بأنواعها. ففي الحديث: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» ففي فحوىٰ هذا الحديث

أن بغض الدنيا رأس كل حسنة فافهم. قال بعض العارفين بالله تعالى: ورأس حب الدنيا حب النساء؛ فإن الله تعالى جعلهن رأس زينة الدنيا، فبدأ بذكرهن حيث قال تعالى: ﴿زين للنّاس حبُّ الشهوات من النسّاء والبنين﴾. الاية. فانصح لنفسك واقطع عنها علائق الدنيا وشواغلها كلها. والدنيا بأنواعها وزينتها وزهرتها شاغلة للقلب، ملهية عن ذكر الرَّبِّ البتة، قطعاً لا يدّعي القوة عليها والسلامة من آفاتها مع الخوض في غمراتها إلاّ مغرور مفتون، قد زين له الشيطان سوء عمله فرآه حسناً. فكم رجلٍ مدعٍ لذلك قد وقع وزلق في مهواة المهالك ـ والعياذ بالله ـ قال الله تعالى تحذيراً لنبيه ـ رأس الزاهدين وأوفرهم حظاً في أنوار اليقين والتمكين ـ: ﴿ولا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾. الآية. وفي الحديث: «الزهد في الدنيا يريح القلب والجسد». وقال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فَلنُحيينّه حياة طيبة﴾. قيل في التفسير هي القناعة بعدم الحرص، وبالزهد في الدنيا. وفي الحديث: «من زهد في الدنيا علّمه الله بلا تعلّم، وهداه بلا هداية». وفي هذا إشارة جليلة، وبشارة جميلة للزاهد فكم رجل أوتي زهداً فوهبه الله بسببه المواهب العالية الجليلة وأعطاه العطايا الغالية الجزيلة.

واعلم أنه ليس الزهد فراغ اليد عن الملك والجاه والمال، إنما الزهد فراغ القلب عن حب ذلك بأنواعه كله، لما ذكرنا عن جملة من الأنبياء والأولياء الأقوياء. فتفطن لذلك يا أخي وفقنا الله وإيّاك للتعرض لنفحات الله بإمتثال ما يرضاه وتقرب إليه بطاعته وليقوى طمعك ورجاك في كرامته، وأحسن ظنك به ففي الحديث القدسي يقول الله: «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء» فانصح لنفسك وأحسن الظن بجميع المسلمين ففيه السلامة، بل فيه الخير والغنيمة. والحذر الحذر من الوقوع في الغلط والنظر إلى مواقع الزلق والمعاطب المهلكة. والفرق لا تدّعي القوة والحزم فتتعاطى من ذلك أفعال الأقوياء أهل العزم من الأنبياء والأولياء، ومن له القوة والتمكين والرسوخ في المعرفة وأنوار اليقين. فقد آتى اللهُ الملكَ والنبوة سليمانَ ودوادَ ويوسفَ عليهم السلام وغيرهم، وقد جمع الله أصناف الأموال والجواري والغلمان والزوجات والسراري لمن شاء

من عباده الصالحين وأوليائه المتقين أهل القرب واليقين والتمكين، كما نقل عن خليله ونبيه إبراهيم عليه السلام، وكذا عن ذي القرنين ونحوهم، وكذا عن جماعة من أئمة الهُدىٰ وأجلاّء الصحابة كالإمام عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، ونحوهم. وعن كثير من التابعين - رضي الله عن الجميع - وكل هؤلاء من أفضل الأمة وأجلاّء الأئمة أهل التقوىٰ والحفظ والرعاية والرسوخ في العلم، فكانوا خلفاء الله فيما ملكت أيديهم، وكانوا خزانه الأمناء فيما آتاهم. أطاعوا الله في أخذه وحفظه، وأطاعوه في إنفاقه ووضعه في حقه، ولم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، والقيام بحقه في كل حال وأوان. فيجب التزام حرمتهم وتعظيمهم وتوقيرهم، وأن تعتقد كمالهم في جميع الأحوال، وتعتقد أنهم مع جمع الأموال في أعلىٰ مراتب الكمال من صحة الزهد في الدنيا، وفي جميع متاعها، واعتقاد تنزيههم عن حبِّ شيء من الدنيا وحظوظها بقلوبهم، وإن تلبسوا بشيء منها، ومارسوا أمورها، وجمعوا أشتاتها. فاعتقاد كمالهم وتنزيههم عن النقائص واجب على كل مؤمن، لازم لكل مسلم. فكيف يجوز لعاقل أن يظن بمن آتاه الله الملك، وجمع له أصناف الأموال ممن ذكرنا من الأنبياء والصحابة والأولياء أنه يحب الدنيا بقلبه، أو يحرص عليها؟ وحبُّها رأس كل خطيئة كما ورد في الحديث أو يقيس أحوالهم فيها، وأفعالهم على ما عرفه من حال نفسه وأحوال أهل الدنيا الراغبين فيها وفي جيفتها وأنتانها، وقد ثبت في الحديث تشبيهها بالجيفة القذرة وتسمية أربابها بالأنتان في حديث عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ إذ قال لها: «يا عائشة لا تجالسي الموتى الأنتان». قالت: قلت من هم يا رسول الله؟ قال: «هم الأغنياء». فقد نهىٰ الأئمة من السلف عن مجالسة الراغبين في الدنيا، فإنهم موتىٰ القلوب أهل غفلة عن الله تعالى، وايثار للدنيا على الآخرة؛ فتباعد عنهم إلاّ لضرورة. وقد آثروا مجالسة الفقراء والمساكين ورغبوا فيها للأخبار الواردة فيها، فانصح لنفسك واحذر أن تغشها وترخص لها في شيء مما نهوا عنه، فإنه السمُّ القاتل. وقد ينقل عن بعض المشايخ الكبار العارفين بالله وبأحكام دينه أنه يخالط الولاة والأمراء ويعاشر أهل الجهل والأغنياء، فيسلم ذلك لصاحبه

ولا يتشبه به في المزالق، فإن للرجال الأقوياء حالاً لا يصلح إلاّ لشكلهم، ولهم مجال دقيق لا يجري فيه إلاّ مثلهم، فلهم علم راسخ، وقدم ثابت، وعزم نافذ، وعناية وافية، وحفظ تام. فالعارف الكامل كائن مع الناس بجسمه وقلبه مع ربه، بائن بقلبه عنهم، ولله درّ من قال:

إنّي جعلتُك في الفؤادِ محدِّثي وأبحتُ جِسمي مَنْ أراد جلوسِي
فالجسمُ مِني للجليسِ مُؤانسٌ وحبيبُ قلبي في الفؤادِ أنيسِي

فتفطن لهذا. قال بعض العارفين بالله سبحانه من اقتدى بالمشايخ والرجال البالغين في حال نهاياتهم صار زنديقاً، ومن اقتدى بهم في حالِ بداياتهم صار صدّيقاً. فسلِّم تسلم وتغنمْ، خذ ما تعرف ودَعْ ما تنكر، فللمشايخ أسرار خفية وعلوم دقيقة، ومقاصد عالية قد تخفى ظواهرها، ويشتبه مأخذها فالموفق يأخذ بالمخارج والمعاذير، والمؤمن حذر فَطنٌ. والمنافق خب لئيم يبتغي الفتنة. ويتتبع العورات، ويشمت بالعثرات. قال تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغآء الفتنة والراسخون في العلم يقولون امنا به﴾. فما أشكل عليك من شأن أئمة الدين ومن قد ثبتت رتبته في العلم الواسع والورع الشائع، واشتبه عليك شيء من أحوالهم؛ ففوض أمره إلى الله تعالى، وردّ علمه إليه، واعترف بقصورك وقصور فهمك، واعتقد كمالهم، واحذر أن يتشبث بخاطرك ما يكدر صفاء اعتقادك فيهم أو ينقص عندك كمالهم وتعظيمهم. فقد ثبت النهي عن الخوض في أمور الصحابة وما جرى بينهم من المشاجرة وزجر العلماء عن النظر في التصانيف المشتملة على ذلك زجراً شديداً، نصحاً لكل مسلم إذ الكل مجتهد، والمجتهد معذور، بل مأجور. فالقاتل والمقتول في الجنة. ففي الحديث: «إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا». فعليك بحفظ الحرمة. عض عليها بالنواجذ، وتحقق أنهم وإن وقعت من أحد منهم هفوة أو ندرت زلة. فقد اتبعها بتوبة نصوح، وأوبة صادقة بشرائطها تمحو درن الحوبة، وترفع صاحبها إلى موطن القربة والمحبة. وهذه أيضاً صفة المؤمن الولي السعيد الذي له عناية وافية. فانصح لنفسك، عظِّم حرمات الله، عظم شعائر الله. قال تعالى: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها

من تقوى القلوب﴾ وأعظم شعائر الله أنبياء الله وملائكته الوارثون لهم، وخلفاؤهم ومن تبعهم. فهم أئمة الهدى وأصل الدين، فحقهم علينا أقدم وألزم من حق الوالدين، إذ هم آباء الدين لجميع المؤمنين. فقد ورد: ﴿أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم﴾ وأيضاً فهم حفاظ القرآن ونقلة السنة وحملة الشريعة، والكل عدول الرواية؛ لولاهم ما قام الإسلام، ولا استقامت الأحكام، ولا انقشع الظلام، ولا انكشف القتام، ولا استنارت الأعلام. جزاهم الله عن المسلمين أفضل ما جزى، وجعل الله سعيهم سعياً مشكوراً وثناءهم وذكرهم الجميل لا زال مذكوراً منشوراً، وضاعف لهم الحسنات، وحمل عنهم التبعات. جزاهم عنا خيراً. فبعد تحقيق معرفة ذلك كله من الذي يذكر لهم نقائص أو يتتبع لهم معائب، وبرهم فينا مشهوراً ومعروفهم ونصحهم لنا موجود، وعندنا مشكور. ما أرى ذلك المفتون إلاّ أمرأً. خبيثا عاقاً، وجافياً غليظاً مشاقاً. فانصح لنفسك وفقنا الله وإيّاك لما يرضيه آمين. وقد ورد: «من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله». وبهذا يتبين فضل علماء السلف على الخلف، إذ الخلف في صحائف السلف، ومن حسناتهم وقال بعض العلماء - رحمهم الله - مثل المشايخ الكبار أهل النهايات والأحوال القوية في خلطتهم ومعاشرتهم مع الخلق على اختلاف أصنافهم، قال مثلهم في ذلك وفيما يلحقهم فيها من الأكدار، ويعلق بهم من الأقتار؛ لتغاير الطباع وتباين الأنواع، كمثل طائر النسر القوي، نزل من الجو فوقع على الأرض، يريد بعض أغراضه فالتقط منها ما يشاء، وتمرغ في ترابها وعرّى جسده من قتارها وأقذارها حتى بلغ منها مراده، وقضىٰ منها وطره، وليست هي وطنه ولا مقره، ثم صفق بجناحيه، وطار عن جميع ذلك ذاهباً إلى حيث أتى؛ فانتفض عن جسده جميع الغبار والقتار، وانتفض عن ريشه ما علق به من تلك الأقذار. فهبوب الرياح ينظفه منها، وأنوار الشمس والقمر تُطيِّب ريحه. فهذا مثال حال المنتهى في مخالطته ومواقعته لأمور مشتبه أمرها؛ فلا يقتدى به في ذلك الضعيف، ولا يغترّ به إلاّ غبيٌّ سخيفُ. فافهم وانصح لنفسك. وسُئل الشيخ الشهير أبو العباس أحمد الصياد - رحمه الله تعالى ونفع به - عن اختلاط العارف مع قلة فقده لمعروفه، فقال

العارف: محفوظ الأنفاس محروس الحواس ملقى بين الناس، وهو عين الله فيهم لا يتغير أبداً. وقال الشيخ الكبير عبد الله العيدروس ـ رحمه الله ونفع به ـ نحن لنا أحوال قد نتعاطىٰ أموراً لا تصلح لغيرنا، ولنا فيها نيات صالحة، وعندنا فيها علوم دقيقة. وقد يخفى أمرها فلا ينبغي لأحد أن يقتدي بنا فيما خفي أمره، واشتبه عليه ظاهره. فانصح لنفسك؛ فللأولياء الصادقين انغمار بأنوار اليقين، وانغماس في بحار القرب والتمكين. قال واحد منهم: لو احتجب الله علي طرفة عين لطفئت مرة واحدة. وفي رواية: لما أعددت نفسي من المسلمين. وقال علي بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» يعنى بالموت وبالبعث؛ فتأمل هذه المرتبة الجليلة لأمثال هؤلاء. فمن حاله بهذه المثابة، ورتبته بهذه المنزلة، كيف يظن أنها تطرقه الغفلة، وإن وقعت منه هفوة أو زلة. فقد رُوي أنها وقعت هفوة من بعض النساء الصحابيات ـ رضي الله عنهن ـ فأُتي بها وأقيم عليها الحد، وذهب عنها درن الحوبة بصدق التوبة. فقال رسول الله ﷺ: «لقد تابت توبة لو قسم نور توبتها على أهل الأرض لوسعهم». فأهل اليقين والكمال لا يقاس بهم الضعفاء الغافلين في جميع الأحوال. قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنتم أكثر صياماً واجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا خيراً منكم؛ لأنهم كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الاخرة، يخاطب بهذا بعض التابعين ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ فجميع الملائكة والأنبياء معصومون عن وقوع الزلة والهفوة مطلقاً بكل حال، وما نقل عن أحد منهم من صدور الزلة والوقوع في صورة الخطيئة فيحمل كل ذلك على محمل حسن يليق بمنصبهم ومحلهم. والعارف بأسرار الدين يسهل عليه معرفة المخارج الصالحة والمحامل اللائقة، وخبيث القلب يصعب عليه ذلك؛ فيبقى في ريبة الجهل وظلمة الغفلة والحيرة، واحتذر كل الحذر عن التنقيص لأمثال هؤلاء، فتخشى من ذلك خسف القلب، ومسخ الدين، وسلب الإيمان. فتأكيد العقيدة لأهلها، وحفظ الحرمة لها أصل كل خير ونفاعة وشفاعة. اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. وأيضاً فالأولياء كلهم محفوظون بحفظ الله، ملحوظون بعين الله، معصومون

عن الهفوة. وفي الحديث: «أهل العناية لا تضرهم الجناية؛ لصدق التوبة والرجعة». وأيضاً فقد يصدر من القول والفعل ما يخالف ظاهر الشرع عندك ممن قد اشتهر بالعلم والتقوى من المشايخ والعلماء الأجلاّء، فينبغي أن يلتمس له المخارج والمعاذير حسب الإمكان؛ فإن أشكل عليك أمره ففوّض علمه إلى الله تعالى، وارجع باللوم على نفسك، والقصور على علمك، ولا تجوز المسارعة إلى تنقيصه. فمثل هؤلاء السادة القادة لا يفعل شيئاً إلاّ موافقاً للشريعة، وإن خفي ذلك على قاصر النظر، ضيق الحوصلة. فالشريعة واسعة الأكناف لا يحيط بها العقل، ولا يحصرها النقل. والمجتهد فيها معذور بل مأجور، وكم أنت يا مسكين وما حدّ عقلك القاصر، وما القدر الذي نقلته وعرفته من الشريعة واحطت به؟ فاعرف قدرك، ولا تتعدَّ طورك وسلِّم تَسلمْ وتظفر بالخير وتغنمْ.

فائدة ١٧

في رتبة المشيخة

اعلم أن منصب القدوة والمشيخة في طريق الصوفية منصب جليل، يعنون به الرجل الكامل في أخلاقه وأعماله الجامع بين علم الشريعة والحقيقة. فهو متأهل لمنصب الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة كاملة، يهدي من اتبعه إلى صراط مستقيم، صراط الله الآية. فهو القائم بالنيابة والخلافة عن النبوة، والملازم للمتابعة لهم. فمن دخل في طريقه، وارتسم برسومه، وتحكم له بالتزامه؛ تتعين عليه موافقته في كل أموره، وأن لا يخالفه في شيءٍ من اشاراته. فهو أستاذه وإمامه، وقدوته وشيخه. وقد قال المشايخ ـ رحمهم الله ـ من اعترض على شيخه ولو بخاطره لا يجيء منه شيء. ويدخل في طريق الشيخ بالتحكم له، وتحكيمه على نفسه بقبول حكمه، والتزام طاعته، وسنة التحكيم ثابتة في الشرع كما ذكره السهروردي في عوارفه. وقد ثبت الأمر للرفقه في الطريق بأن يقدموا أميراً عليهم، يمتثلون أمره. وقد عرف أن القربة النافلة تصير فريضة لازمة بالتزامه. وأيضاً من المشهور عند الفقهاء: من الأحكام الفقهية الشرعية أن الخصمين إذا حكّما المفتي عليهما لزم حكمه في واقعتهما، ولم تجز المنازعة بينهما بعد ذلك. وكذا لو أرادت المرأة التزويج في مكان لا ولي لها به ولا والٍ قالوا إذا حكّمت رجلاً وجعلته وليّاً لها ثبت ذلك ونفذ عقد نكاحه، ولزمها أحكام الزوجية حينئذ فافهم ذلك. والتحكيم في الطريق من ذلك النمط. وقال العلماء: أهل كل فن يسلم لهم في فنهم وفي معرفة ما اصطلحوا عليه من الألفاظ المختصة بهم، إذ هم أعرف به وبحقائقه ودقائقه لطول عنايتهم به وبحثهم عن أحكامه. كان الإمام الجليل أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ يتكلم مع أصحابه في العلوم فربما عرضت مسألة

تتعلق بطريق الصوفية فيرجع فيها إلى من حضر في المجلس من مشايخ الصوفية، وأئمتهم كالإمام الجليل أبي حمزة وغيره ذكره في مناقب الأبرار، وقال المشايخ: إن المريد إذا قال لأستاذه لا. لا يفلح؛ فلهذا كان جماعة من مشايخ التربية يعاملون أصحابهم بالرفق واللطف. فكانوا إذا أرادوا أمراً منهم لا يأتون بصيغة الجزم والأمر، بل يرشدون إليه بالتعريض والتلويح، مثل صيغة لو فعلتم كذا، وهذا الأمر نافع لكم وفيه غرضكم، أو نحو هذا؛ شفقة عليهم خشية الوقوع في المخالفة فيحصل المحذور أو يؤدي إلى الفتور والكسل؛ فيحصل الانقطاع والملل امتثالاً منهم لقول رسول الله ﷺ: «رحم الله والداً أعان ولده على برّه». وقد نقل هذا عن جماعة من مشايخ اليمن كالشيخ الكبير علي الأهدل، والشيخ الجليل أبي العباس الصياد وغيرهم - رحمهم الله - قال الشيخ محمد بن عراق - رحمه الله - ويجب على الشيخ المرشد أن لا يأمر المريدين بأمر إلاّ أن يعلم أن نفوسهم تعينهم على فعله. فقد كان الرسول يحب التخفيف عن أمته، ويكره كثرة التكليف كما دلت عليه أقواله وأحواله ﷺ، وأيضاً يجب على المريد أن يرى أن شيخه أفضل أهل زمانه كافة، وأكملهم في جميع الأوصاف المحمودة علماً ومعرفة وحالاً وورعاً وخلقاً وغير ذلك؛ ليكمل له الانتفاع والأخذ عنه. قال رسول الله ﷺ: «الاباء ثلاثة: أب ولدك، وأب علّمك، وأب زوّجك». ذكره بنحو هذا اللفظ الإمام أبو الليث. قال بعض الحكماء: الوالد سببٌ لحياتي هذه الفانية، والمعلم لديني سبب حياتي الباقية، وهي السعادة الأبدية فحقه عليَّ أهم وأعظم. قال أبو حنيفة - رحمه الله - ما صليت صلاة منذ مات أستاذي حماد - رحمه الله - إلاّ استغفرت له مع والديّ، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه أو علمته علماً. وقال صاحبه أبو يوسف - رحمه الله - إني لأدعو لأستاذي أبي حنيفة - رحمه الله تعالى - قبل أبويّ، ويا أخي تفهم حكم ارتباط المريد بشيخه من أحكام القدوة في الصلاة في ارتباط المأموم بالإمام، وتفهم أكثر أسراره من نحو ذلك. ومشايخ التربية مختلفون فيها، والأصل في هذا الباب الصحبة وأحكامها. فبعضهم اختار لمريده معه الصحبة له، واقتصر عليها. وهي سيرة الصدر الأول. وزادها بعضهم تأكيداً لها بالبيعة وعقد التحكيم. وزاد بعضهم بإلباس الخرقة وغير

ذلك؛ ولهذا كله أصل من السنة ثابت يعرفه من بحث عنها. وطريقة الصوفية أصولها وفروعها مبنية على السنة والمتابعة، وأسرارهم ومعارفهم وكشفهم وأنوارهم إنما أمطرت من سحائب الوحي النبوية المحمدية، والحقيقة والشريعة والطريقة متفقة ليست مفترقة؛ فمن فرّق بينهما فقد ضلّ عن سواء السبيل. إذ الشريعة كالجسد، والطريقة كالرأس، والحقيقة كالروح أو نحو هذا. هكذا قاله العلماء. قال مالك - رحمه الله -: من تصوّف ولم يتفقه تزندق، ومن تفقه ولم يتصوّف تفسق، ومن جمع بينهما تحقق. نقله الإمام زروق في قواعده، ويفضلون تهذيب المريد بتربية الأستاذ على تهذيب نفسه بالاجتهاد والرياضة بالإنفراد. وقالوا شجر الأدوية النابتة بأنفسها من غير مستنبت ومتعهد ضعيفة لا تبقى، وإن بقيت فلا تثمر، وإن أثمرت فلا طعم لثمرها. والشجرة المستنبتة بضد ذلك كله ولله درّ من قال:

إذا المرءُ ربَّى نفسَهُ بمرادِهِ ... لقد شادَ بُنياناً على غير أسّه

ومَنْ لم تربيه الرجالُ وتسقهِ ... لِباناً لهم قد دُرَّ من ثدي قدسِه

فذاك لقيطُ مالِه نسبة الولي ... ولن يتعدىٰ طور أبناء جنسِه

لكنْ لله ألطاف خفية، وأسباب سماوية يربي بها من يشاء من عباده برسائل غيبه. فكم من رجل لم يعرف له أستاذاً مربياً قد أدركته عناية الله ونفذ أمره، وظهرت بركته وسره. والله يختص برحمته من يشاء. فالصادق في متابعة الشريعة وأحكام الكتاب والسنّة المودعة في مصنفات الأئمة المجتهدين والعلماء الورعين يحصل له من الثمرة ما حصل لأهل الطريق الواصلين. وقد ورد: «من عمل بما علم مخلصاً ورَّثه الله علم ما لم يعلم». وقال تعالى: ﴿واتقوا اللّه ويعلمكم اللّه﴾ الآية. وكفى بهذا نصحاً وتعليماً. فقد ذكر الشيخ اليافعي في (نشر الريحان) أن بعض الصادقين دعاه جماعة من مشايخ التربية، كل واحد إلى الدخول في طريقه والوقوف تحت نظره؛ فامتنع على كلهم وقال أنا لا أدخل في الخطر واللزوم بقائي هكذا أسلم لي ولحالي إلاّ أن يقهرني أحد بحاله، ويغلبني ويجذبني إليه قهراً، فأرجو إن كان هذا حاصلاً أن الله قد أرادني إليه. فعن قريب أكون إليه وأصل، وعلى حضرة قدسه نازل. وقال المشايخ - رحمهم الله - يتعين على كل مريد أن يربط قلبه بشيخه في حياته وموته، ويجعله قبلة قلبه متوجهاً به

إلى ربه على الدوام، يعتقد أنه باب الرحمة الذي تأتيه منه الإمداد، وينفذ منه إلى مراتب الازدياد، ويرى أنه بشر مخصوص مقبول لا كالبشر في طبائعهم الكثيفة يلزم قلبه ذكره والحضور معه في كل وقت، ويجعل صورة الشيخ موجودة متصورة في ذهنه وخياله وروحانيته، حاضرة معه في كل حين، لا يخفى عليه أمره ولا يحجبها بعد المسافة، ولا يحول عليها حائل، يلزم ذلك الذكر بقلبه ويستحضر ذلك الاستشعار دائماً كل وقت وبكل مكان في سفره ومقامه وفراغه وشغله، متيقناً أن روحانية شيخه حاضرة معه أينما كان، وحيث كان فالمحجوب عن معرفته ورويته لذلك من حجب لقلة أدبه، وتراكم ران قلبه قال تعالى: ﴿كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. فالمطلوب حاضر معك حقيقة لا يحجبه عنك حاجب، إنما المحجوب أنت لقلة أدبك وغطاء ظلمة أثر كسبك على قلبك. فافهم. إنما عليك تزكية نفسك وتصقيل مرآة قلبك، فحينئذ تجد مطلوبك حاضراً معك ﴿وقد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾ وقد كان تلميذاً للشيخ أبي يزيد ـ رحمه الله ـ إذا تيسرت أموره وقضيت حوائجه قال: هذا ببركة أستاذي أبي يزيد؛ وإن تعسّرت أموره وتصعّبت مطالبه قال: هذا بشؤمي وقلة أدبي على أستاذي، من نفسى أتيت وأداب المريد مبسوطة في كتبهم، وما أعظم فوائد الأستاذ للمريد في صحبته منها ظاهرة جلية، ومنها باطنة خفية. والأستاذ من جنود الله الذي يربي بهم المريدين ويعينهم بعنايتهم ورعايتهم بهمتهم حضوراً ومغيباً على مراتب الدين. قال الشيخ الكبير إسماعيل الجبرتي ـ رحمه الله ـ يوماً يخاطب أصحابه: كنت أطلع على أصحابي ولا أقدر على حفظهم، وأنا اليوم أقدر على الإطلاع عليهم والحفظ لهم عن المعاصي؛ وهنا مجال أهل الهمّة والحال في التربية للتلامذة والحفظ لهم عن النقائص فهم قائمون بالإعانة لهم على البر والتقوى وما فيه المصلحة على حسب نظرهم، وما فتح الله به لهم من العلم اللّدني الموافق للشريعة وإن خفي على المريد لقصور نظره ونزول رتبته والله ولي التوفيق.

فائدة

في أركان الرياضة

عند هذه الطائفة وهي الخلوة والصمت والجوع والسهر، وكل هذه محمودة قد جاء في السنة الندب إليها، والترغيب فيها، وحث عليها السلف الصالح وتمسك بها كل مؤمن لنفسه ناصح، وفيها من الفوائد القلبية والقالبية الجلية والخفية ما لا يُحصىٰ خصوصاً في هذا الزمان الذي عمّ فسادُه، وعُدم في اهله رشادُه. وفي الحديث: «من أثقل ما يوضع في الميزان الصمت». وقال الحكيم: إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وفي الحديث: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم». وفي هذا كفاية للمؤمن. وكان المعلم محمد المهدمي ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يقول: جزىٰ الله خيراً من أفادنا في الدين علماً أو قوّى لنا في الآخرة عزماً، أو كفانا من الدنيا همًّا. ولله درّ الأمام الفضيل حيث قال:

كُنْ مِنَ النَّاسِ جَانباً ... وارضَ باللهِ صاحباً
قلّب الناس كيف شئت ... ستجدهم عقاربا

ولله درّ الإمام أحمد بن موسى بن عجيل حيث قال:

عِشْ خاملَ الذّكرِ بين الناسِ وارض به ... فذاك أسلمُ للدنيا وللدينِ
مَنْ عاشرَ الناسِ لم تسلمْ دِيانتُه ... ولَمْ يَزلْ بين تحريكٍ وتسكينِ

وقال آخر:

جِماعُ الخيرِ في سهرٍ وصمتٍ ... وأخماصُ البطونِ مع اعتزالِ

وفي الجوع خاصة فوائد جليلة عظيمة. وهو أعظم أركان الرياضة كالرأس لها تتيسر بتيسيره، وتتعسر بتعسيره. والله المعين عل كل الأمور. وفي الحديث «إنّ الله يبغض كل نؤوم أكول، جيفة بالليل حمار بالنهار، فهذا شبيه بالأنعام معدود من الأراذل الطُغام». وقد ورد في قيام الليل ويقظته أخبار وآثار كثيرة حتى قيل: إن أكثر ما تكون نفحات الله تعالى فيه على عباده وأكثر تنزل الرحمة والأسرار تكون على أهل اليقظة في الليل، المتعرضين لها والناس نائمون، وسر الخلوة ومقصود الرياضة اشتغال المرء فيها بذكر الله وطاعته، وبمجانبة الكسل والملل وأخذ النفس فيها بالرفق والتدريج والتوسط بين الطرفين بلا إفراط يؤدي إلى الملل، أو تفريط يفضي إلى الخلل. فخير الأمور أوسطها كما في الحديث: «والرفق خير كله ما دخل في شيء إلاّ زانه، ولا خرج عنه إلاّ شانه» الحديث وعليك بملازمة ذكر الله بلسانك، والحضور بقلبك. صابر على ذلك وإن فترت فعاود الرجعة؛ فإنك متى دمت على ذلك وعوّدت لسانك وقلبك وجسمك ما هنالك، ذلت لك صِعابه وسهلت، لك عقابه، واسترحت عن ثقل المكابدة وملل المجاهدة، وتيسرت لك موارد البر ومقاصد الطاعة والذكر، فأعطيت ذوقها وحلاوتها، وألهمت سر الإخلاص، وأكرمت بنور الاختصاص. قال الشيخ الكبير أبو عبد الله القرشي - رحمه الله تعالى - من عمل ليجد أو ليرى لم يفتح عليه بشيء؛ حتى يكون قصده تحقيق العبودية والقيام بحق الربوبية. وقال ﷺ: «لو أن رجلاً يجر على وجهه من يوم وُلِدَ إلى يوم يموت في مرضات الله لحقره يوم القيٰمة». رواه أحمد في مسنده فحقق، يا أخي إنك لم توفِ من حق الله عليك مثقال ذرة؛ ولو بلغت الغايه في الجهد والعبادة فتأمل ذلك. قال الشيخ الكبير بن خفيف - رحمه الله - حظ الروح ثلاثه: الطيب والسماع والنظر، وحظّ النفس ثلاثة: الأكل والشرب والنوم. وفي الحديث: «ألا إن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهي القلب». الحديث وكفىٰ بهذا النص حجة على المدّعين، وتفرقة بين إمارة الملبسين وإمارة المخلصين. فالقلب كالسلطان، والجسد والأعضاء كالرعية، وهي سامعة مطيعة للقلب متى اتبعت الأمر انبعثت الأعضاء

تابعة له؛ فإن استقام استقامت، وإن انحرف انحرفت. قال المشايخ والعلماء - رحمهم الله - إذا عرفت هذا فمقصود الرياضة للنفس تقليل جماحها، وتذليل صعابها حتى تنقاد لطاعة الله، وامتثال أمره ونهيه الصادرين في كتابه وسنة رسوله ﷺ. والنفس لها ثلاث درجات مختلفات: الأولى النفس الأمارة بالسوء الداعية للمكروه، فهي عدوة المؤمن وهو مأمور بمخالفتها ومجاهدتها. والثانية النفس اللّوامة تأمر بالسوء تارة وتلوم أخرى، وهي أقرب إلى صداقته. والثالثة هي النفس المطمئنة المباركة صديقة المؤمن. قد اطمأنت بذكر الله، وذهبت بكلها إليه. وهي التي يناديها بقوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾. وهذه نفوس النبيين والصّديقين ومن قرب من درجتهم. وفي الحديث: «لكل إمرى من ابن آدم قرين من الجن - وفي رواية «شيطان» - وأما أنا فقد أعانني الله على شيطاني فأسلم». وفي هذا إشارة موافقة لقوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ قد تولى الله أمرهم وكفاهم شرهم. فالله يرزقنا محبتهم، ويشملنا بنفاعتهم وشفاعتهم في الدنيا والآخرة آمين. قال الإمام أستاذ الطائفة الصوفية السنية الجنيد - رحمه الله ونفع به - الطرق كلها مسدودة إلاّ على من اقتفى سنة الرسول ﷺ. وقال الشيخ السري السقطي - رحمه الله ونفع به -: من أحب الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح في لاش. فافهم فديت من يفهم. والحماقة نقص في غريزة العقل وفطرته أعجز الأطباء علاجه فعليك بالذكر لله في كل حال، والشفقة على خلق الله بالقلب والفعل والمقال. واخلص عملك كله لله تحظى بكريم المنال، وتوقى وتكفى المكروه في جميع الخصال فانظر لدينك وانصح لنفسك وكُنْ قوياً في دينك، لا تأخذك في الله لومة لائم. فقد صار الدين غريباً كما بدأ، والمتمسك به غريب، والمساعد عليه غريب فاغنم من الإخوان من كان لك على دينك من الأعوان فإنما هو غنيمة فاظفرها وهدية من الله فاقبلها. فأنت في زمان الفتنة وبين أشراط الساعة. فحصّن نفسك بالتمسك بالدين، وصابر عليه حتى يأتيك اليقين؛ فيتضاعف لك فيه الأجر، ويحصل لك من الله الشكر. فقد ورد في الأثر: «الزيادة في الخمول

وكل النفوس تأباه، والنقصان في الشهرة وكل النفوس تهواه». فكن في جميع أمورك ذا بصيرة وتمييز، ابحث عن الحق وأهله وخذه من موضعه وأصله، يتضح لك الحق الصريح في قوله وفعله. فالشرع هو الميزان الحق لمعرفة الرتب والمقادير من الناس، فلا تعدل عنه إلى غيره، واحذر رجال التلبيس الناطقين بالتهويس، فلا تحسب كل بيضاء شحمة، ولا تلحق النسناس بالناس، تكلم الشيخ الكبير سهل التستري - رحمه الله - في مسألة فقيل له: إن الناس يخالفونك في المسألة. فقال: يا هذا سبحان الله أين الناس وقد ذهب الناس وبقينا في النسناس. ولله درّ الأستاذ الجنيدر - رحمه الله - حيث قال: في عصره أهل التصوّف قد مضوا، صار التصوف مخرفة. وقال الشيخ أبو بكر الواسطي - رحمه الله - ابتلينا بزمانٍ ليس فيه أداب الإسلام، ولا اخلاق الجاهلية، ولا أحلام ذوي المروءة. وقال الشيخ المرتعش - رحمه الله - ذهبت حقائق الأشياء، وبقيت أسماؤها. فالأسماء موجودة، والحقائق مفقودة، والدعاوي في السرائر مكنونة، والألسنة بها فصيحة، والأمور عن حقوقها مصروفة، وعن قريب نفقد هذه الألسنة وهذه الدعاوي، فلا يوجد لسان ناطق ولا مدعٍ صادق. وفي هذا إشارة إلى أن معرفة علومهم بمجردها نعمة مطلوبة قال الشيخ أحمد الرفاعي - رحمه الله - تعلموا هذا العلم تعلماً، فإن جذبات الحق قد قلت في هذا الزمان - يعني به علم الصوفية - وقد قال مثل ذلك الشيخ إسماعيل الجبرتي - رحمه الله - وحث على مطالعة كتب القوم وتفهم علومهم وكذا الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رحمه الله - حث عليها، وأمر بالتغلغل في علومها. وقد أدرك بمطالعة كتب القوم رجال نفذ أمرهم وظهر سرهم؛ فكانوا أئمة يُهتدى بهم. وفقنا الله آمين ونفع الله بسرهم آمين. فعليك بمطالعة كتب القوم وتفهم ما فيها من العلوم؛ فإنهم قد أخذوا نفوسهم بالرياضة القويمة على قانون الشريعة، فظفروا من الله بالأنوار والأسرار الرفيعة. قال الشيخ أبو القاسم النصر أباذي - رحمه الله - أصل التصوّف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهوى والبدع، وتعظيم المشايخ ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات. وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد - رحمه الله ونفع

به - وقد قيل له: هل قال أحد بترك الأعمال من باب البر والتقوى؟ فقال: هذا قول قوم يقولون بإسقاط الأعمال، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً عندي ممن يقول بهذا؛ فإن العارفين أخذوا الأعمال عن الله ورجعوا إليه بها، فلو بقيت ألف عامٍ لم أترك من أعمال البر ذرة إلاّ أن يحال بيني وبينها. وتكاليف الشريعة لازمة لكل بالغ عاقل، لا يسقطها عن العبد شيء وإن بلغ في التوحيد الغاية والنهاية. وقال الشيخ أبو سليمان الداراني - رحمه الله - قد تنكت في قلبي النكتة من نكت القوم فتلبث فيه أياماً وأنا لا أقبلها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة. إذ كل حقيقة بلا شريعة باطلة، وكل شريعة بلا حقيقة عاطلة. فلا يفرق بينهما إلاّ من خُدع في دينه، وفُتن. كما قاله أهل التحقيق فتأمل كلام هؤلاء الأئمة وأمثالهم، وشدة تمسكهم بالكتاب والسنّة، وخذ منهم ما تعرف، ودع ما تنكر، وسلّم للقوم أحوالهم وعلومهم، واحذر الغلط والغش لنفسك أو القدوة بأحد من المدّعين الملبسين من أبناء جنسك، وعليك ثم عليك بمجاهدة نفسك ورياضتها. دُمْ على ذلك في جميع أحوالك، واتهمها في أقوالك وأفعالك، واحذر الرضا عنها في جميع المسالك. فالرضا عنها وقبول ما يصدر منها بالرضا من أعظم المهالك. هكذا قاله علماء الطريقة. فقد قالوا: من جاهد شاهد. وقالوا أيضاً: جد صدقاً تجد مرشداً. وقالوا أيضاً: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول. فاعرف يا أخي أصولهم، واسلك سبيلهم تبلغ مبلغهم، واحذر الرئاسة. فقد قال العلماء: من تصدر قبل أوانه فقد تعرض لهوانه، واحذر أيضاً من الفتور والكسل، أو الدعوى والخطل. فطريقتهم مستقيمة، ومن الأهواء والابتداع سليمة. مأخوذة أصولها من الكتاب والسنة، مبنية قواعدها على الأسوة والاتباع، سليمة عن الأهوى والإبتداع. هي طريق أهل السنة وأهل الحزم والعزم منهم. قال تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض إلا إلى الله تصير الأمور﴾. أساسها الصدق، ورأسها التمكين في رتب الإيمان، وأنوار اليقين. وهذه رتبه من أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين. وهم أهل الصراط المستقيم المأمور بسؤاله وطلبه جميع المسلمين، كما أشار إلى ذلك

بقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم﴾ إذ هم الأئمة الهادون المهتدون. وآية حبّ العبد لله متابعة الشريعة لقوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ وآية الصدق في المتابعة حبّ الله لعبده فهذا معيار أهل الطريق؛ فإن لم تجد يا أخي في سلوكك هذه الثمرة، ولم تبلغ هذا الرأس؛ فاعلم أنه من خلل في الأساس، وارجع على نفسك باللوم، واستعن بالله. فهو المعين والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فائدة

في مرتبة الفقراء

اعلم أن علماء السلف قد اختلفوا في تفضيل الغني التقي الشاكر والفقير التقي الصابر، فأكثر المحققين العلماء بأسرار الدين جزموا بتفضيل الفقير المذكور على الغني، ولهم على ذلك أدلة واضحة نقلية وعقلية، وأعمال البر من الفقير تفضل أعمال الغني بدرجات كثيرة، كما دل عليه الحديث الصريح قال الإمام الغزالي في كتاب الإحياء: قيل لسيد الطائفة الجنيد ـ رحمه الله ـ إن الشيخ ابن عطاء يقول بتفضيل الغني على الفقير، فأرسل إليه ونهاه عن مقالته، فلم ينته وذكر له دلائل فقال الجنيد: هذه فتنة على الإسلام، خالف طريقة أئمة السلف الأعلام. فدعا عليه دعوة أحاطت به، وكان يومئذ قاضياً فغضب عليه الوالي بعد غضباً. لا يدري سببه، فنهب ماله، وهدم داره، وقتل أولاده، وحبسه في السجن، فسلب عقله إحدى عشرة سنة، فلما أفاق بعد ذلك عرف الأمر من أين أتى، فرجع وتاب وقال: أدركتني دعوة الجنيد ـ رحمه الله ـ فاعلم ذلك. وقال الإمام أبو الليث ـ رحمه الله ـ إنما كان الاختلاف في التفضيل فيما مضىٰ. وأمّا اليوم فقد عمّ الحرام والشبهة، وغلب على الأموال؛ فلا معنى لاختلاف اليوم. بل يكون الفقر والقلة أفضل من الغنى والسعة بالإتفاق، فانظر لدينك وانصح لنفسك أرشدنا الله وإيّاك آمين. واعلم أن الفقر صفة فضيلة لأهل الفضل، وفعلة شريف لأهل الشرف، قد ثبت فضلها والثناء على أهلها. وقد افتخر بها أئمة السلف وسادة الخلف، وأمروا الفقير بصيانة نفسه واكرام فقره، وتشرفه به على أهل الغنى والسعة. فالفقر محمود لعينه وإن ذمّ بعض الفقراء فلعوارض غيره عرضت له، ذمها الشرع فيه والغنى مذموم لعينه وإن مدح بعض الأغنياء فلعوارض غيره

عرضت له مدحها الشرع فيه. وقال رسول الله ﷺ: «من تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه». وهذا في غني صالح، فما ظنك بالغني الفاسق؟ وقد رغّب الشرع في مجالسة الفقراء والمساكين وحذّر من مجالسة الأغنياء والمترفين نصحاً للمؤمنين. وقد عمّت البلوىٰ في حضرموت باحتقار فقرائهم وأهل القلة فيهم، وإكبار أغنيائهم وأهل الثروة منهم، وهذا من غلبة جهلهم بالدين وشعائر الصالحين، وعدم التمييز بين المحمود المرضي وبين المذموم المحتقر. وهذه آفة فيهم ضررها عظيم، وداءٌ عضال في أهل الجهة منتج لهم هلاك الدين وفساد الحال. والعقبى وأصل ذلك كله حب الدنيا وقوة كبرها في قلوبهم. وقد ثبت في الحديث تشبيهها بالجيفة القذرة، وبالخربة المستقذرة. وورد: «أن حبّها رأس كل خطيئة». وثبت النهي عن التواضع للأغنياء، والأمر بإكرام الفقراء ومجالستهم وحبهم ومؤانستهم؛ فتجب معرفة قدرهم وإعطاؤهم حقهم وإنزالهم منزلتهم. وقد ورد في الحديث الوعد بالعقوبة للناس إذا احتقروا فقراءهم، يسلب الله عنهم حرمة الإسلام وهيبته، ويسلّط على أموالهم الجور والحتف. ففي الخبر: «إذا احتقر الناس الفقراء سلّط الله على أموالهم الأمراء». وقد انعكس اليوم الحال. فكان الرؤساء فيهم الأنذال بذلوا الدين لاقتناص الأموال. ولله درّ إبراهيم بن أدهم حيث قال:

نرقعُ دنيانا بتمزيقِ دِيننا ... فلا دينُنا يبقىٰ ولا مَا نرقعُ

فَطوبىٰ لعبدٍ آثرَ الله ربّه ... وجادَ بدنياهُ لِما يتوقعُ

فعليك بالصبر والتعفف يكفيك الله همّك. ففي الحديث: «من يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يُغنيه الله، ومن يستعفف يعفه الله» الحديث ثبتنا الله وإياك أمين.

فائدة ١٧

في السماع والاغترار به

اعلم أنه قد كثر اليوم في المدّعين الملبسين حضور السماع وتعاطي الحركة، والتواجد إيهاماً لمن حضر أنه من أهله. وقد باين أهله بقوله وحاله وفعله، وإنما حمله على ذلك توهمه حصول الجاه والمنزلة عند العوامّ أهل الجهل والغفلة، ولم يعلم المدّعي المسكين أن هذا ميدان يختص بالخواصّ أهل المعرفة والصدق والإخلاص. فهم رجاله ورعاته وحماته، لا يلتبس بهم في ذلك الميدان مدعٍ كذّاب إلاّ وسلبه الله ما وجد، وفضحه عند من شهد، وسلّط عليه العامة بثلبِ الألسن، وسقط عن الأعين. فللسماع رجال ذوو همم عوالٍ، يسمعون بالغيب ما لا تسمعون، ويرون بالبصيرة ما لا ترون. فسماعهم من هناك، وانزعاجهم بالتواجد لأجله بين ضاحك وباكٍ. فرحم الله من أنصف واعترف، وحقق قدر نفسه وسلم ذاك لأهله. ولله درّ من قال:

قلوبُ العارفين لها عيونٌ ... ترىٰ ما لا يراهُ الناظرونا
وألسنةٌ بأسرارٍ تناجي ... تغيبُ عن الكرامِ الكاتبينا
وأجنحةٌ تُطيرُ بغير ريشٍ ... إلى ملكوتِ ربِّ العالمينا
فَيُسقيها العزيزُ شرابَ صدقٍ ... وتشربُ في كؤوس العارفينا
عبادٌ جاهدوا بالسرِّ حتىٰ ... دَنوا منه وصاروا وَاصلينا

ولله درّ من قال:

ومَنْ يكنْ وجدُه وَجداً صحيحاً ... فما يحتاجُ إلى قولِ المغني
لهُ مِنْ وجده طربٌ قديمٌ ... وسكرٌ دائمٌ من غير دنٍّ

وَمـا وجـدي بمُـنـقـطـعٍ ولـكـنْ يكونُ بحيث محبوبي يجدني
فـإن لـمْ تـدركْ المعـنـىٰ وتـدري خـفـايـا مـا أقـول فـلا تـلـمـنـي
ومَـنْ حـضـر السـمـاعَ بغيـرِ قـلـبٍ وَلـمْ يـطـربْ فـلا يـلـمِ المغـنـي
وإن تـكُ يـا عـذولُ جـهـلـتَ أمـري فَـدعْ عـنـك الملامَ وخـلِّ عـنـي

فقد قيل: إن السماعَ هو الصفا الزلال، لا تثبت فيه إلاّ عزائم الأبطال الرجال. قال شهاب الدين السهروردي رحمه الله: لا يصلح السماع إلاّ لمن نفسه ميتة، وقلبه حيٌّ، وإلاّ فهو فتنة عليه. أرشدنا الله وإيّاك آمين.

فائدة ١٧

في رتبة الكرامات

اعلم أنما الكرامة هي الاستقامة، وهي علامة الولي الصادق. وأمّا الخارقة للعادة المسماة عند العوامّ بالكرامة فهي أيضاً للصادق في المتابعة كرامة، ولغيره مكر واستدراج وندامة. وكل وليّ لله تعالى صادق يفر منها خشية من خديعتها، وإنما تطلب الزيادة من الكرامة في الاستقامة وربما وليٌّ ليست له كرامة أفضل عند الله ممن ظهرت عليه كل الكرامة. قال الأستاذ الجنيد ـ رحمه الله ـ رجال طاروا في الهواء ومشوا على الماء قد مات بالعطش أفضل منهم عند الله يقيناً، وأقوى تمكيناً. فالفضل بالتقوى وزيادة اليقين. فمن رجح في ذلك فهو الراجح، وهذا هو الميزان العادل الناصح، فلا يغتر بغيره إلا مخدوع مقطوع، وإنما يرجح صاحب الكرامة الخارقة بدونهما عند العامّة لجهلهم بحقيقة الكرامة والمنزلة عند الله تعالى. وأيضاً لغلبة حبّ الدنيا على قلوبهم لظنهم أن صاحبها يحصل له بها الجاه، وتبذل له الأموال؛ ولهذا يخرج الدجال الكذّاب ويظهر بأنواع الخوارق للعادات الطوارق، ويفتتن به كل راغب في الدنيا فاسق، وعن الدين مارق. ولا يغتر به كل مؤمن محقق صادق. فانصح لنفسك وانظر لدينك ولا تغتر بالمغترين من أبناء جنسك. فقد كثرت الدعاوي، ونطق بها كل لسان داوي، والنقّاد بصير وبسرائرهم عليم خبير. فعلامة الولاية والقربة عند الله التمسك بالتقوى، والزهد في الدنيا لقوله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم﴾ إلى قوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى﴾. فمن خرج عن حدهما ضاع وسقط بلا نزاع، ودعواه كاذبة، وأمانيه باطلة، قد زيّن له الشيطان سوء عمله فرآه حسناً. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ - رضي الله عنه -: «يا معاذ إن المؤمن لدى الحق أسير، يعلم أن عليه رقيباً على سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وبطنه وفرجه، حتى اللمحة ببصره وفتات الطين بأصبعه، وكل عمله وجميع سعيه. القرآن دليله، والشوق مطيته، والوجل شعاره، والصدق وزيره. يا معاذ: إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من هوى نفسه وشهواته، وحال بينه وبين أن يهلك بإذن الله». وهنا مجال المؤمن الصادق. فيا أخي اعرف قدرك ولا تتعدّ طورك، ولا تنظر إلى قرناء الشيطان وأعوان الضلالة. فلا قدر لهم عند الله، ولا خلاق لهم في الآخرة. فلكل شيء علامة، وعلى ذي الدعوى البينة، كما قال تعالى: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. ولما قال حارثة أصبحت مؤمناً حقاً قال له ﷺ: «يا حارثة لكل حق حقيقة. فما حقيقة أيمانك؟» فذكر الحديث بطوله. وكتب عبد الله بن الزبير - رضى الله عنهما - إلى بعض إخوانه أما بعد. فإن لأهل التقوىٰ علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم. من صبر على البلاء، ورضي بالقضاء، وشكر على النعماء، وذل لحكم القرآن، فهؤلاء يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة. قد حصنوا أنفسهم بالطاعة والتقوىٰ والتبري من الهوىٰ، والدعوى. ومع ذلك فهم يحذرون المكر الخفي والبلوى، ولله درّ من قال:

يتجنبُ الاثامَ ثمّ يخافُها ... فكأنما حسناتُهُ آثامُ

وقال ذو النون المصري - رحمه الله - الصوفي مَنْ إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإذا سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق. وقال الشيخ إسماعيل الجبرتي - رحمه الله -: لولا العلامات لأدّعى كل أحد رفيع المقامات، وشطح فيها بالشطحات والطامات. ولله درّ من قال:

ما أقبحَ الدعوىٰ بلا شاهدٍ ... ما وردك حتى ترىٰ وارد

يا ساهر وقلبُه راقدٌ ... عن لذاتِ الفكرِ والذكرِ

ولله درّ القائل أيضاً:

فيا مُدّعي حبًّا بغيرِ حقيقةٍ ... فما أسهلَ الدعوىٰ وما أعسر المعنىٰ

وفي الاية: ﴿إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بـإيمانهن﴾. فانظر لدينك وانصح لنفسك ولإخوانك، وأحسن الظن بالمؤمنين. اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ومن يؤمن بالله يهد قلبه. اللهم اهدنا فيمن هديت، وتولنا فيمن توليت. نحن وأحبابنا والمسلمين آمين. آمين. آمين.

فائدة ١٧

في فضل الإخوان في الله تعالى والتحابب والتزاور فيه

قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ والمتزاورين فيَّ والمتباذلين فيَّ يغبطهم النبيّون والشهداء وليسوا بأنبياء ولا شهداء». الحديث وورد أيضاً: «اتخذوا الإخوان فإنهم شفعاء يوم القيامة». والترغيب في ذلك كثير. والأخ المساعد لك على أمورك، والمرشد لك إلى ما فيه صلاحك، والمعين على البر والتقوى الأخ الصالح المشفق الناصح؛ إن ظفرت به فتمسك به، وعضّ عليه بالنواجذ، واعلم أنه هدية لك من الله فاقبلها، وسعادة لوقتك وغنيمه قصدتك فاظفرها واشكر الله على ذلك. وقد ورد: «المؤمن كثير بأخيه» وكفىٰ بهذا تنبيهاً ونصحاً. فما أعظم فوائد الإخوان وأسعد الوقت بهم، يصفو بهم الكدر، ويندفع بهم الشرّ، ويتيسر بهم البر، لكن عز وجود أمثالهم ولله درّ من قال:

إذا صفا لكَ مِنْ زمانِك واحدٌ نَعم الزمانُ ونِعم ذاك الواحدْ
وإذا توالفتْ القلوبُ على الرضىٰ فالكلُّ يضربُ في حديدٍ باردْ

ونحوه أيضاً:

سألتُ النَّاسَ عَنْ خِلٍ وفيٍّ فقالوا: ما إلى هذا سبيلُ
تمسّكْ إن ظفرتَ بودِّ حُرٍ فإن الحرَّ في الدّنيا قليلُ

ولقد صدق. فقد عزّ الصفا بين الإخوان، وعُدم الوفاء وانتشر بينهم الجفاء أصلح الله المسلمين. فقد قال الإمام مالك بن دينار - رحمه الله - في أهل عصره. إخوان هذا الزمان مثل مرقة الفول، ريحها طيب لكن لا طعم لها.

قال الشيخ محمد بن عراق: لكن أنا أقول في هذا القرن ـ أي القرن العاشر ـ هم كمرقة الروسِ ريحها ذفر، وطعمها سنخ مر، فهؤلاء لا يُعبأ بهم. وقال الإمام جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ في أهل عصره: فسد الزمان، وتغير الإِخوان، وصار الإِنفراد أسكن للفؤاد. فتأمل كل ذلك فالعلماء وأهل البصيرة هم السادة القادة لكل الناس والنقاد لهم، وأهل الجرح والتعديل والفراسة الصادقة فيهم. فلو لم يقوموا بذلك لاختلط الحق بالباطل، واشتبه الحاصل بالماصل. وقد ورد: «احترسوا من الناس بسوء الظن، فبالإِحتراس تحصل السلامة من ضرر الناس». فتأمل ذلك ولله درّ من قال:

أخلاءُ الرخاءِ همُ كثير ... ولكنْ فِي البلاءِ همُ قليلُ
فلا يغررك خِلةَ من تواخي ... فمالكَ عِنْد نائبة خليلُ
وكلُّ أخٍ يقولُ أنا وفيٌّ ... ولكنْ ليس يفعلُ ما يقولُ
سوىٰ خلٌ له حسبٌ ودينٌ ... فذاكَ لِما يقولُ هو الفعولُ

فكل هذا إشارة إلى عزة الصفاء والوفاء، لكن ينبغي للعاقل أن يختار من أهل عصره الأعون له على أموره؛ فإنه لا يستغني عن الأعوان من الإِخوان، ويعاملهم بالرفق وحسن الخلق، ويحتملهم بالصبر وسعة الصدر؛ حتى يلحق بالله. ولله درٌّ من قال:

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ مُعاتباً ... صديقَك أين الذّي لا تُعاتبهْ
فإن أنتَ لَمْ تشربْ مِراراً على القذا ... ظَمِئتَ وأيُّ النّاس صفوٌ مشاربهْ
فَعِشْ واحداً أو صِلْ أخاك فإنه ... مقارفُ ذنبٍ مرّةً ومجانبهْ

وقال غيره:

هُم النّاس والدنيا ولا بدّ مِن قَذا ... يلمُّ بعينٍ أو يكدّر مشرباً
ومِنْ قِلة الإِنصافِ أنك تبتغي ... مهذباً في الدّنيا ولست مُهذّباً

فاصبر على ما فيه صلاحك، وصابر على فوزك وفلاحك؛ حتى يأتيك اليقين. واستعن بالله فهو المعين.

فائدة ١٧

في الصُّحبة ومراتبها نافعة إن شاء الله تعالى

قال الشيخ الجنيد ـ رحمه الله ـ: الجليس الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من الجليس السوء. وقد ورد بنحو هذا اللفظ حديثا مرفوعا. فاعرف يا أخي أهل زمانك، وانظر في شأنك، وانصح لنفسك ولإخوانك. واعلم أن إبليس اللعين وجنوده لا يغفلون عن طريق الإغواء. والإضلال لجميع المسلمين، يجتهدون بكل حيلة، يثبطون المرء عن طاعة الله، وينشطونه في معصية الله، ويزينون له أسباب مساخط الله. ومن كان بهذا السبيل من الأنس فعله هكذا في عباد الله فهو من جنود إبليس وشياطين الإنس أشدُّ ضرراً على أهل الدين من شياطين الجن. قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾. فاحتذر منهم، ولا تغتر بتلبيسهم وتزويرهم؛ فإن قلوبهم مأوى لوساوسه، وألسنتهم ناطقة بتلبيسه. وهم جنوده وأعوانه. فكن ذا بصيرة في معرفة الباطل من الحق، والتمييز بين معادن الخلق. ففي الحديث: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة وغيرها» الحديث. فاعرف نصوص الحق وشُعبه وفنونه، تعرف أهله. لعل بهذا يتضح لك الخير وأهله والشر وأهله. فقد قال عليٌّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ طوبىٰ لمن أقبل على شأنه وعرف أهل زمانه. وقال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ من لم يعرف الشرَّ وأهله لم يتقيه، ويُخشى أن يقع فيه. وقد كان بحثه عن أبواب الشرِّ وأسباب الفتنة، وسؤاله عن ذلك أكثر من غيره من أبواب الخير. فمعرفة أحوال أهل الزمان من آكد أسباب الخير. واعلم أن كل ما ألهاك عن ذكر الله وطاعته من مال وزوجة وولد وغيره فهو عدو لك، وشؤم عليك،

وصديقك من أعانك على ذكر الله تعالى وطاعته فافهم والزم ولله درّ من قال:

أرىٰ كلَّ من ألهاك عن كسبِ طاعةٍ   عدواً وإن كان الصديقَ المصافيا

وورد: «المرء من جليسه» ولله درّ من قال:

لا تصحبَ الكسلانَ في حالاتهِ   كم صالحٍ بفساد آخر يفسدُ
عدوىٰ البليدِ إلى الجليدِ سريعةٌ   كالجمرِ يوضعُ في الرمادِ فيخمدُ

فائدة ١٧

في المعاشرة والمخالطة

اعلم أنك في خلطتك لعامة الناس يتأكد عليك فيها الحلم والصبر والتأني في كل أمر، والتثبت عند كل ورد وصدر. وأحسن النظر والفكر. وجماع الأمر كله فيها المعاملة بالرفق لجميع أصناف الخلق. قال ﷺ: «الرفق خير كله ما دخل الرفق في شيء. إلاّ زانه، ولا خرج منه إلا شانه». فتمسك به فهو الخير كله، ومن آكد آدابها ملازمة الصمت إلاّ لحاجة ماسة، والتغافل عن كل مكروه والصفح عن كل جانٍ، والعفو عن السيئة، والمكافأة بالحسنة. فبهذه الخصال يصفو له منهم الحال، ويكون من سادة الرجال. فحسن المعاشرة للخلق والمعاملة بالصدق لهم، وحسن الخلق، وبذل الرفق لا يصبر عليه إلاّ من له قدمٌ ثابت في العقل والمروءة وعزم نافذ في خصال السادة. ولله درّ من قال:

لولا المشقةُ سادَ النّاسُ كلهُمُ ... الجودُ يفقرُ والإِقدامُ قتالُ

وقال غيره:

فلا يحزُنكَ أن تنظر رجالاً ... مغيّرة عن الحالِ القديمِ
فلي نفسٌ ستتلفُ أو سترقى ... لعمرك بي إلى أمرٍ جسيمِ

وفي الحديث الحث على مداراة النّاس. وورد أيضاً: «التودد إلى الناس نصف العقل». وقد ورد الأمر بإجراء الناس على الظواهر، وتفويض السرائر إلى الله تعالى. قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من أظهر لنا خيراً أمنّاه وقربّناه، ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه وأبعدناه؛ وإن زعم أن سريرته صالحة إنما نحكم بما ظهر لنا، ونكل السرائر في أمره إلى الله تعالى. فالوحي قد ذهب

فانقطع بوفاة الرسول ﷺ، ولقوله هذا شواهد كثيرة من الأخبار النبوية. قال الإمام سفيان بن عينية - رحمه الله - من تهاون بالإخوان ذهبت مروءته، ومن تهاون بالسلطان ذهبت دنياه، ومن تهاون بالصالحين ذهبت آخرته. فينبغي للعاقل أن ينزل الناس منازلهم، ويعرف حقوقهم من غير إفراط ولا تفريط. فـ «خير الأمور أوسطها في كل شيء» الحديث ولله درّ من قال:

لا تجلسنّ مع السفيهِ فإنّه ... بفسادِه لصلاحِ أمرِك يذهبُ
ولقد ظفرت ببيت شعر قاله ... بعضٌ من الأعرابِ وهَو مهذبُ:
ما ينفع الجربا قربُ صحيحةٍ ... مِنها ولكنَّ الصحيحة تُجرّبُ

وقال غيره:

ليس الكريمُ الذّي إن زلَّ صاحبُه ... بثَّ الذّي كان من أسرارِه علما
إن الكريمَ الذّي تبقى مودتُه ... ويحفظُ السرَّ إن وافىٰ وإن صُرما

فطوبى لمن عرف قدره، وانصف من نفسه، وشغله عيبه عن عيوب الناس، وكان بهم برًّا كريماً رؤوفاً رحيماً. فهذه أخلاق أولي العزمِ والحزم فاعلم ذلك والزم.

فائدة ١٧

في حكم الرعاية تتعلق بالولاة والسلاطين

قال الله تعالىٰ: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾. الآية وقال تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾. وقال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾. وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: لا تشغلوا نفوسكم بالدعاء على ملوككم، واشغلوا نفوسكم بطاعتي أكفكم أمرهم وأحوّل قلوبهم بالرحمة لكم، والشفقة عليكم، وإلا تفعلوا اسلطهم عليكم بالجور والمحنة والبلية. فقلوب الملوك بيدي أُقلبها على ما أشاء وأريد». وفي الحديث: «كما تكونوا يولى عليكم» أي إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وعن الزبير بن عدي - رحمه الله - قال: أتينا أنس - رضي الله عنه - فشكونا ما نلقاه من الحجاج، فقال اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلاّ والذي بعده شرّ منه. وقد أمر العلماء بطاعة الولاة في المصالح دون المفاسد. ففي الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». ونهوا عن الخروج عليهم بالسيف، وحرضوا على الصبر معهم وإن جاروا للأخبار الواردة بذلك. وعلى معرفة حقهم وكفّ اللسان عن سبّهم، فقد ورد: «عليكم بالسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً» فافهم، وحثوا على الدعاء للولاة والجنود بالصلاح والمغفرة. فهو من حقوقهم على الرعية. والواجب شكرهم في برهم. فمن علامة السعادة للرعية حصول الوالي الصالح المصلح لهم، وعلامة بلائهم وفتنتهم في ضده الوالي الغشوم الظلوم. فقد قيل: أسدٌ حطوم خير من سلطان غشوم، وسلطان غشوم خير من فتنة تدوم، إذ كل بلدة بلا سلطان فسلطانها الشيطان. يكثر الفساد في سكانها، ويختلف أمرهم، ويشيع بينهم شرهم،

ويغلب ضرهم ويصيروا عرضة لكل سوء كالغنم بلا راع عرضة لكل مفترس قال الإمام ابن سيرين ـ رحمه الله ـ لو نوديت من السماء أن لك اليوم سبعين دعوة مستجابة لجعلتها جميعها للسلطان؛ لأن به صلاح الناس كلهم، فما أعظم نفع السلطان في جلب الخير والمصالح، ودفع الشر والمفاسد. فنفعه وإن جار عام كثير، وضرره أيضاً عام كثير، إذ بالكلمة منه أمراً ونهياً ينفذ أمرها في أهل ولايته. فما أسعد وقت الوالي الصالح المصلح لرعيته، يسر الله للمسلمين كل خير، وكفاهم كل شر. وفي مناجاة كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام: يا موسى قل لعبادي لا تأمنوا السلطان وإن كان أباكم أو أخاكم؛ فإنه كالنار يستضيء بها ويهتدي من بعد عنها، ولا تحرق إلا من دنا منها. فلا تقربوا منه ولله درّ من قال:

إنّ الملوكَ بلاءٌ حيث ما حلّوا	فلا يكنْ لك في أفيائهم ظلُّ
ماذا تريدُ بقومٍ إن همُ سخطوا	جاروا عليك وإن أرضيتهم ملّوا
وإن مدحتهَم ظنوك تخدعهَمُ	واستثقلوكَ كما يُستثقل الكلُّ
فاستغنِ باللهِ عن أبوابِهم أبداً	إنّ الوقوفَ على أبوابهم ذلُّ

ويدل على عظم منفعة السلطان للرعية والدفع به عنهم قول الله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾. إشارة إلى أن السلطان نعمة، وأن الله متفضل به على الرعية دفعاً للفساد، ونفعاً للعباد. وفي الحديث: «إن الله ليردع بالسلطان ما لا يردع بالقرآن» لغلبة الطباع البهيمية والشيطانية على أكثر الناس إلاّ من شاء الله، وقليل ما هم. فهؤلاء لا يردعهم عن الحظوظ النفسانية إلاّ خشية المعاقبة الحاصلة فيها، والمعاقبة العاجلة عليها. ومن وظائف الملوك المهمة الملازِمة لهم تفقد الرعية بحسن النظر التام والشفقة عليهم والإصلاح لدينهم ودنياهم، واتخاذ الوزير الصالح المعين له على صلاح أمره، وصواب رأيه، ورد خطئه وتقويم ميله بسداده وما أعون الوزير الصالح الناصح للوالي الموفق إذا صح قصده، وأعطي رشده. لكن عز وجود الولاة أهل الصلاح، وغلب في هذا الوقت ولاة الجور والفساد. فأحق الناس بصحبتهم من ساعدهم على ظلمهم، وعاضدهم على غشهم فـ ﴿إنا

لله وإنا إليه راجعون﴾ خاب وخسر الوالي والوزير والمشير والمستشير. وقد حصل في هذا الزمان انتكاس الرأس، وانعكاس الناس وانهدام الأساس؛ فعمت على الكل المصيبة. فيا أخي ثبّتنا الله وإيّاك تمسك بالدين، وصابر عليه في كل حين، حتى يأتيك اليقين. ولله درّ القائل حيث قال:

هـذا الـزمـانُ الـذّى كـنـا نـحـاذره   في قول كعبٍ وفي قولِ ابن مسعود
دهـرٌ بـه الحقُ مـردودٌ بـأجـمـعـهِ   والباطلُ والنكر فيه ليس مردود
إن دامَ هـذا ولم تحـدثْ لـه غـيـرٌ   لم يُبك ميت ولم يُفرح بمولود

وقال الشيخ أبو الحسن بن بندار - رحمه الله - فسادُ القلوب على حسب فساد الزمان وأهله ولله درّ من قال:

أرانـا كـلـنّـا نـشـكـو الـزمـانـا   ولـو نـطـقَ الـزمـانُ إذاً شـكـانـا
نـعـيـبُ دهـرَنـا والـعـيـبُ فـينا   ولـيـسَ لـدهـرِنـا عـيـبٌ سـوانـا
يـقـولـون الـزمـانُ بـهِ فـسـادٌ   وهَـمْ فـسـدوا ومـا فـسَـد الـزمـانـا

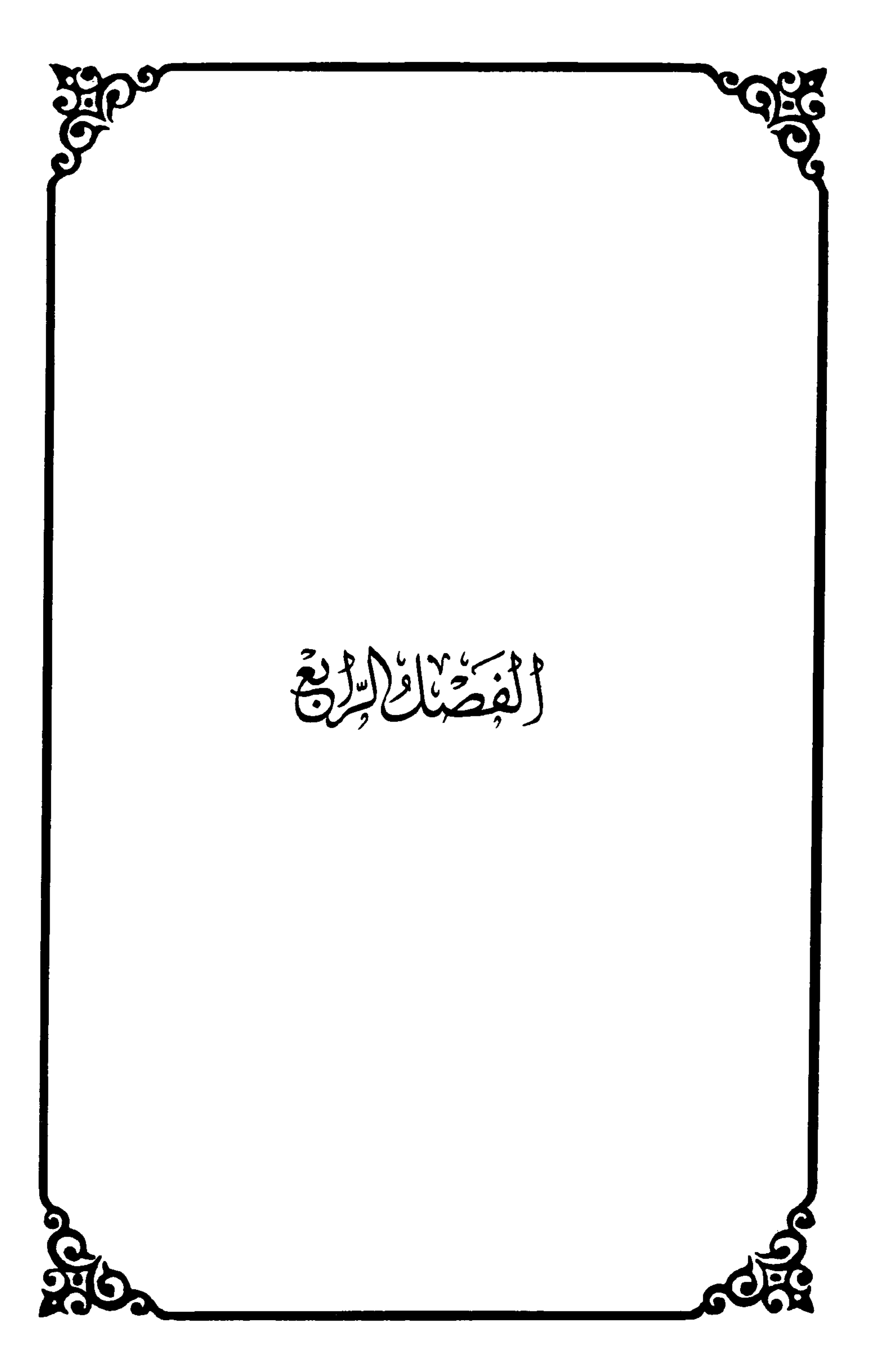
وقد ورد: «إن شر الناس من اتقاه الناس لخوف شره» وقد قيل:

داره مـا دامـت فـي داره   وأرضـه إن كـنـت فـي أرضـه

ولله درّ القائل حيث قال:

خـيـارُ الـرجـالِ فـتـى عـاقـلُ   يـداري الـرّجـالَ عـلـى فـطـنـتـه
يـجـازي الـرّجـالَ بـأفـعـالِـهـا   ويـخـضـعُ لـلـقـردِ فـي دولـتـه

فانظر لدينك وانصح لنفسك وفقنا الله وإيّاك آمين.



الفصل الرابع



فائدة ١٧

في بيان حسن الظن عموماً وخصوصاً

اعلم أن صحة حسن الظن بالله تعالى وبأنبيائه وملائكته وعباده الصالحين مطلوب جداً وبركته شاملة لصاحبه دنيا وأخرى، ظاهرة منفعته عليه في كل حال وأوان من حيث يحتسب، ومن حيث لا يحتسب قال ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء فإن ظن خيراً فله، وإن ظن شراً فله» الحديث. فتأمل أسرار هذا الحديث. وفي الحديث أيضاً: «من أحسن الظن ولو بحجر نفعه الله به» حديث مشهور في كتب العلماء. فعليك به فهو من أجلّ الحسنات، وأنفع الوسائل والشفاعات. قال الشيخ العارف بالله اسماعيل الحضرمي والشيخ الكبير إسماعيل الجبرتي - رحمهما الله - ونفع بهما: لا يدخل العبد على الله تعالى إلا بحسن ظنه به. ولقد صدقا ونصحا فقد قال: «أنا عند ظن عبدي بي» حديث صحيح فمن أكبر السعادات قوة التعلق بالله، والذهاب بالقلب كله إليه، والإعتماد على كرمه وفضله وسعة رحمته وجوده، والخروج عن النفس جملة، والتبروُ عن الحول والقوة. فلا يخيب له راجياً، ولا يردعنه داعياً. فكم قد أدرك بلطفه من أحاط به حتفه فنجّاه، وكم قد أسعد بكرمه وعطفه من تورط في غمرات الظلمات؛ فأخرجه منها ورفعه عنها. فتاب عليه وهداه، وجعله من أحبابه الراشدين. فحسّن الظنَّ بالله. وقوة الرجاء نافع لصاحبه جداً. يجلب له الحب لله، ويقوي الرغبة في طاعة الله، ويثبت الإيمان عند صدمات المصائب، ونكبات النوائب. وفي الحقيقة من حسّن ظنه بأحد لأجل صلاحه وقربته ومنزلته عند الله فإنما هو أحْسَنَ الظن بالله تعالى. وقد ورد: «من بلغه عن الله فضلٌ فصدّق، فعمِلَ به ابتغاء ثوابه كان له ظنه؛ وإن لم يكن ذلك كما بلغه» فتأمل

ذلك. فأهل التصديق والتسليم فازوا بالنجاة والسلامة، بل حازوا الخيرات والغنيمة. قال الشيخ العالم ناصر الدين يعني المعروف بابن بنت الميلق الشاذلي المشهور في قصيدته المشهورة:

والمرءُ إن يعتقد شيئاً وليس كما	يظنه لم يخبْ والله يعطيه
وليس ينفع قطب الوقت ذا خلل	في الاعتقاد ولا من لا يواليه
إلاّ إذا سبقت للعبد سابقةٌ	يعود من بعدِ هذا من مواليه

قيل للشيخ الكبير أبي الحسن الشاذلي ـ رحمه الله ـ اجعل خاطرك معنا فقال: يا أخي إن الخواطر مترتبة بالحكمة على حسن الظن منكم، ونقل مثل ذلك عن الشيخ إسماعيل الجبرتي ـ رحمه الله ـ ويعضد ما هنا حكاية عجيبة ذكرها بعض المصنفين في مناقب المشايخ العارفين. حكي عن بعضهم أنه أمر أصحابه أن يأتي كل واحد منهم بما في بيته من آنية النحاس. فكل أتى بما عنده منها. وقد تفرس الشيخ في أحوالهم حينئذ ثمّ أمر بمجلس القول والسماع، وأحضر أصحابه كلهم فسمعوا وطابوا فغلب الحال والوجد على الشيخ المذكور، فقام فيهم ودار وقد كان أمر بإحضار تلك الأواني والنحاس عند المجلس، فجعل يدور عليها مراراً كثيرة، فلمّا فرغوا من السماع نظروا إلى تلك الأواني النحاس فإذا هي قد قلبها الله وحوَّل أعيانها. فشيء منها صار ذهباً، وشيء منها صار فضة خالصة، وشيء دون ذلك. وآنية منها بقت نحاساً بحالها لم تحوّل فقال الشيخ لهم: إنما اختلفت هذه الأواني لإختلاف أحوال أصحابها. فمن حسن ظنه بنا، وبادر به فرحاً كان ذهباً. ومن كان قريباً من هذا كان فضة خالصة، والآخر دونه. ومن خبث ظنه وأتى به كارهاً بقي نحاسه بحاله لم يُحوَّل. وهذه حكمة الله وسنته في عباده فاعلموا وقال الشيخ الكبير أبو مدين ـ رحمه الله ونفع به ـ يا إخواني الفوائد في العقائد، فكما أن شرط الإيمان طمأنينة القلب والجزم، والاستمرار والتصميم على ذلك فكذلك الاعتقاد شرطه الجزم والتصميم لحصول منفعته، ودوام بركته. فافهم وللأستاذين مع التلامذة والمريدين أحوال غالبة وعناية بهم عالية. فنظرهم لهم ترياق شافٍ، وسرهم عليهم إكسير صافٍ، لكن وجود الواحد من هؤلاء عزيز؛ فهم الأفراد قال الشيخ الكبير إسماعيل الجبرتي ـ رحمه

الله - نظر الشيخ إلى المريد يبلغ به ما لا يبلغ باجتهاده ثمانين سنة. وقال الشيخ أبو العباس المرسي - رحمه الله - لو نظرت إلى رجل نظرة واحدة أغنيته بها. وقال الأستاذ ناصر الدين في قصيدته في ذكر الشيخ ونفعه للمريد:

ونظرةٌ منه إن صحت إليه على سبيل ودٍ بإذن الله تغنيه

وفي الحديث: «إن لله في أرضه آنية ألا وهي قلوب عباده، فأحبها إليه أصفاها وأرقها وأصلبها». وهذا هو القلب الطيب المستعد لقبول البركات، والمتعرض بحاله لحصول النفحات. والقلب الخبيث بضد ذلك. فإذا وجدوا تقياً زاهداً قيل: ومحباً صادقاً نظروا إليه نظرة ربانية نافعة جامعة أغنوه بها، وأراحوه من العناء. وقد تحفظ الوديعة من السرِّ لصاحبها لا تؤدى إليه إلاّ عند موته؛ لأن آفات الحياة غالبة والأهوية بالنفوس محدقة، فالخيرة له في الحفظ لها. فتفطن لذلك. فمن لم يأمنه الحقّ على آداب الشريعة لم يأمنه على أسرار الولاية. قاله أهل التحقيق. وقد قيل: إن ينزع السر من أهله وهو الحق. فمن تأهل بالسر بآدابه وأعطيه فإن الله لا يرفعه ويسلبه عن من تأهل له ما دام متأهل قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، وفوائد حسن الظن بعباد الله الصالحين حاصله لصاحبها في كل حال وأوان شاملة له عند كل أمر وبكل مكان سفراً. وحضراً، براً وبحراً، دنيا وأخرى؛ فإن لم تجد ما ذكرناه فارجع على نفسك باللوم واعلم أن الخلل في اعتقادك، ومنه حصل الشؤم. وهذه طريقة أهل الفضل والعقل. والجهال يكونون في إيمانهم على حرفٍ. وفي اعتقادهم على ضعف يقصدون أغراضهم، ويطلبون أهوى فإن أُعطوا رضوا، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون قال تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرفٍ فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه. خسر الدنيا والاخرة﴾. فتأمل ذلك وانصح لنفسك، وفقنا الله وإيّاك، واعلم أن من عباد الله العارفين من ينزله الله في مراتب الولاية والسلطنة والتمكين، ويجعله لخلقه كالرأس والعين، وله عليهم من الحقوق والحرمة ما هو آكد من الوالدين. وفي الحديث: «تخلقوا بأخلاق الله فهؤلاء خصوا بأسرارها، وخلصوا بأنوارها، وأعطوا ما لا يحل كشفه ويجل عن العبارة وصفه». قال الشيخ إبراهيم بن

أدهم - رحمه الله - قال لي الشيخ زيد ابن أسلم الإسكندري - رحمه الله - يا غلام إيّاك إذا صحبت الأخيار أن تغيظهم عليك، فلله عباد وأي عبادٍ، يغضب لغضبهم ويرضى لرضاهم فكن لهم أرضاً يطئون عليك، وإن طردوك وشتموك. فإذا فعلوا بك ذلك ففكر من أين أتيت، وارجع على نفسك باللوم، فإنك إن فعلت ذلك يدركك بلطفه، ويقبل بقلوبهم عليك. قال أبو عثمان - رحمه الله - صحبت الشيخ أبا حفصٍ - رحمه الله - وأنا شاب فطردني وقال: لا تجلس عندي فقمت وانصرفت إلى وراي، ووجهي إلى وجهه، ولم أوله ظهري حتى غبت عن عينه، فلما رأى ذلك مني أدناني، وجعلني من خواص أصحابه ومن آكد الاداب في زيارة الكبراء والمشايخ الأجلاّء القيام بالخدمة لهم والحرمة معهم فيهم. وفيما يتعلق بهم. ففي ذلك الفتح العظيم والمنح الكريم قال الشيخ أبو عبد الله القرشي - رضي الله عنه - إذا خدم المريد المشايخ والإخوان بالاداب أعاد الله عليه من بركات أحوالهم ما لم يكن يبلغه بعمل؛ لأن ما يرد عليه منهم هو ثواب أعمالهم المتقبلة، وما يرد عليه من نفسه هو ثواب عمله، ولا يقدر على تخليصه. قال الشيخ ممشاد الدِّيْنَوَرَيْ - رحمه الله - أدبُ المريد التزام حرمة المشايخ وخدمة الإخوان والخروج عن الأسباب وحفظ آداب الشريعة على نفسه. وقال ممشاد أيضاً - رحمه الله - ما دخلت على أحد من شيوخي إلاّ وأنا خالٍ من جميع ما عندي، قد تركت كل عدة معي، وجلست بين يديه انتظر بركات ما يرد علي من رؤيته وكلامه؛ فإن من دخل على شيخ بحظه انقطع عن بركات رؤيته، ومجالسته وكلامه، فلهذا كان أكبر الاداب في زيارة الكبراء العارفين عزل العقل والعلم وغيرهما، ثم الدخول عليهم ذلك بالجهل معهم والحرمة لهم وانتظار الفضل من لديهم. قال الإمام أبو القاسم القشيري - رحمه الله - ما دخلت على الشيخ أبي علي الدقاق - رحمه الله - إلاّ وقد عزلت كل عدة لي عند بابه، واغتسلت غسلاً كغسل الجنابة، وجددت الإقبال على الله تعالى. وقال الشيخ أبو مدين - رحمه الله - ما قصدت أحداً من مشايخنا للزيارة إلاّ واغتسلت، وغسلت ما معي حتى مرقعتي وعكازي، وجددت أمري ثم زرته. وقال الشيخ محمد بن عراق - رحمه الله تعالى -: ينبغي أن يكن الجلوس بين يدي العارف

بالله، والدخول عليه بما قال الشاعر:

إذا خدمت الملوك فالبس من التوقي أجلّ ملبس
وادخل إذا ما دخلت أعمى واخرج إذا ما خرجت أخرس

فالتزم يا أخي الحرمة لهم، والأدب معهم والإفلاس بين أيديهم وانتظار الفتح والبركة من لديهم تظفر بالخير والبركة، وفي ضد ذلك الشؤم والهلكة؛ فإنما ضاعت فوائد الزيارة للكبراء والمشايخ الأجلاّء لقلة الأدب عليهم، وعدم التزام الحرمة والتعظيم لهم، المقتضي للتواضع والخدمة معهم ومراعاة جبران قلوبهم، واغتنام راحتهم وسرورهم، والحذر من غيظهم وقبضهم وتكدر قلوبهم. قال الشيخ الكبير إسماعيل الجبرتي - رحمه الله - جالسوا أولياء الله بالأدب؛ فإنهم جواسيس القلوب وإن الله يغضب لهم، وإن لم يريدوا فمثل هؤلاء الرجال لا يقاس بهم غيرهم في جميع الأحوال، إذ هم خلفاء الله في أرضه، المتخلقون بأخلاقه قد كان الحق لهم سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً، فنظرهم به وبطشهم به لحديث ورد بذلك، ويندرج هنا كل كرامة لوليّ من العجائب والغرائب. فمن كان بهذه المثابة وله هذه المنزلة، فلا يقاس به غيره. فهؤلاء بشر لا كالبشر فافهم الإشاره مسكين من لا فهم فيه، مسكين فهؤلاء إن رضوا أدركوا بل مكنوا وملكوا، وإن غضبوا أهلكوا. وفي مناقب المشايخ العارفين فقد روي أن بلاد بغداد احترقت يوماً بسبب غضب الشيخ القطب عبد القادر الجيلاني - نفع الله به - على واحدٍ منها، وحكي عنه مثل هذا في غير قضية. واعلم أن أهل التصريف من هذه الأمة كالقطب ونحوه يفعلون المصلحة الموافقة لشريعه النبي ﷺ، إذ هم نوابه وخلفاؤه لكنه على حسب نظرهم المختص بهم. فقد تخفى الحكمة فيه إلاّ على ذي بصيرة. فلا يخرجون عن المصلحة العامة من حيث جلب المصالح ودرء المفاسد وحسن النظر ومعرفة العواقب بالكشف الجلي الذي ليس فيه غلط وتخمين. فيجب التسليم في هذا لأهله، وتفويض علمه إلى الله تعالى. وقد اجتمع الشريف أبونمي بالشيخ الكبير إسماعيل الحضرمي - رحمه الله - في حجته والشريف والٍ على مكة حرسها الله وبلاد الإسلام فرأى عليه حلة من الحرير، فأنكر عليه وجذبها جذبة قوية ومعه الإمام

أحمد بن موسى بن عجيل، فبعد ذلك سأل الشريف المذكور أحمد بن موسى عن حال الشيخ إسماعيل فقال ابن عجيل له يا سلطان إن إسماعيل سلطان المسلمين هو الأرعن على ربه، لو تغير علينا كلنا لهلكنا. هو محبوب مخطوب، ونحن محبون طالبون. فافهم أخبرني من أثق به قال: جاء جماعة من أهل تريم من آل أبي علوي وغيرهم زائرين لمولانا الشيخ أبي محمد معروف بن عبد الله مؤذن جمال أيده الله ونفع به، فقصدوه وقضوا الوطر منه، ثم إنهم اجتمعوا بشيخه إبراهيم بن عبد الله هرمز - رحمه الله - فذاكرهم وذكّرهم ساعة فقالوا له: يا سيدنا قد حُكي عن بعض خواص المشايخ الأجلاّء أنه قال من نظرت إليه من المريدين نظرة أغنيته بها. هل فُقد مثل هذا القائل في وقتنا أم لا؟ فقال بل هو موجود اليوم يشير به إلى الشيخ معروف المذكور لكن من جاء بالحراقة الصحيحة قبسوا له فيها. فالحراقة على المريد والقراعة القابسة عندهم، ولا يقبل القرع والقبس الشيء الغليظ الخشن ولا يتهيأ لذلك إلاّ الحراقة اللطيفة يعني النفس الزكية المهذبة بحسن الرياضة والمجاهدة. وقد قال الشيخ إبراهيم المذكور لجلسائه يوماً: لو تغير قلب الشيخ معروف علي ولي الله تعالى له رتبة مع الله لعزل عن ولايته، وأنزل عن رتبته. فافهم هذه الإشارة وكفىٰ بها نصحاً وتعليماً وإرشاداً لمن وفقه الله تعالى وفقنا الله وإيّاك لكريم الرضا، وحفظنا من سوء القضاء نحن وأحبابنا والمسلمين آمين. آمين. آمين. وكان الشبلي - رحمه الله - ينشد كثيراً ويقول شعراً:

لها في طَرْفِها لحظاتُ سحرٍ ... تُميت بها وتُحيي من تريد
وتسبي العالمين بمقلتيها ... كأن العالمِين لها عبيدُ
ألاحظها فتعلم ما بقلبي ... وتلحظني فاعلم ما تريدُ

وفي هذا كله إشارة لمن يفهم فديت من يفهم ولا يغني شيئاً عن الأعمى الأصم. كما قال تعالى: ﴿إن شرّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ الآية وفقنا الله وإيّاك آمين.

فائدة ١٧

في ذمّ الاغترار وأدويته

قال الله تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ في هذا إشارة إلى أن المزيّن له السوء لا تنفعه الذكرى. وقد نهى الله عن الاغترار بكرمه، وذم المغترين به. فقال تعالى: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور﴾. وفي الحديث: «لا تغتروا والمسترسل في المناهي والمحظورات والمساخط والسيئات المستمر على ذلك بتسويف الأوقات المتعلق مع ذلك بكرم الله تعالى وسعة الرحمة وحسن الضن والملتفت إلى نفاعة الشفاعة من العباد الصالحين، يكون هذا في أمره وفي حسابه وظنه من المغترين كما قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾ إنما قالوا هذا اغتراراً بما ذكرناه ﴿فبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾ الآية. وقال تعالى في وصف المغترين: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ وفي الحديث: «الأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني» وفي رواية العاجز بدل الأحمق «والكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت» الحديث. واعلم أن الملحدين وأهل الضلال في الدين قد كانوا يحسنون الظن، ويرتجون النجاة والسلامة، بل يطمعون لنفوسهم من الله الكرامة، ويزعمون أنهم أهل الحق والاستقامة، وما أغنى عنهم ظنهم وحسابهم ذلك من الله شيئاً. ﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً﴾. قال العلماء: إنما الرجاء المحمود وحسن الظن المطلوب لمن سلك سبيله وسداده واحتمى عن علله

وفساده كما قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أؤلئك يرجون رحمة الله﴾ الآية. وأبواب الغرور كثيرة وكلها نتجت من الحماقة وضعف البصيرة، وهي داءٌ عضال يصعب على مشايخ التربية أمر صاحبها وعلاجه. والله المستعان قال الشاعر:

وداءُ الجسمِ ملتمسٌ شِفاءه　　وداءُ النوكِ ليس له شفاءُ

والنوك في اللغة الحماقة. ذكره اليافعي في نشر الريحان، وقال الشيخ سري السقطي ـ رحمه الله ونفع به ـ من أحب الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش. والأحمق يغدو ويروح في لاش فافهم فُدِيتَ من يفهم وما خسر من خسر، وندم من ندم إلاّ من باب الحماقة. وقد كانت الحماقة معدومة أو قليلة في أهل الدين من السلف الأول، والصدر الأكمل؛ وإنما يجعلونها في السفلة والسوقة والسفهاء والأنذال. وقد عمت الحماقة اليوم في أهل الدين وفي أهل الدنيا. والله المستعان. ومن أشنع الحماقة والإغترار في هذا الزمان وأفضع خصاله أنَّا نجد فيه كثيراً من أهل النسب من أهل هذه الجهة أعني حضرموت عاطلين عن العلم والعمل، باطلين في القول والنيّة والفعل مصرين على ذلك لا ينوون رجعة ولا يلوون إلى توبة ومع ذلك ينتسبون إلى الدين جهلاً وعدوانا ويدعون بين العامة مناصبة ظلماً وطغياناً ويجعلون شرف النسب لهم من مراتب الدين ولم يشعروا أن الفخر والشرف بالنسب المجرد والترفع بالحرف والعدد والمدد من شعب الجاهلية الأولى وشيم الجاهلين وايضاً فالثناء والمدح لرفيع ذلك والذم والسب لوضيعه من شعب الجاهلية وليس ذلك كله من الدين في شيء أصلاً بل قد ثبت النهي عن التشبه بهم في شيء من أحوالهم فافهم فاغترار الأبناء والأولاد بصلاح الاباء والأجداد مع ما هم فيه من أحوال الفساد والتكبر والعتوّ والعناد مكر بهم، واستدراج لزيادة الشقاوة، والإبعاد وأنّىٰ يغني صلاح الاباء لفساد الأولاد. وقد قال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ فالتعزز بشرفهم وصلاحهم مضر للإنسان، وداع له إلى سبيل الشيطان، وصاد عن ذكر الرحمٰن. قال تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدوهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾. ولقد أحسن من

قال:

وَلـئـن فـخـرتَ بـآبـاءِ ذوي شـرفٍ   فَلقدْ صدقتَ ولكنْ بئسِ ما ولدوا

وفي الحديث الصحيح: «من بطؤ به عمله لم يسرع به نسبُه»، وكفىٰ بهذا تعليماً ونصحاً. ولقد جمع رسول الله ﷺ قرابته وقال لكل منهم: «يا فلان اعمل لنفسك فإني لا أغني عنك من الله شيئاً». ولقد نصح وصدق فقد قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. نقل هذا الحديث بتمامه أهل التفسير عند قوله تعالى: ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾. وفي حديث خطبة الوداع: «أيها الناس ألا لا فضل لعربي على عجمي إلاّ بالتقوىٰ، ولا شرف لأبيض على أسود إلاّ بالتقوىٰ» الحديث أو قال: «لا فخر» بدل شرف، ولم يعتبر الشرع تفاوت النسب والحرف إلاّ في المعاملات بين الناس والمعاوضات بينهم للتكافؤ والتمييز بين أهل المراتب العاجلة، واعطاء كل شيء قدره المقدر في عرفهم، وإنزال كلٍّ منزلته المعتادة بينهم، وهذا الحكم منقرض بانقراض هذه الدار الفانية، وإنما يبقى في الآخرة الحكم في التفاوت بين الخلق بالتقوى وحده أو ضده فقط. فافهم فديت من يفهم وينقطع يومئذٍ كل سبب ونسب، فلا يكتب شرف النسب لصاحبه حسنة في صحيفة الحسنات، ولا دناءة النسب لصاحبه سيئة في صحيفة السيئات. وقد كان جماعة من أهل النسب الهاشمي والشرف البنويّ يكتمون نسبهم إحتياطاً لدينهم، وفراراً من مضرة الشهرة به؛ طلباً لإخلاص عبادتهم، وعلماً منهم بأن مجرد النسب لا يغني شيئاً لبطال في العبادة. وقد انعكس اليوم حال أهل النسب، فصاروا متعرفين به في البلاد، ويتشرفون به بين العباد، إيثاراً منهم للدنيا وحظوظها على الآخرة وحقوقها، وإتباعاً لهوىٰ الأنفس، وطاعة منهم للشيطان. فالله المستعان وبه الثقة وعليه التكلان. واعلم أن الشفعاء عند الله لا يشفعون إلاّ لمن ارتضى وهم أهل التقوىٰ، وحظهم من كل شفاعة الأجزل والأفضل، ينالون منها أعلى الدرجات وأعلىٰ البركات. وأما أهل المقت والسخط المستحقون للهلكات وحلول الدركات؛ فالشفاعة لهم بحصول النجاة والسلامة منها، هذا إن قبلت فيهم. والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني. الحديث. فأوجه الشفعاء عند الله ملائكته المقربون وأنبياؤه

المعصومون. وتأمل قوله تعالى في شأنهم: ﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه﴾ وقوله تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقِهم عذاب الجحيم﴾ إلى قوله ﴿الفوز العظيم﴾ فمن سلك غير السبيل، وتعرض لمقت الرب الجليل، فطمعه في نفاعة الشفاعة غرور، ومكر به. ومن أسخط الله بمعاصيه ومساخطه مرة بعد أخرى، كبرى بعد صغرى فيوشك أن لا تستجاب فيه دعوة، ولا يؤذن في أمره لشفاعة. فيا أخي انصح لنفسك وكن مشفقاً على دينك، ولا تغتر بأبناء جنسك، وتدارك ما فرّط من أمسك قبل حلول رمسك، ولا تساعد نفسك بخديعتها وغشها على نقصك وبخسك. حكي عن السيد الشريف الورع عبد الله بن سليمان باصّرة التريمي ـ رحمه الله ـ أنه ذاكره بعض إخوانه في باب الرجاء، وسعة الرحمة، وكان الشريف المذكور يغلب عليه الخوف ويقبضه في أكثر أحواله، فأراد الأخ إيناسه فقال: يا شريف طوبىٰ لكم يا آل محمد ﷺ، فإنه سيد الأنبياء وأوجه الشفعاء، وأنتم قرابته وسلالته، فلما سمع منه هذا تغير وجهه ثم قال: يا أخي ما تغني قرابته لمن خالف طريقته. يا أخي ما أرى التفات القلب إلى مثل ذلك إلاّ فتنة ومحنة امتحن الله بها قرابته؛ لينظر كيف حالهم حينئذٍ. فمن اغترّ بها كان مغروراً. وقد حذر الله من الاغترار بما يدعو إلى الفتور وعدم الحزم من كل شيء. فقال تعالى: ﴿فلا تغرّنكم الحيوٰة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور﴾. يا أخي إنما يدرك شفاعته من مات على ملته. فمن أرسل نفسه في المعاصي ما يدريه أنه يختم له بالإيمان. وفي حديثه ﷺ: «المعاصي بريد الكفر» يا أخي ما أحوج المرء إلى درك الشفاعة في حياته عسىٰ أن يمنحه الله رشاداً، أو يصلح له فساداً، ويتيسر له من التقىٰ زاداً فإن خير الزاد التقوىٰ. يا أخي ما أرى ذكر قرابته لها إلاّ بلية ومحنة زاد الله بها قرابته وامتحنهم بها. ولقد صدق في كل ذلك فقد ثبت عن الرسول الناصح الصادق ﷺ أنه جمع قرابته وحذرهم الاغترار بها حتى خصّ ابنته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ

بشدة التحذير، وقيل لرسول الله ﷺ من هم آلك فقال: «آلي كل تقي» رواه الإمام الشافعي. فتأمل هذا فإن فيه تخصيصاً للعموم، وتقييداً للمطلق والعالم الموفق، حازم لا مغتر نادم. وقد رُوي وثبت عن الحسن المثنىٰ - رضي الله عنه - أنه قال لرجل ممن يغلو في حبهم: ويْحَكُم يا هؤلاء أحبونا لله فإن أطعناه فأحبونا، وإن عصيناه فابغضونا. والله إني أخاف أن يضاعف للعاصي منا العذاب ضعفين. والله إني لأرجو أن يؤتى المحسن منا أجره مرتين. وقد نقل عن الحسن بن علي وغيره مثل ذلك - رضي الله عنهم - هكذا ذكره الإمام العامري في (بهجة المحافل) وهكذا قد أنزل الله في كتابه في شأن أزواج نبيه ﷺ ما تعلم في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿يا نساء النبيّ من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ الاية وقوله تعالى: ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين﴾ الآية فتأمل ذلك يا أخي وتفهم ما هنالك. جعلنا الله وإيّاك ممن يعمل بما علم، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وقوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ وقوله تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجّار فماذا بعد الحق إلاّ الضلال﴾ وذكر في الإحياء للغزالي - رحمه الله - قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والاخرين ناداهم: يا أيها الناس إني قد أنصتُّ لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، فانصتوا لي اليوم إنما هي أعمالكم تردُّ عليكم. أيها النّاس إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً، فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم. قلت إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وأبيتم إلاّ أن تقولوا فلان بن فلان، وفلان أغنى من فلان. فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي. أين المتقون؟ فينصب لهم لواء ويدخلون الجنة بغير حساب». فانظر يا أخي إلى هذا فالشريعة طافحة بمثله. إنما أحوجنا إلى ذكر هذه الأسطر عموم الجهل في هذه الجهة: أعني جهة حضرموت. عمَّر الله بلاد الإسلام بكل خير. قال الشيخ العارف بالله عمر بن محمد بن حميد اليمني في رسالته: واعلم أن هذا زمان قد اختلط فيه الصحة والسقم والصدق والكذب، وعمل كلٌّ برأيه، وترك ما أمر به. فهو يعامل الناس بظاهره. والناس يعتقدون أن باطنه مع ربه؛ فخوفه

من سقوط جاهه عند الناس أعظم من خوفه من سقوط منزلته عند الله عز وجل. فسالم أرباب هذا المقام، ولا تردَّ عليهم كلمة واحدة في مقام الدين؛ فإن سألوك فأجبهم بالحق وإن سكتوا عنك فاغنم السلامة واحذرهم، ولا تسمع إلى أقاويلهم فهم مغرورون بل مسحورون يحرصون على جمع الدنيا دون الفضائل، ويحزنون على ما فاتهم منها ولا يبالون بما فاتهم من الدين. قد سحرهم حب الدنيا، وحشيت قلوبهم هموماً وغموماً فلم يبق للدين في قلوبهم متسع، يستجهلون من أنفق الدنيا، ويستخفون بمن زهد فيها. لو رأوا الحق مثل الشمس ما قبلوه، ولا ارتدوا عمّا هم فيه، ولو بذلت لهم علم الأولين والآخرين لقاموا من عندك، وما دخل في قلوبهم مثقال ذرة. ما أكثر الغرور والغرور في هذا الزمان والله المستعان خاصة ممن ينسب إلى الدين، أو يقال إنه من أبناء الصالحين. قد مالوا إلى الدنيا غاية الميل. فكان العلماء نياماً، والمغرورون منهم في الغرق، والعوام موتى ما أكثر الفتن في هذا الزمان، وما أقل المعاونين على الخير. واعجباه من بطالين مدّعين! وساق كلامه فيهم بما يناسب هذا فتأمل ذلك ولله درّ القائل حيث قال:

ذهبَ الرجالُ المقتدىٰ بفِعالِهم ... والمنكرون لكلِّ أمرٍ منكرِ
وبقيتُ في خلفٍ يزكِي بعضهم ... بعضاً ليدفع معوراً عن معورِ
أبُنَيَّ إن من الرجالِ بهيمةً ... في صورة الرجلِ السميعِ المبصرِ
فطن بكل مصيبةٍ في مالِه ... فإذا أصيب بدينهِ لم يبصرِ

فتأمل يا أخي وتفهم، فإنما تُنال الدرجات العلىٰ ورتب القرب من الله زلفى بالإيمان الراسخ، والعلم النافع، والعمل الخالص. فهذا هو النسب الحاصل، والحبل الواصل. من اعتصم به قُبِل، ومن توصل بحبله وصل، وأيضاً ورد في الحديث: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». فتناسب الأرواح هنا وتآلفها سابق تقاربها الأزلي وتعارفها. فربَّ رجلٍ صحت نسبته ببعض علماء الدين أو المشايخ العارفين لصحة التعارف السابق بين الأرواح، فدامت قربته وصدقت نسبته دون أولاده بالتناكح الجسمي، والتشابه الصوري. فليس الحائز للمال هو الفائز

بالرتبة منه والحال. فقد اصطفى الله تعالى آدم أبا البشر، وجعله خليفته، وعلّمه الأسماء كلها؛ فاختلف بنو آدم في الميراث منه. فمن وارثٍ للصورة، ومن وارثٍ لها. والمعنى وما كل آدمي جمع له بين الصورة والمعنى؛ وإن جمع له بين الروح الحيواني والجسد الصوري فما كل آدمي ذي روح وجسد يستحق السجود لاعوازه عن المعنى الذي خُصّ به أبوه آدم؛ فاستحق به السجود والتقديم والتكريم، فإنما أُختصّ آدم عليه الصلاة والسلام بهذا لما خصَّه الله به من المعنى القدسي والروح الأمري الإضافي، لقوله تعالى: ﴿فإذا سوّيته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾. وكذا الخلفاء من ذريته من الأنبياء والورثة لهم من العلماء والأولياء، سلك بالكل سبيله. فورثة المعاني والأحوال من أهلها بالتقارب الأصلي والتعارف الأزليّ، وورثة الأجسام والأموال بالتشابه الصوريّ، والتوافق الطبعي. ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ فافهم مسكين من لا يفهم فيه مسكين. فهذه الدار الفانية محل الصور الجسمانية. والدار الآخرة الباقية محل الصور المعنوية. ولله درّ القائل حيث قال:

وما النسبُ الموروثُ لا دُرَّ دُ ... ره لمحتسبٍ إلاّ بآخر مكتسبِ

ذا الغصن لَمْ يثمرْ وإن كان شعبةً ... من المثمرات عدّه الناس في الحطبِ

قال الشيخ داود الشاذلي ـ رحمه الله ـ قد يتعانق الرجلان إذا التقيا بظاهر الودّ والصحبة وإن بينهما لأبعد مما بين المشرق والمغرب. فافهم وهذا إشارة في الصحبة والمحبة الكاذبة، فما ظنك بها في النسبة الكاذبه والصحبة؟ أخص في التلقي والتوارث المعنويّ من النسبة، ولهذا حصل التفاضل بها، والتقديم دون النسب الصوريّ والقرابة الظاهرة لحديث: «المرء على دين خليله» قال الإمام مطرف من صَفّى صُفيّ له، ومن خلط خُلِّط عليه. هكذا ذكره في كتاب الإحياء فافهم فديت من يفهم قال بعض العلماء المحققين ـ رحمه الله ـ:

قد تعدّىٰ مَنْ تمنّى ... إن يساوي مَنْ تعنّى

فهذه الكلمة من الحكم الصحيحة، حاكمة على أهل كل فنٍ فأمٌّ العجز

أبداً عقيم. ولله درّ من قال:

ألا إنمـا الإنـسـانُ إلا ابـن ديـنـه فلا تترك التقوىٰ اتكالاً على النسبِ
فـقـد رفـعَ الإسلامُ سـلـمـانَ فـارس وقَدْ وضعَ الشركُ النسيبَ أبا لهبِ

وقد رفع الله بالتوفيق أهل التقوىٰ، ووضع بالخذلان أهل العصيان، وجازاهم بحسب أعمالهم على اختلاف درجاتهم، وتفاوت حالاتهم؛ جزاءً وفاقاً، ﴿ولكلٍّ درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون﴾. فتأمل يا أخي أسرار الشريعة، وانظر في ألفاظها البديعة. وخذ منها ما لنفسك من الوديعة. فقد عرفت أن تعارف الأرواح السابق بين أهل الصلاح هو السبب الواصل، والنسب الحاصل. وهو الرحم الصحيحة، والقرابة المليحة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» قال الشيخ حاتم الأصم ـ رحمه الله ـ لا تغتر بمكان صالح، فلا مكان أصلح من الجنّة. وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي، ولا تغتر برؤية الصالحين ونسبهم، فلا شخص أكبر منزلة عند الله تعالى من المصطفى محمد ﷺ، ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعمامه. هكذا ذكره في كتاب الإحياء، وقد هدى الله بأنبيائه وأوليائه من صح له التعارف السابق والقرب منهم في الأزل الماضي. فهذا هو المنظوم في سلكهم دون غيره ممن حصل له التناكر السابق، وأن وصله النسب الطبعي اللاحق. فانصح لنفسك فكما أن للأجساد توالداً وتناسلاً يناسبها فللأرواح أيضاً توالد وتناسل يناسبها، كما قاله أهل المعرفة والتحقيق. فبعد ما بين الله ورسوله لعباده هذا البيان تارة بالتفصيل وتارة بالإجمال. فماذا يبقى بعد الحق إلاّ الضلال، فيقال للمغتر من أبناء الصالحين: لا تغتر بصلاح آبائك وأجدادك. فقد لاحت لك المفارقة بصلاحهم وفسادك. هل أنت زاهد في الدنيا كما زهدوا؟ ومؤثر للاخرة عليها كما آثروا؟ وهل جاهدت نفسك، وقوّمت طبعك» وخالفت هواك كما فعلوا؟ وهل أدركت من العلوم النافعة، والمعارف الواسعة كما أدركوا؟ فهذا هو الميزان الناصح، والمعيار الصالح؛ فإن كان أحد من آبائك وأجدادك عالماً بارعاً وأنت جاهل مقيم على جهلك، حيران في تيه ضلالك فماذا يحصل لك من علمهم وأنوارهم؟ وإن كان أحد منهم تقياً طائعاً لله موفقاً وأنت عاصٍ لله مسيء فاسق فماذا ينالك من صلاحهم وفلاحهم؟ وقد ورد: يموت المرء على

ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه. حكي أنه جاء إلى السيد الصالح المكاشف أبي بكر بن عبد الله باصهي رجل من آل باوزير، وقيل إنه عبد الحق بن أحمد بن محمد فقال له يا سيدي: إن لوالدي معك صحبة، ولي عليك حق بها، وقيل لي إن لي وديعة عندك من ودائع الأولياء، أحب أن تؤديها إليَّ. فتبسم السيد منه، وتعجب من كلامه، ثم قال له: يا هذا إن الأولياء عندهم ودائع العنايات بالمريدين المستعدين لها، لا تختص بك دون غيرك؛ فإن جئت إلينا مريداً لله، راغباً صادقاً وتأهلت للسرِّ بالزهد والتقوىٰ ظاهراً وباطناً ألقينا إليك منه ما فيه صلاحك وفلاحك؛ وإن جئت إلينا ملطخاً بوسخ الغفلة والمعاصي، مضمخاً قلبك بأدران الأغراض وأشغال الدنيا. فما تريد منا، وماذا نصنع بك؟ وليس الأمر يا أخي على ما تهوىٰ أنت ولا نحن. إن الطريق إلى الله معلومة، وشرائعه في كتابه وسنة نبيه مرسومة. يا هذا لا يكون الوليُّ ولياً حتى يقوم بالحق لله وحده ولو على نفسه وولده وقرابته، إنما نحب منهم من أحب الله ووالاه، ونبغض منهم من خالفه وعاداه. يا هذا نحن نعرف أن والدك من الأولياء، ولا بد له أن يختار ما اختاره الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله. فمن رأى نفسه مهملة سائمة في مراتع الشهوات والمحظورات، مقيدة مثبطة عن أعمال البرِّ والطاعات، مصروفة عن جملة الخيرات، يغلب علي قلبه الغفلة عن ذكر الله، واللهو مع الراحات. وقد جرّب فيما مضى من عمره استمرار الغفلة والإصرار، ثم لم تردّه العناية إلى باب التوبة والرعاية، ولم تأخذ بيده شفاعة الشفعاء إلى جناب الهداية، مع أنه في حياته أحوج ما يكون إلى درك الشفاعة والنفاعة، وحصول التوفيق، ودفع التعويق، إذ التزوّد إنما هو في هذه الدار والدنيا مزرعة الآخرة، تزرع هنا والحصاد في دار القرار للحديث النبوي فبعدما يجرب الإنسان من أمره، ويعرف سنة الله الجارية معه في ماضي عمره، ولم يحصل في يده من أمانيه وحسبانه شيئاً، فكيف يتكل في النفاعة على العناية والشفاعة، مغتراً بأمانٍ باطلة. ويهمل نفسه في مراتع الهلكات، ويقطع نصيبه من مواقع البركات ولقد أحسن من قال:

لَوْ كانَ عقلٌ ولكنْ موجبُ القدرِ   في سالفِ العمرِ للإنسان معتبرٌ

فالاغترار بعد هذا دليل على ضعف إيمانه، وقلة نصيبه من الخير والكرامة؛ لهوانه. وإنه في الآخرة من الأقلين المفلسين النازلين. قال تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ فانصح لنفسك، وتيقظ من رقدة الغفلة ما دام لك زمن المهلة، ولا تطمع في حصول حسبانك الباطل. ففي طمعك نبذك الحق بأسره ومحو كتاب الله بطنه وظهره. قال تعالى: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره﴾. الآية وحكى الفقيه محمد باطحن الظفاري ـ رحمه الله ـ في تحفته أنه رأى الشيخ سعد المشهور في منامه بعد موته جالساً في جماعة من مشايخ اليمن من الأحياء والأموات، منهم الشيخ سعد الحداد العدني، وكان هو من الأحياء وجلوسه إلى جنبه كالمستعين به في أمر أصحابه، وقد حصل عليه تفرق واختلاف؛ فسمعت الشيخ سعد الظفارى يتلو عليه في شأنهم قوله تعالى: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يُصيبَهم ببعض ذنوبهم وأن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾. فتأمل يا أخي أسرار كتابه، واصغ إلى فاصح خطابه ترشد، إن شاء الله تعالى. وقال الشيخ الجليل علي بن ميمون المغربي ـ رحمه الله ـ في كتاب الرسالة إلى الإِخوان روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: كلما خوطب به المشركون والمنافقون يتوجه به الخطاب على المؤمنين؛ لأن النفس ما دامت أمّارة، فهي متخلقة بأخلاق الشياطين من العجب والكبر والرياء والحسد، وحب الرياسة، والدنيا ونحوها، وتلك الأخلاق كلها أخلاق المشركين والمنافقين. والمؤمن مأمور بالتخلق بأخلاق الصالحين من الأنبياء والمرسلين. وعباد الله الصالحين منهي عن التشبه بأحوال الجاهلين، فكن يا أخي وصيَّ نفسك، واقبل الحق ممن كان، وتلق النصيحة واغتنمها. وأعيذك بالله أن تكون ممن لا يحب الناصحين. يا أخي ما لك مصلحة في أنواع الغرور إيش غرضك يا مسكين بما يدعوك إلى التكاسل والفتور، ما حاجتك أن تجمع على نفسك الخسارة بالأماني الكاذبة، والزور والحسبان والظنون التي لا تجوز، ﴿كلا

لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم﴾ يا أخي احذر بعدما رأيت هذه اللمعة الصحيحة، وأرشدتَ إلى هذه الهداية. والنصيحة أن يكون حالك معها كمن قيل فيه شعراً:

لـقـد اسـمـعـتَ لـو نـاديـتَ حـيًّـا ولـكـنْ لا حـيـاةَ لمن تُـنـادِي
ونـاراً لـو نـفـخـتَ بـهـا أضـاءت ولـكـنْ ضـاعَ نـفـخُـك فـي الـرمـادِ

أصلح الله من الخير المقاصد، وسهّل منه الموارد لنا وللأحبة وجميع المؤمنين. آمين. فيا أخي اعتبر إيمانك بالله سبحانه وبرسوله ﷺ بما جاء عن الله ورسوله من الكتاب والسنة، الصادقين المحفوظين إلى يوم القيامة عن تلبيس الملبسين ونزغات الشياطين. قال تعالى: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ وقال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ وقال تعالى: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ فاعرف يا أخي قوة إيمانك وضعفه بحسب قوة تصديقك وضعفه بما في كتاب الله المقدس المنزل، وسنة نبيه الصادق المرسل، واتباعك لهما وحبك وإيثارك لهما على نفسك وهواك. قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» الحديث وقال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ فإن كنت مؤمناً حقاً وقابلاً لما قال صدقاً عملت وسمعت وأطعت. ففي الحديث: من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن. فالقلب إذا كان حيّاً بالإيمان حزن على ما فاته من الطاعات، وندم على ما آتاه من الزلات. روى عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ إذا أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فأناخ راحلته وذكر أنه جاء من سفر بعيد، يريد يسأل عن مسألة فقال له ﷺ: من أنت؟ فقال زيد الخيل. فقال له: بل أنت زيد الخير سل. فقال أسألك عن علامة الله تعالى فيمن يريد؟ وما علامته فيمن لا يريد؟ فقال له ﷺ: بخ بخ. كيف أصبحت يا زيد؟ قال: أصبحت أحب الخير وأهله، وأحب أن يُعمل به، وإذا فاتني حزنت عليه، وإذا عملت عملاً قلّ أو كَثُر أيقنت بثوابه. فقال ﷺ: هي هي بعينها، فلو أرادك الله للأخرىٰ هيأك لها، ثم لا يبالي في أي وادٍ هلكت. فقال: زيد حسبي حسبي، ثم سار ـ رضي

الله عنه ـ. فقد كان أئمة السلف يعتبرون إيمانهم بما ذكرنا من أمارة السعادة والشقاوة، ثم لا يغترون بغيره من تزيين الشيطان وخديعة النفس والهوى، قال وهب بن منبه ـ رحمه الله ـ: الرفعة في التواضع، والفخر في الفقر، والنسب في التقوىٰ، وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ورضي عنه ـ: إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا، وليس لهم حسنة. يقول أحدهم: أحسن الظن بربي فهو يكذب، لو أحسن الظن بربه أحسن العمل وتلا قوله تعالى: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾.

وكان يقول أيضاً: عباد الله اتقوا الله، واتقوا هذه الأماني؛ فإنها أودية النوكى، يعني: الحمقىٰ يحلون فيها، والله ما آتى عبدٌ أمانيه خيراً في الدنيا والآخرة، وكتب الإمام أبو عمير ـ رحمه الله ـ إلى بعض أخوانه: أما بعد: فإنك قد أصبحت تؤمل بطول عمري، وتتمنىٰ على الله الأماني بسوء فعلك، وإنما تضرب حديداً بارداً؛ وقال الشيخ الجليل معروف الكرخي ـ رحمه الله ونفع به ـ: طلب الجنّة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق. وقد قال العلماء والحكماء ـ رحمهم الله ـ: من زعم أن الرجاء مع غير الأسباب، ومع غير الاحتراز صحيح ما يزعم أن طلب الربح مع الفقر، وقدح النار من البحر صحيح. قال الشيخ القطب عبد القادر الجيلاني ـ رحمه الله ونفع به ـ: إخواني صححوا أنسابكم من نبيكم بحبه، وصححوا حبه بمتابعته، ودعوا الأماني الباطلة من غير ذلك، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الأماني وادٌ متسعٌ يهلك فيه الحمقى بالاغترار» فانظر يا أخي ما قدمناه وتأمل قوله تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ فعليك يا أخي بحسن الظن النافع من طريقه، والرجاء الصحيح بسلوك سبيله، واتباع فريقه. وارتجاء الشفاعة والرحمة من باب قبولها وأسباب حصولها، ولا تغترّ بزخارف الحكايات والروايات التي قد جمعها بعض جهلة المصنفين، ونقلها بعض المغترين المؤلفين المشتملة على الغرور الذي يرضى به الشيطان، ويسخط منه الرحمنٰ فإنما تُهلك بذلك نفسك،

وتقطع من الخير نصيبك، وتضيِّع عمريّ شبابك ومشيبك، فيبدو لك يوم القيٰمة خفة ميزانك، وبطلان حسبانك. واحذر أن تكون أنت في بعدك ممن انتسبت إليه، وفي فساد قصدك مع من تعلقت به. وتوجهت إليه كمن قيل فيه شعراً:

راحتْ مشرِّقةً ورحتَ مغرِّباً   شتّانَ بينَ مشرقٍ ومُغرِّبِ

فالسالك إلى الشرق باليقين سالكٌ لطريق البعد من السالك إلى الغرب فانظر هل ينفعه ظنّه لحبّه بقلبه، وارتجاه لقربه مع حصول هذا البعد من سالك الغرب؟ وهل هذا التمني إلاّ غاية الحماقة وهي الداء العضال الذي أعيا الأطباء علاجه، وتقويم مزاجه؛ فمن ارتجى الدخول من غير بابه، والحصول مع عدم أسبابه. فقد تمنى أمنية تسخط الرحمٰن، وتضحك الشيطان. وقد ورد وصح أن طائفة من المسلمين يُساقون إلى النار، ويحل بهم غضب الجبار؛ فيعذبون بأنواع النكال، ويشددون في عذاب النار بالسلاسل والأغلال؛ حتى يودُّ أحدهم أن لو يسلم من ذلك وقرض في حياته جسمه بالمقاريض؛ فيجب على كل مسلم الإيمان بدخول النار لطائفة من المسلمين، وحصول النكال والوبال فيها عليهم، ثم يخرج أحدهم بالرحمة أو الشفاعة بعد ألف سنة أو فوق ذلك، أو دون ذلك؛ لورود الأخبار النبوية الصادقة في ذلك فهؤلاء لشدة الغضب عليهم، لم تنفعهم أمانيهم ولا حسبانهم، ولم تدركهم الرحمة ولم يؤذن في أمرهم لشفاعة حتى أظهر الله فيهم صدق كتابه، وأنفذ لنبيه وعده فيه وخطابه، إذْ قال تعالى: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ فالقرآن حق، والرسول حق، والوعد حق، والوعيد حق، والشفاعة لمن له منزلة عند الله حق، والجنة والنار حق، واعتقاد كل ذلك من أصول الدين، وواجب على كل المسلمين. وفقنا الله وإيّاك لرضاه، وحمانا من سوء قضاه. آمين. آمين.

فائدة

تشتمل على كلمات في المعرفة بالله تعالى

اعلم أن أول كل شيء يجب على العبد معرفة صانعه، وكيف كان صنعه ثم التعبد له، وكيف يعبده. وبهذين الفصلين مع التوفيق القديم ينال السعادة، ويرتقي في معارج زلفىٰ الكرامة. وبضد هٰذين الفصلين وهو الجهل والعصيان مع الخذلان القديم، ينال الشقاوة وينحط إلى الخزي والإهانة. قال الله جل جلاله وتقدست أسماؤه: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ فهذا فضل العلم به. فوجود الحق سبحانه ذاته وصفاته قديمة أزلية كاملة منزهة، وما سوى الحق حادث ناقص، موجود بإيجاده على وفق مراده. من مَلَكٍ وإنس وجن وعرش وفرش وغير ذلك. وقال عز وجل: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيها النّاس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾ فهذا فضل التعبد له. فعلى هٰذين الفصلين اللذين هما العلم والتعبد مدار الأمر كله في جميع مخلوقات الله تعالى، وهما علة خلق الأشياء كلها. إذ قال تعالى في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً لم أعرف فخلقت خلقاً لكي أعرف» فافهم. وأهل الحق والسنّة هداهم الله فيه إلى ما يرضاه من الاعتقاد الحق والمعرفة المرضية، والقول اللائق والتأويل المصيب المشتمل كل ذلك على التنزيه الكلي لجانب الحق في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله عن مماثلة المخلوق، ومشابهة المصنوع بوجه من الوجوه إلاّ من حيث التسمية فقط. وكفىٰ في التنزيه الكلي قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ فأهل علم اليقين وعين اليقين متفقون في الحق غير

مختلفين وإن تفاوتت درجاتهم في الوضوح واليقين، والرسوخ والتمكين. فقد قالوا جميعاً كلما تصور في الأوهام وأومئت إليه العقول والأفهام. فالله تعالى بخلاف ذلك وإشارات الخلق إلى الحق راجعة إليهم لأنها مثلهم؛ ومن جنسهم. فالله جل اسمه هو الأكبر الذي لا يقدر أحد أن يعظمه كما يجب لحقه. فكل تعظيم وثناء وصلت إليه القلوب، أو نطقت به الألسنة فهو على قدر العارف. والله تعالى أكبر وأجل من أن يُحصِي أحد ثناه، أو يدرك كبرياه، لكنْ إذا إعترفت بالعجز عن إحصاء الثناء. وإنما الذي يشرف قدره بما ألهم من الثناء وأعترف أن الله غني عن المادح ومدحه. فقد بذل مجهوده؛ فمن ظن أنه يصل بغير اجتهاد، فهو متمنٍ، ومن ظن أنه يصل بالعمل، فهو متعنٍ. والعارف مجتهد في العمل امتثالاً للأمر، وقلبه معتمد على الله، ناظر إلى الحكم فإنه قد ورد: ﴿لن يُنْجي أحداً منكم عملُه ولا نفسي إلاّ أن يتغمدني الله برحمته﴾ فالله أكبر مما عرفه العارفون، ووصفه الواصفون وإنما علّمنا من حسن ثنائه ما تطيقه عقولنا ويتشرف به قدرنا، وجعل اعترافنا بالعجز عن الإدراك يقوم مقام الإدراك. ولله درّ الفقيه العارف بالله عبد الله باكثير الحضرمي ثم المكّي - رحمه الله ونفع به - حيث قال:

أتدرِي قبلَ كونك أين كُنتا ... وبَعْدَ الكونِ أين تصيرُ أنتا

فإن لَمْ تدرِ لا هَذا ولا ذا ... فأيّ الجهلِ مع هٰذا تركتا

وقد سُئل الشيخ الكبير الترمذي الحكيم - رحمه الله ونفع به - عن وصف العارف فقال: ضعف ظاهر، ودعوى عريضة. والكرامة له جليلة. وقد قال الصحابي الأكبر المقدم الأبر أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلاّ بالعجز عن معرفته، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بسؤال الزيادة من العلم به دائماً في كل حال بقوله تعالى: ﴿وقل رب زدني علماً﴾ إذ لا غاية لكمالات الجمال والجلال في الدنيا وفي الاخرة، وفي كل حال. وكان يقول في دعائه: يا دليل المتحيرين زدني فيك تحيراً. وحقيقه العجز عندهم والحيرة هي عين الهداية والقدرة واليقين الذي لا يحوم حوله ريب ولا ضلال، ولا وهم ولا خيال. فعلوم أهل المعرفة بالله تختص بهم، وتقصر أكثر الفهوم عنها،

ولا تكشف العبارة عنها شيئاً. فاعرف يا أخي قدرك، والزم حدك ولا تتعد طورك. فقد قال بعض العلماء المحققين العارفين بالله تعالى: من أصبح وأمسى مشغولاً بما دون الله مع زعمه ودعواه أنه من أهل الله فقد باء بسخط من الله. فسلِّم لهم أحوالهم ومعارفهم وعلومهم تسلمْ، بل تربح وتغنم. قال الجنيد ـ رحمه الله ـ الإيمان بطريقتنا وعلومنا هذه ولاية فافهم ذلك وإنما يكون لكل من التجلي على قدره. قال رسول الله ﷺ: «قلب المؤمن عرش الله» فافهم الإشارة فديت من يفهم. وأيضاً قال رسول الله ﷺ: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا العلماء بالله تعالى، فإذا نطقوا به لا ينكره إلاّ أهل الغرة بالله تعالى» حديث مشهور ذكره السهروردي وغيره. وقد ورد: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم» وورد أيضاً: «خاطبوا الناس بما يفهمون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟ وللعارفين بالله تعالى أسرار خفية، ومعارف دقيقة مكتومة لا يفشونها إلاّ عند أهلها وأشكالهم ولله درُّ من قال:

وَيفوحُ مِن طيبِ الثناءِ روائح ... لهُمْ بكلِّ مكانةٍ تستنشقُ
مِشكيةُ النفحاتِ إلاّ أنّها ... وحشيةٌ بسواهُمْ لا تعبقُ

ولله درّ من قال:

كَمْ فيها للسقيمِ مِنْ مرهمٍ ... ما هيئت إلاّ لِمَنْ يفهم
معناها في نطقها مبهمٌ ... لا تسري لغيرِ مَنْ يدري

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «ما تقرب المتقربون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً». وفي رواية «وقلباً وعقلاً، وإن سألني أعطيته، وإن استعاذني أعذته» حديث صحيح فتأمل يا أخي هذه النصوص النبوية وأسرارها. وقد ذكر الفقهاء وأهل الحديث في معنى هذا الحديث وشبهه معاني لائقة مفهومة، وقبضوا العنان عمّا لا تحتمله العقول، أو تحتمله النقول. واعلم أن هذا العبد المحبوب المشار إليه في هذا الحديث يقصر عن وصفه الواصف، ولا تحيط بخصوصيته معرفة العارف. فقد ورد: يقول الله تعالى:

«أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري، قد حجبهم عن غيره بحجاب الغيرة» فاعترف يا أخي بكمال العبد المخصوص، واعترف أيضاً بقصورك عن معرفته. فالعارف وإن وصفه واصف فهو دون ما أُكرِمَ به، وخُصّ به من الأمر القدسي. نفع الله بهم وبأسرارهم آمين. والعارف الكامل دائم الطلب والشوق، وهو في عين الحصول والوصول والذوق، عرف ذلك من عرفه، وجهله من جهله، وكان الشبلي - رحمه الله - كثيراً ما ينشد ويقول:

وكذّبتُ فيكَ الطرفَ والطرفُ صادقٌ ... وأسمعتُ أذني فيكَ ما ليسَ تسمعُ
ولَمْ أسكنْ الأرضَ التي تسكنونها ... لِكيلا يقولوُا إنني بك مُولعُ
فلا كبدي تهدى ولا لكَ رحمةٌ ... ولا عنك إقصارٌ ولا فيك مطمعُ

وحكي أن الشيخ المحبوب المجذوب العارف بالله أحمد بن جبير باشراحيل الشبامي - رحمه الله ونفع به - سمع قارئاً يقرأ ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ فقال له: يا هذا قد قمحت نفسك. ما أنت؟ وما قدر طاقتك؟ قل: ربنا حملنا ما لا طاقة لنا به، فهو الحامل والمحمول. فهو يشير إلى أن العبد وإن أُعطي على قدر استعداده فهو قليل، والرجل الكبير دأبه في الطلب والترقي دائماً بكل حال.

ولله درّ من قال:

ليلي بوجهكَ مشرقٌ ... وظلامُهُ في النَّاسِ ساري
والنَّاسُ في سدفِ الظلامِ ... ونحنُ في ضوءِ النهارِ

ولله درّ من قال يشير إلى أن العارف بعد المعرفه وشروق شمسها يُجمع له همّه، وتزول عنه تفرقته، وتحمل عنه مؤنته، فيلهم حمده وشكره، ويدوم وجده وسروره.

فقال قوّالهم:

مَاذَا أقولُ وقولِي فيكَ ذو خطر ... وقد كفيتَني التفصيلَ والجُملا
إن قلتُ لا زلت معروفاً فأنت كذا ... أو قلتُ زانكَ ربي فهو قَدْ فعلا

وهذان البيتان لبعض الأعراب وقد ضلت راحلته في ليلة مظلمة فتردد في طلبها، حتى عيي وتعب، ولم يظفر؛ فلما طلع القمر رآها باركة قريباً منه فأنشدهما يشيرُ إلى القمر، فتمثل بها ذلك العارف وقال آخر يشير إلى خجل العارف عند التجلي والشهود

أشتاقه فإذا بدا أطرقت من إجلاله
لا خيفةً بل هيبةً وصيانةً لجماله
وأصدُّ عنه تجلداً وأرومُ طيفَ خياله

وأنشد الإمام الجنيد يشير إلى الفنا عند الشهود فقال:

وُجودي إنْ أغيبُ عَنْ الوجودِ لما يبدو عليَّ مِن الشهودِ
وَمَا في الوجدِ لي فخرٌ ولكنْ فَخرتُ بوجدِ موجودِ الوجودِ

وأقوالهم في هذا المعنى نظماً ونثراً بلسان وجدهم كثيرة عنهم في سيرهم. فتأمل وقد قال الصدّيق الأكبر العارف بالله أبو بكر الصدّيق - رضي الله عنه - عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي، وقوله هذا نظراً إلى الحق الصرف. وقال غيره: لولا المربي ما عرفت ربي، وقوله هذا نظراً إلى الحق الصرف. وقال غيره: لولا المربي ما عرفت ربي. وقوله هذا نظراً إلى الوسائط. والكل صحيح. وكان السلف يختارون في عقائد الإجمال، ويختارون التفويض مع التنزيه فيها أيضاً وهو أسلم. وأمّا الخلف من العلماء فقد بسطوا في العقائد الإيمانية بالتفصيل، ورجّحوا في التأويل الموافق للتنزيه والتنزيل. وهذا أحكم حسماً لمادة المبتدعين الضّالين برأيهم في عقائد الدين، كذا ذكره جماعة من المحققين في الآيات القدسية، والأخبار الصفاتية الموهمة المشتملة على التشبيه. وكان الفقيه الكبير أبو محمد الدّمياطي - رحمه الله - تلميذ الإمام عبد العظيم المنذري - رحمه الله - يقول في ذلك: آمنت بالله وبما جاء من عند الله على مراد الله، وآمنت برسل الله وبما جاء به رسل الله على مراد رسل الله. ذكره الفقيه الأجل محمد بن أبي بكر عباد - رحمه الله - وقد نقل الفقيه أبو الليث السمرقندي - رحمه الله - في كتاب الآداب عن محمد بن محمد بن سلام

في العقيدة الإِجمالية نحو ما ذكره الفقيه الدِّمياطي المذكور. وكان سيدنا الشيخ الكبير العارف بالله تعالى إبراهيم بن محمد هرمز الشبامي ـ رحمه الله ـ يقول في ذلك: اشهد أن الله سبحانه موصوف بكل كمال، بريء عن كل نقصان. وأن الله سبحانه لا يحلُّ في شيء ولا يحِلُّه شيء. بل هو على ما عليه كان قبل تكوين الأكوان. انتهى.

فائدة

تشتمل على أحرف من القول فيما يلزم الأنبياء والملائكة والأولياء وغيرهم من الحرمة والتعظيم والآداب والتكريم

اعلم أن أخصَّ حرمات الله كتابه المنزل، وهو سرّه عند كلامه. إذ جميع كتب الله المنزلة من كلامه، ووصفه المتصف به منها القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم، وسائر الكتب المنزلة على أنبيائه. فيجب إكرامها وحفظ حرمتها بأجلِّ كرامة، وأعظم حرمة. قال رسول الله ﷺ: «أكرموا حملة القرآن. فمن أكرمهم فقد أكرم الله، ولا تنقصوا حملة القرآن حقوقهم؛ فإنهم من الله بمكان كاد حملة القرآن أن يكونوا أنبياءَ إلاّ أنهم لا يُوحىٰ إليهم». وقال ﷺ: «من دعا صاحب القرآن إلى طعامه وسقاه من شرابه لفضل القرآن، أعطاه الله بكل حرفٍ من حروفه عشر حسنات، ومحا عنه عشرَ سيئات، ورفع له عشر درجات. فإذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى له: إيّاى أكرمت»، فتأمل هذا. فقد التحق القاصر بالكامل حيث أكرمه، وحفظ حرمته، وأحبه لله تعالى. فقد ورد: «المرء مع من أحب» فلهذا اتصل المؤمنون بعضهم ببعض في النفاعة. والحمد لله وقال ﷺ: «أكرموا القرآن ولا تكتبوه على حجر، واكتبوه فيما يمحى وامحوه بالماء ولا تمحوه بالبزاق». وقد كان سيدنا الشيخ إبراهيم بن عبد الله هرمز ـ رحمه الله ونفع به ـ إذا جاءه أحد وطلب منه أن يكتب له ورقة حرزاً لمن به علة يمتنع عليه من هذا. ويقول إئتوني بخيط أنفت له عليه، وهو أحسن. ويقول: إنما اخترت هذا لتهاون الناس بحفظ حرمة القرآن وما فيه من أسماء الله تعالى، لوجوب الحرمة لها: والصيانة. فافهم ومما يتأكد حفظ حرمته جميع كتب العلم الديني المصنفة المشتملة على أحاديث رسول اللّه ﷺ، فحرمتها أعظم وألزم، والعلوم

المأخوذة منها بعد كتاب الله أولى وأقدم، والمحتج بها على خصمه حجته بالغة، وصولته دامغة، فعليك بالنظر فيها والإستكثار من علومها يقوى إيمانك، ويرسخ فيه قدمك. ومن أنفع الكتب المشتملة على جملة علوم الدين النافعة من الأخبار النبوية المعتمدة كتاب (رياض الصالحين) للإمام النووي - رحمه الله - فعليك بمطالعته، وإمعان النظر فيه. وأخص حرمات الله أيضاً الواجب تعظيمها وإكرامها بأجلِّ الكرامة أنبياء الله تعالى، فتأمل قوله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ الآيات المشتملة على جملة من الأنبياء المكرمين حتى قال آخرها: ﴿وكلاً فضلنا على العالمين﴾ وكفى بهذا فضلا وتقديماً وأيضاً فهم أمناء الله على أسراره، والوسائط بينه وبين عباده إنما اهتدى من اهتدى بأنوارهم، وسَعِدَ من سَعِدَ بأسرارهم، فلولاهم لم يكن بالله مؤمن، ولا له وليّ. فالكل في صحائفهم ومن حسناتهم المكتوبة لهم، وفي ميزانهم. فافهم وأخص حرمات الله أيضاً الواجب تعظيمها وتكريمها بأجلِّ الكرامة ملائكته المعصومون المصطفون؛ لقربه وحبه، والمخصوصون بطاعته وعبادته. وتأمل قوله تعالى في شأنهم: ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ وفي الحديث: «أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلاّ وفيه مَلَك ساجد لله تعالى» قد أكرمهم الله تعالى بعبادته وخدمته وعصمهم من مخالفته، وكفى بهذا لهم تشريفاً وتكريماً. واعلم أن أخص الخواصّ وأفضل الخلق، وخلاصة أهل الإخلاص الواجب تقديمه وتكريمه وتعظيمه بأجلِّ الكرامة وأوفر الثناء والتقدمة والتكرمة عبده ورسوله، وحبيبه أبو المحامد، وصاحب المقام المحمود محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي ﷺ وعلى إخوانه وآله. قال الشيخ العارف بالله طلحة بن عيسى الهتار اليمني - رحمه الله ونفع به - أول شيء أوجده الله تعالى روح حبيبه محمد ﷺ من بين جلاله وجماله، وألبسها من أنوار كماله، وحيّاها بسلامه، وخاطَبها بكلامه قبل أن يخلق العرش واللوح والقلم؛ فلذلك حصل له كمال المعرفة بالله تعالى، فلا مخلوق يتقدم عليه في الدنيا والآخرة أبداً. فهو سابق منشأ الوجود، وسائق الخلق إلى المعبود؛ لما قدم روحه في القدم أنزل ما سواه منزلة العدم. فلما أوجدوه في الدنيا لم يلتبس عليه

الأمر، ولم تمازج الكثافة لطافته لتصفية روحه في القدم. فهو العارف بالله تعالى على التحقيق في القِدم، وفي الدنيا حتى قبضه الله تعالى، وكان مصيره ومنقلبه، فأيده بالمعجزات ونصره بالكرامات وأظهر به سنا الأنوار البينات، انشق له القمر، وشهد بنبوته الضب، وسلم عليه الحجر، وانقاد له الشجر، وحن إليه الخشب، والماء من بين أصابعه انفجر. فقد ورد أنه أدخل أصابعه في ركوة فيها ماء، فكان ذلك فيها حتى شرب وارتوى منها ألف وخمسمائة رجل، وغير ذلك مما لا يعدُّ ولا يُحصىٰ. فهو صلوات الله وسلامه عليه أخص الخواصّ من الملائكة والنبيين وكافة الموحدين؛ فما عرف الله تعالى إلاّ بمعرفته، ولا شُرف أحد من الخلق إلاّ بشرفه، قال الشيخ أبو يزيد البسطامي ـ نفع الله به ـ لو بدا للخلق من النبي ﷺ ذرة لم يقم لها ما دون العرش لعلو قدره. فمن دونه لا يطيق حمل ذرة من أسراره. فالله الله يا أخي تعلق به، وأكثر الصلاة عليه ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، وتشرف بذكره والانتساب إليه وحبه وحب سنته وأصحابه وأهل بيته وقرابته، والشفقة على سائر أمته، والنصيحة للكل فهذه من حقه وكرامته، وبها سعادتك وشرفك وكرامتك، ومن أحسن الكتب هنا كتاب (الشفاء في حقوق المصطفى) للقاضي عياض ـ رحمه الله ـ فعليك بمطالعته ولله درّ من قال شعراً:

وَلئِنْ مدحتُ محمداً بقصيدتي   فلقدْ مدحتُ قصيدتي بمحمدِ

وقد ثبت الفضائل والمناقب لصحابته الجميع، وقرابته الكل بالكتاب والسنة، وثبت تكريمهم وتقديمهم. قال الشيخ الكبير يحي بن أبي بكر العامري في بهجته في فضل أهل البيت خاصة وجميع قرابته عامة، ووجوب حقهم. قال الله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى﴾ وقال تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ وروى مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث عليه ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في

أهل بيتي. قال زيد: نساؤه من أهل بيته، وأهل بيته آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. فهولاءِ حرمت الصدقة عليهم بعده». رواه مسلم وأخص قرابته السيدة الكريمة بنته فاطمة، فهي بضعة منه للحديث وأولادها الحسن والحسين وأولادهم إلى يوم القيامة. كذلك فقد اثنى الله على أهل بيته بأجلّ الثناء، و ثبتت الأخبار بمناقبهم الجليلة. فاعرف يا أخي حقوقهم، والتزم حبهم، وتشرف بقربهم والإنتساب إليهم وبخدمتهم، والإِحسان إليهم كافة. فقد ورد: «من صنع معروفاً إلى أحد فمكافأته على النبي ﷺ» قال رسول الله ﷺ: «من صنع معروفاً إلى أحد من بني هاشم أو بني المطلب ولم يقدر على مكافأته فمكافأته يوم القيامة عليّ» ﷺ. وقد ورد أن بني هاشم وبني المطلب شيء واحد، فبهذا وشبهه تفهم أن إكرام قرابته من إكرامه، والإِحسان إليهم كالإِحسان إليه. فاحرص يا أخي على الإِحسان إليهم واتخاذ الأيادي عندهم تحصل لك الكرامة النافعة، والشفاعة الخاصة منه ﷺ. وقد ورد: «كل سبب ونسب وصهر منقطع يوم القيام إلاّ سببي ونسبي وصهري» فإن شفاعته لقرابته خاصة ولأمته عامة. فافهم. قال الفقيه الكبير عبد الله ابن محمد العمودي ـ رحمه الله ـ إخواني إن لقرابته وآله شيئاً زائداً على كل الناس، وحقاً لازماً عليهم، فاعطوهم حقهم، ولا تبخسوا منه شيئاً. فافهم ولله درّ من قال:

وَمَنْ كان جدّه محمدٌ تبجح ... وفي كل وزنه فوزنته أرجح

والتوسل بهم ـ أحياءً وأمواتاً ـ وسيلة تامة، إذ روحها حبّه وتعظيمه ﷺ، وحقيقتها التوسل به وهو أكرم الوسائل ﷺ فيرتجى بها نجح المطالب وحصول المراغب، وقد ندب الشرع الشريف إلى كل ذلك، وعمل العلماء بما هنالك. ولله درّ من قال:

آلُ النبيِّ ذريعتي ... وهم إليه وسيلتي

وبجاههم أعطى غداً ... بيدي اليمين صحيفتي

قال الإِمام موسى بن علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ إنما شيعتنا ومحبنا من أطاع الله، وعمل مثل أعمالنا. فقد صحت الأخبار بفضلهم وتخصيصهم ولزوم حبهم وحقهم. أعني جميع

قرابته عموماً وخصوصاً؛ لفضل قرابته ﷺ، وممن يلزم محبته وكرامته وحفظ حرمته جميع صحابته ﷺ. فقد أثنى الله سبحانه في كتابه، وصحت الأخبار النبوية بالثناء عليهم وتخصيصهم، وذكر المناقب لهم عموماً وخصوصاً؛ لفضل صحبتهم لرسول الله ﷺ. ففي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه» وقال أيضاً: «من سبَّ أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». فاحفظ يا أخي حرمة الجميع ومحبتهم كلهم. فالصحابة الذكر منهم والأنثى أفضل الناس بعد النبيين، كما صحت به الأخبار الصريحة، فلا تعدل بهم غيرهم بكل حال. وقد ورد: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه، وتكون عترتي أحب إليه من عترته، ويكون أهلي أحب إليه من أهله، وتكون ذاتي أحب إليه من ذاته» قال رجل للمعافا بن عمران - رحمه الله - يا سيدي أين رتبة عمر بن عبد العزيز من رتبة معاوية الصحابي - رضي الله عنه -؟ فغضب عليه جداً وقال: لا يقاس بأصحاب النبي ﷺ أحد، معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله تعالى. فافهم فإن الفضل يا أخي بقوة الإيمان بالله وبرسوله، ورسوخ اليقين وشدة الحب والتعظيم، والمعرفة بالله تعالى. وهم كانوا أوفر حظاً من ذلك، وأجزل نصيباً مما هنالك من غيرهم. فقد هجروا الأوطان والعشيرة والأولاد، وقاسوا الشدائد، وخاطروا بنفوسهم العظائم، وبذلوا الأموال كل ذلك في سبيل الله تعالى، وابتغاء مرضات الله، وصحبوا نبيهم الصحبة المرضية الكريمة، ولم يشاركهم في ذلك غيرهم؛ فسبقوا إلى الفضل والخيرات بإذن الله. ذلك هو الفضل الكبير. وقد كان بعدهم في التابعين لهم بإحسان من هو أشدُّ اجتهاداً في العبادة، وأكثر علماً وعملاً من بعضهم، ولم يدانيهم في شيء مما أشرنا إليه؛ ففازوا بالتخصيص. كما أشار إلى ذلك كله الإمام القيصري في (شعب الإيمان) وأيضاً ففي كتاب (جواهر العقدين) للإمام السمهودي - رحمه الله - فيما يناسب ما هنا ما فيه كفاية فأمعن النظر فيه، فيتلو درجة الأنبياء والملائكة رتبة العلماء والأولياء، فأكابر العلماء والأولياء هم الصحابة، فهم الصادقون والصدّيقون، والمتقون والمحسنون، والمؤمنون حقاً وكل فضيلة ومنقبة

نسبت للعلماء والأولياء فلهم أفضلها وأجزلها. فاليسير من أعمالهم يفضل الكثير من غيرهم، فلا يعدل بهم غيرهم أصلاً. فالصدقه بمدّ أحدهم تفضل الصدقة بمثل جبل أحد ذهباً من غيرهم، والواحد المخصوص منهم لو وزن بجميع الأمة لرجح بهم؛ يعني بهذا الإمام أبا بكر الصدّيق - رضي الله عنه - لحديث ورد بذلك. فمن كان بهذه المثابة، وله هذه الرتبة، فلا تعدل به أحداً. ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ فأهل البداية من أهل الطريق تملكهم الأحوال وتبدو عليهم آثارها. وأما أهل النهاية كالأنبياء والأولياء، الأقوياء كالصحابة ومن يليهم؛ فإنهم يملكون الأحوال، ويشابهون العامة في الأفعال إلاّ في نادر الأحوال، فتفطن لذلك. وقد زجر العلماء زجراً شديداً عن الخوض فيما شجر بين الصحابة لحصول المفسدة في ذلك، وقد اختار غير واحد من علماء السلف - رحمهم الله - الإمساك عن التفضيل والتخيير بين من قد ثبت تخصيصه، والثناء عليه في الكتاب والسنّة، وتفويض العلم في ذلك إلى الله تعالى. ففضائلهم الواسعة الكثيرة في المثل كالبحر الزاخر، لا يزال طهوراً ولا يكدّره من القاذورات شيء كما أشار إلى ذلك بعض العلماء المحققين. فقال: الهفوات العارضة من الأكابر بالنسبة إلى الفضائل اللازمة الدائمة لهم كقطرة كدرة في بحر صاف فاعلم ذلك وافهم، واعط لكل حقه، واحفظ لكلٍ مرتبته وحرمته. فقد سئل الشيخ الكبير أبو يزيد البسطامي - رحمه الله ونفع به - عن نسبة رتبة الوليّ إلى رتبة النبيّ فقال: مثل ما حصل للأنبياء عليهم الصلاة والسلام كمثل زِق فيه عسل ترشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما حصل لجميع الأولياء. ومثل الزق مثل ما لنبينا عليه الصلاة والسلام. فافهم ذلك واحفظ لكل مرتبته وحرمته، وإيّاك والغلو بالهوىٰ والإفراط، واستقم في ذلك بالمتابعة على سوي الصراط، وتمسك بحبِّ الجميع، والتمس بركات الجميع، واعترف بفضل الجميع تظفر بالخير ويتلو هؤلاء رتبة الأولياء العارفين، أهل عين اليقين، والعلماء العاملين أهل علم اليقين. وهؤلاء هم ورثة الأنبياء والمرسلين، وقادة المسلمين والوسائط بينهم وبين رب العالمين. وبهم قامت مصالح الدنيا والدين. فالعالم فضله وشرفه على قدر شرف معلومه، فأهل المعرفة بالله

تعالى سادة أهل العلم وأفضلهم. قاله أهل التحقيق فعليك بهم وبحبهم، وحفظ حرمتهم. فتضييع الحرمة لمن لزمت حرمته معصية كبيرة، بل قد بالغ فيها بعض العلماء المحققين فقال: لو قال أحد لرجل عالم قد علم علمه وفضله يا أبله، زجر عن كلمته، وعزر عليها؛ هذا إن قالها على وجه المزاح، فإن قالها على وجه الإهانة له يكفر؛ لأنه احتقر ما عظمه الله تعالى وأوجب حرمته. فافهم وهذا الحكم جارٍ في جميع الحرمات المعلومات في الدين. فيا أخي اعتقد بقلبك تعظيم الحرمات كلها، وعوِّد لسانك وقولك الأدب في ذلك. وقد ورد: «من أحبَّ الله أحب القرآن، ومَنْ أحبَّ القرآن أحبني، ومن أحبني أحب أصحابي وقرابتي» ولا تتهاون باليسير من الشيء؛ فإنه ينجر إلى الكثير. قال الإمام الجنيد ـ رحمه الله ـ من فتح على نفسه باب نية حسنة فتح الله عليه سبعين باباً إلى الخير، ومن فتح على نفسه باب نية سيئة فتح الله عليه سبعين باباً من الشر. فاحذر من ذلك. ومما يلزم حقه وحفظ حرمته الوالدن؛ فيجب على الولد لهما البر والطاعة فيما لا معصية فيه لله تعالى، وطاعة العبد لسيّده والمرأة لزوجها كذلك فافهم. ففي الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» فمن أجلِّ الطاعات، وأجزل الحسنات برُّ الوالدين والوفاء بحقوقهما، والشفقة عليهما، والمبادرة فيما فيه رضاهما. ففي الحديث؛ «من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله عقوق الوالدين، وفي رضاهما رضا الله تعالى» كما ورد به الحديث، وقد قرن الله تعالى طاعته بطاعة الوالدين في كثير من مواضع القرآن، فقال تعالى: ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحساناً﴾ وقال تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ وقوله تعالى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾ وقوله تعالى: ﴿ولا تقل لهما أفٍ﴾ ونحو هذا وما أعظم هذا من دلالة على عظيم أمر الوالدين وتأكيد حقهما، والإِعتناء برضاهما، والإِحسان إليهما. ولو فعل الولد لهما من البر والإِحسان الغاية والنهاية لم يبلغ ما عليه لهما، ولم يقدر على مكافأتهما أصلاً. وقد بالغ بعض العلماء المحققين في وجوب طاعة الوالد على ولده فقال: لو دعا الوالد ولده وهو في الصلاة فتجب إجابته فيها، ثم قيل لا تبطل الصلاة بذلك، وقيل تطبل فافهم. وقد حمل أعرابي

والدته على ظهره وطاف بها وهو يقول: لئن حملتك على ظهري، وطفت بك أسبوعاً؛ فلقد حلمتني في بطنك تسعة أشهر؛ ولئن غذيتك بطعامي فلقد كنت بضعة منك وغذيتني بلحمك ودمكِ، واسقيتني بلبنكِ. فلا أقدر على مكافأتك، ولك الفضل عليَّ في كل حال. ولقد صدق ونصح بذلك فافهم. والزم يا أخي واعلم أن أجلَّ المراتب وأخصَّ المواهِب حصول نور الإِخلاص في قلب العبد، وعلى قدره التفاضل قال الله تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت﴾ الآية وقال رسول الله ﷺ: «لا يكمل إيمان عبدٍ حتى تجتمع فيه أربع خصال: أن يحب لله، ويبغض لله، ويعطي لله، ويمنع لله». الحديث فافهم يا أخي. وهنا مجال العبد العارف المحبوب المخلص، وهو الكامل المطلق الحر المخلص، وهو أعز من الكبريت الأحمر، وهو موضع نظر الله الواسع. فالتودد والتحبب إلى أمثال هؤلاء من أجلِّ القربات، والجفاء لهم والتهاون بهم من أقوى أسباب العقوبات. فقد قيل من شغل مشغولاً بالله عن الله تعالى أدركه المقت في الوقت. ويشير إلى سر الخصوصية ونورها قوله تعالى: ﴿الله نور السمٰوات والأرض مثل نوره ـ في قلب العبد المؤمن ـ كمشكاة﴾ كذا فسّره أهل التفسير وقيل أنه قرأ هكذا بعض القراء وقرأ أبي بن كعب: مثل نور المؤمن كمشكاة. نقله عنه أهل التحقيق. فتأمل هذه الآية بتمامها. قال الإِمام أبو بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ سلوا الله اليقين، والمعافاة فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين أفضل من المعافاة. وقد ورد الحديث بنحو ذلك. وسئل عليٌّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ عن وصف أولياء الله فقال: هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر؛ فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعره المترفون، واستأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحهم معلقة بالمحل الأعلى أوُلئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه. واشوقاه إلى رؤيتهم؛ فاحفظ يا أخي الحرمة، واحذر أن تدفع خصوصية الله فيمن لاحت عليه أمارات العناية، وظهرت فيه دلالة الولاية، تدفع عنه ذلك بسوء ظنك أو خيالك. فقد ورد الزجر الشديد لمن تعاطى ذلك قال له: هلا شققت عن قلبه حتى تعلم؟ قالها مخلصاً أم لا فافهم. روي أن الشيخ الجليل أحمد بن سهل الهيثمي ـ رحمه الله ـ

شكا على سيدنا الشيخ الكبير إبراهيم بن عبد الله هرمز ـ رحمه الله ـ وقال له يا سيدي؛ أما ترى الناس وإعراضهم عنا وعن إخواننا السادة والعارفين؟ وهل يفلحون مع هذا الجفاء؟ فقال له: يا أحمد احفظ للناس ما لهم عليك من الرحمة والشفقة؛ ولا تطلب ما عليهم إن فاتهم حقهم، فلا يفوتنا نحن حقنا إن شاء الله تعالى، والعارف يرى ما لا يرون؛ فيراهم معذورون. والعارف أحق بالإعذار والسعة من الجاهل فكيف وقد قال ﷺ: «طلب الحرمة من الجاهل محال والمرء عدو ما جهله» الحديث فقال له صدقت ما أحسنك من معلم فجزاك الله عنا خيراً. والعارف قد جاوز رؤية نفسه وأمنها، وغرق في بحور أنوار التوحيد والفنا، وهما مجاله وفيه مقره. والغالب عليه الهيبة فقد ورد: «لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» الحديث وقال الإمام ذو النون المصري ـ رحمه الله ـ العارف كل يوم أخشع؛ لأنه كل ساعة أقرب. وكان الفضيل بن عياض إذا لقي سفيان الثوري ـ رحمهما الله ـ يقول له: تعال يا أخي حتى نبكي على علم الله فينا؛ فيجلسان فيتذاكران فيه، ويبكيان ما شاء الله. ولله درّ من قال:

على قدرِ علمِ المرءِ يعظمُ خوفُه ... فلا عالم إلاّ مِنَ اللهِ خائفُ
وآمِنُ مكرَ اللهِ باللهِ جاهلٌ ... وخائفُ مكرَ اللهِ باللهِ عارفُ

ففي الخبر القدسي أوحى الله إلى بعض أنبيائه عليه السلام: قل لأهل طاعتي لا تأمنوا مكري؛ فلو وضعت عليهم عدلي لعذبتهم. وقل لأهل مخالفتي لا تقنطوا من رحمتي؛ فلو بسطت لهم رحمتي لغفرت لهم، ورحمتهم. واحرص على التعلق بأهل الله، والتشبه بهم، والتسمي بأسمائهم. ولقد أحسن من قال:

كفىٰ شرفاً أني مضافٌ إليكمُ ... وإني بكم أدعىٰ وأرعى وأعرفُ
إذا بملوكِ الأرضِ قومٌ تشرفوا ... فلي شرفٌ منكم أجلُّ وأشرفُ

واعلم يا أخي أن الله بحكمته ورحمته جعل المؤمنين كلهم كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد إن اشتكى منه عضوا تداعت إليه سائر أعضاء

الجسد بالسهر والحمى الحديث. وقال رسول الله ﷺ: «من آذى مؤمناً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله. لا يبال به في أي وادٍ أهلكه» الحديث فافهم يا أخي اشتباك المؤمنين بعضهم مع بعض، وتواصلهم كالسلسلة الواحدة. إذا حركت أسفلها حركت أعلاها. فاحفظ حرمة الإيمان في أهله كلهم خصوصاً وعموماً. فأهل الإيمان متعاونون متواصلون في الدنيا والاخرة، سبقت الكلمة بهذا وقامت الحكمة على هذا فبالمعاون الذي أشرنا إليه انتظمت الحكمة والمصلحة في الدنيا والاخرة. فالكل نعمة على الكل. قال الشيخ الكبير عمر بن محمد بن حميد اليمني - رحمه الله - في رسالته في ذكر انتظام المصالح بالجمله. فقال لولا السلطان لهلكت العباد، وخربت البلاد. ولولا التجار لهلكت الأموال، ولولا العلماء لتعطلت الأحكام، واختلطت المعايش، وخرب الدين. ولولا الصالحون لاذلَهَمَّ الظلامُ، وتزلزلت قواعد الإسلام، وأهلِكَ السلطان والعمال، واظلمت الدنيا وتخشخشت أراجيف يوم القيامة. فالسلطان قائم بزمام الإسلام والمسلمين، والعلماء قائمون بإظهار الدين، وللحق والباطل مبينين، والتجار قائمون بجمع الأموال للسلطان وللناس أجمعين، والمسلمون وأهل الحرف متعاونون. والصالحون قائمون بالكل. ولولا قيامهم بهم ما قامت هذه الأشياء. وحكي أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي - رحمه الله - رأى ربّه في المنام فقال له: يا أبا الحسن إشكر لي على نعمتي عليك، كأني لم أنعم على غيرك. قال فقلت: يا رب كيف هذا وقد أنعمت على أنبياء وعلماء وملوكٍ؟ فقال لولا الأنبياء لما اهتديت، ولولا العلماء لما اقتديت، ولولا الملوك لما أَمنت. فالكل نعمة مني عليك فافهم. فينبغي للعاقل أن لا يهمل الشكر لله على نعمه كلها في دينه ودنياه وغيرها؛ فبهذا تتواتر عليه النعم، وتندفع عنه النقم، ويلاطفه الله تعالى في جميع أحواله، وتفهُّم الحكمة لله في كل الأشياء؛ فإنه لم يخلق شيئاً عبثاً. فاستعمل كل شيء فيما له من الحكمة والمصلحة، واحتذر أن تغير ما فيها من النعمة، وتبطل ما لها من الحكمة فتمقت من حيث لا تشعر. فقد ورد: أن رجلاً من بني إسرائيل ركب على ثور له، فالتفت الثور إليه ثم قال: فلان لم اخلق لهذا؛ إنما خلقت لحراثة الأرض. فتأمل ذلك واعلم أن من أجلِّ الرتب

منفعة الناس في دينهم ودنياهم، والنفع في الدين أهم وأقدم من النفع في الدنيا. والكل مطلوب ومرغوب فيه جداً. قال رسول الله ﷺ: «خير الناس أنفعهم للناس». وقد ورد: «إذا عظمت على عبد نعمتي عظمت مؤنة الناس عليه» الحديث. وعناية الله بعبده القائم بحوائج خلقه عظيمة، وملاطفته به كثيرة، وصفحه عن سيئاته مبذولة فافهم واحفظ لكل رتبته، واعرف قدره وأعطه شكره. وقد ورد في ذلك: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» وكفى بهذا فضلاً ولطفاً. وهذا حاصل في إعانة واحد من عامة المسلمين. فما ظنك بالخاصة وكفاية ما يهمهم ويشغلهم، فقد قال الشيخ الجليل السهروردي ـ رحمه الله ـ قلوب الأبرار لا تحتمل الانتظار يعني أنهم لما قطعوا العلائق، ورفعوا همّتهم عن الخلائق، وكان نظرهم وهمّهم جميعاً على الخالق؛ فإذا عرض لهم شاغل تدعو إليه ضرورة الجسم الطبعي تسارعوا إلى قطعه بكل حيلة، ولم يحتملوا التواني في أمره، والانتظار لحصوله في ثاني الحال، بل تضيق صدورهم عن أمثاله؛ فإذا انقطع عنهم ذلك الشاغل، وسكن همهم عن ذلك العارض استمر لهم صفاء القلوب، وفاض عليهم من لطائف الغيوب. وهنا تأنسها وتوطنها. وفي العارض توحشها وتشوشها فقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالاخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ يشير إلى أن المؤمنين إذا ذكر الله وحده استبشروا، وإذا ذكر غيره من الأسباب والوسائط العالية والدانية اشمأزوا، وضاقت به صدورهم. فقد أشار إلى نحو ما ذكرناه في الآية الإمام أبو طالب المكي ـ رحمه الله ـ فافهم واحرص يا أخي على تصحيح إيمانك، وترسيخ يقينك بتأكيد عقائدك في الدين وأصول الإيمان، وعلم أحكام الشريعة وحفظ الحرمة والمراتب لأهلها، واعلم أن لكل جمادٍ وحيوان صلاةً وتسبيحاً بنص القرآن، «كل قد علم صلاته وتسبيحه» فيجب على كل مؤمن الإيمان بذلك، وتفويض علمه إلى الله تعالى. وفي الحديث: «أنزلوا الناس منازلهم، واعرفوا حقوقهم بالحق والميزان العدل من غير زيادة ولا نقصان». قال الله تعالى: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ولا تطغوا فيه﴾ فتفطن لهذا فإذا ألهمت معرفة ذلك، وحفظت الحرمة لها فنرجو لك من الله المغفرة والنفاعة

والشفاعة من أهل القرب والوجاهه. فقد ورد في الأخبار النبوية بثبوت الشفاعة لمن له مكانه عند الله وحرمة من الأنبياء والملائكة والعباد الصالحين بل ولشعائر الدين. فقد ورد: أن الصلاة لها شفاعة لمن حفظها وأحسنها. والجمعة كذلك، والكعبة كذلك، وكذا القرآن يشفع لأهله، وهو أكرم الشفعاء عند الله. وقس على هذه سائر الحرمات كلها المأمور بحفظها وتعظيمها. فاعلم مراتبها، والتزم تعظيمها واعط لكلٍ حقه، واعرف قدْره، واستقم في ذلك على سواء الصراط بالمتابعة من غير تفريط ولا إفراط، فاعتمد في كل الحق بما عليه أكثر الأمة وجمهور الأئمة؛ فإن الجماعة رحمة، واترك الشواذ فقد ورد: «يد الله مع الجماعة» وقد ورد: «الجماعة من كان على ما أنا عليه وأصحابي» فتمسك بذلك. قال الإمام النووي - رحمه الله - من قال إن علياً كان أحق بالولاية من أبي بكر وعمر فقد خطّأ. أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار - رضي الله عنهم - أجمعين، وما أراه يرتفع له مع هذا عمل إلى السماء. فتأمل ذلك، واحفظ لأمثال هؤلاء حرمتهم، وانزل كلاً منزلته، وأعطه حقه، واحتذر من الفساد والهوىٰ في الاعتقاد؛ فإن الوقوع في أمثال هؤلاء ليس بالهين كما قد ذكرناه، وبالسداد في الاعتقاد يرجى لصاحبه كل خير في الدنيا والآخرة، وعن محمد بن سعد - رحمه الله - وغيره أن أبا بكر الصدّيق - رضي الله عنه - كان يحلب لأهل الحي منائحهم؛ فلما استخلف قالت جارية من الحيّ الآن لا يحلبُ لنا. فبلغ أبا بكر قولُها فقال: بل لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه من خلُقٍ كنت عليه. فكان بعد الخلافة يحلب لهم منائحهم. فقيل إنه أقام سنة يحلب لهم. قال أبو حازم - رحمه الله - لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم التابعي - رحمه الله - أربعين فقيهاً أدنى خصلة فينا التواسي بما في أيدينا، وما رأيت فيه متمارين ولا متنازعين في حديث لا ينفعهما، وكان يقول: لا يريني الله يوم زيد، وقدمني بين يدي زيد أنه لم أجد أرضى لنفسي وديني غيره. وكان يقول: اللهم إنك تعلم أني أنظر إلى زيد فأدركن بالنظر إليه القوة على عبادتك. فكيف بملاقاته ومحادثته، وكانت أسماء بنت أبي بكر الصدّيق - رضي الله عنها - يصدع رأسها كثيراً، فكانت إذا صدع تجعل يدها على رأسها وتقول: بذنبي وما يغفره أكثر انتهى.

فَائِدَة

جَامِعَة لفنُون مِنَ الفوَائد النّافِعَة مِن مجَامِع الحِكَمِ وَجَوامِعِ الكَلِم من كلمَات النّبوّة ونحوهَا وفي التّحذِير مِن تَضيِيع العُمر وتَسوِيفِ الوَقتِ

قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» حديث صحيح. فخذ من صحتك قبل مرضك، ومن فراغك قبل شغلك، ومن حياتك قبل موتك. فقد ورد الحث على ذلك؛ فإن فرّطت في أمرك، وضيّعت نفسك خسرت. وإن سوّفت وقتاً بعد وقت ندمت. ولا تغني الندامة شيئاً. قال الشيخ الجليل أبو النجيب السهروردي البغدادي ـ رحمه الله ـ من أراد أن يثبت له قدمٌ في طريق الحق، فليبدأ بترك المحرمات، ثم ترك الشبهات، ثم ترك الشهوات، ويعطي النفس حقها، ثم يمنعها حظها. وهو ما تشتهيه من الفضولات والشهوات؛ فإذا منعتها حظها ذللت وانطاعت، وقَوِيَ القلب عليها. ويقتصر على ذِكْرٍ واحد، ويدوم عليه حتى يخرج على لسانه بغير اختياره. وأنفعها تأثيراً وتنويراً ذكر لا إله إلاّ الله بالتدبر والحضور؛ فإذا واضب على ذلك انفتح له من الغيب ما تقع به السعادة له إن شاء الله تعالى، فإذا رأى ما يزعجه في دينه أو بدنه فيطلب من الغيب الخلاص، فيحضر له في الوقت ما يخلصه إن شاء الله تعالى لا رب غيره، ولا قوة إلاّ به. فالخاطر إن دعاك إلى توحيد الحق بذكره وشكره فَرَبّانيّ، وإن دعاك إلى أعمال البرّ واجب أو مندوب فملكيّ، أو إلى منهي أو محرم أو مكروه فشيطاني، أو إلى شهوة فنفساني. فبادر إلى فعل الواجب والمندوب، وإلى ترك المحرّم والمكروه. وأما الشهوة الملجية فاترك منها ما مال إليه الهوىٰ وحديث النفس. ففيه المكيدة، والسلامة في مجاهدة النفس ومخالفة هواها فافهم. وقال الشيخ الجليل إسماعيل بن محمد الحضرمي ـ رحمه

الله ونفع به ـ: خير الرفقاء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأسرارهما قد أودعت قلوب مشايخ الإسلام، فكن كلب دارهم، وصيد فريقهم، تحظ بسلوك طريقهم. فحظ الجبان من الحكم الاستماع، وحظ الشجاع التحقق بها والاتباع. والمتعرض مدرك وإن طال المدى، فلا تضجر من الطلب، ولا تسأم أبداً. من تشبه بقوم فهو منهم، ومن مات على دين فريق حُشر مع أهله. هم القوم لا يشقى بهم جليسهم، وقد نفع الله الكلب بصحبة أهل الكهف في الدنيا. وورد أنه يدخل الجنة معهم كرامة لهم، وليسوا بأنبياء وإنما هم من الأولياء فتأمل ذلك. وأورد شهاب الدين السهروردي في عوارفه حديثاً قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي جعلت همّه ولذته في ذكري، فإذا جعلت همّه ولذته في ذكري عشقني وعشقته، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه، لا يسهوا إذا سها الناس. أولئك كلامهم كلام الأنبياء. أولئك الأبطال الأبدال حقاً أولئك الذين إذا أردت بأهل اللأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتهم فيها فصرفت بهم عنهم». قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ لولا الأبدال لخسف بالأرض ومن عليها. وقال الشيخ إسماعيل الجبرتي ـ رحمه الله ـ يصل المتأخرون باليسير من العمل إلى ما لم يصله المتقدمون بالكثير من العمل. وقال الشيخ الكبير داود بن عمر الشاذلي ـ رحمه الله ـ مِنْ أعظم مواهب الله لعباده بعد الإيمان به وبحرماته الإيمان بنور الولاية في خلقه، سواء شهدها في نفسه أو في غيره. وقال أيضاً: لا تبع ذرة من المحبه لله أو في الله بقناطير من الأعمال؛ فإنها من أنفس الذخائر وأسناها لحديث: «المرء مع من أحب» ومِن أدل الدلائل على وجوب حفظ الحرمة لحرمات الله تعالى كلها والتحذير من تضييعها والتهاون بجانبها قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم. يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ والآية الأخرى. فتأمل ما هنا والحق واحد، وأهل الحق رحم واحدة واصلة وسلسلة متواصلة. قال الإمام أبو الحسن محمد البكري ـ رحمه الله ـ وهو من أهل العصر: قال جمهور أهل الطريق فتح عليهم بدوام التصديق، حتى استحق أكثرهم

اسم الصدّيق. فإنه أصل الإسلام والولاية، لولاه ما قنصت العلوم والأسرار والهداية، فاحتذر يا أخي من الإنكار، فإنه شؤم الهلاك. واعتصم بحبل التصديق فيما أخبروا به، ولا تستبعد ما استغربه عقلك؛ فإن القدرة لا يعجزها شيء، والحق على كل شيء قدير، والأكمه وإن لم يعرف القمر، والمزكوم وإن لم يشم العنبر لأجل نقص الحاسه منهما فلا ينبغي لهما أن يجحدوا وجود ذلك، ويتوهما أن الفقد منهما لنقص في الكمال لذلك، ويدفعا وجدان سليم الحاسة لذلك، والتهاجه وشغفه به ودعواه لذلك. فتأمل ما ذكرناه ترشد إن شاء الله تعالى. وقال أيضاً صقل مراءة القلب أعظم ما وصل به إلى الرب وقال أيضاً سكوتك عند لقاء الخير، وفتح أذنيك عند لقاء الشر دليل على أنك من الأشرار، وبضده دليل أنك من الأخيار. فاحرص يا أخي على مجالسة العلماء العارفين وعباد الله الصالحين. فالنظر إليهم عبادة، ومجالستهم رحمة، وكلامهم حكمة. رب أشعث أغبر ذو طمرين مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرّه الحديث. واعلم أن الرحمة تنزل، والمغفرة تحصل في مجالس الذكر، وعند نشر سيرة عباد الله الصالحين ومناقبهم. قال الفقيه الجليل محمد بن أبي بكر عباد ـ رحمه الله ـ لو لم يكن في ذكر الصالحين إلاّ غفران الذنوب. فانظر إلى هذه الفائدة الجليلة التي عدها بالنسبة إلى فوائدهم الجزيلة، وجعلها قليلة. قال الأستاذ أبو علي الدقاق ـ رحمه الله ـ لو أن وليّاً من أولياء الله تعالى مرّ ببلدة لشملتهم بركة بمروره حتى يغفر الله لجميعهم، ولله درّ من قال:

كفىٰ شرفاً أني مضافٌ إليكمُ ... وإني بكم أدعى وأُرعى واعرفُ
إذا بملوكِ الأرضِ قومٌ تشرفُوا ... فلي شرفٌ منكمْ أجلُّ وأشرفُ

فدعاء الصالحين يصل إلى ذرية المدعو له، وتعطف خواطرهم على العباد. يرحم الله بهم العباد، وتُغاث البلاد. ولله درّ من قال:

بأنفاسهِم نالَ المُنى كلُّ طالبٍ ... ومَنْ ربه يُعطي الوسيلة والقربا
فإن عند خوفٍ استغاث أمرء بهم ... أُغيث وعاد الضيقُ من إجلهم رحبا

فقد قال بعض الأكابر ـ رحمه الله ونفع به ـ إنا نرد ما سومتنا

ولو بالصين. يعني أنا نحمي محبنا ومحسن الظن بنا حيث كان، وكن قوي الرجاء لحصول النفع منهم، متبركا بآثارهم وملابسهم. قال القطب الشيخ عبد القادر الجيلاني - رحمه الله ونفع به - أيما امرؤ مرّ على باب مدرستي خفف الله عنه عذاب يوم القيامة، فما ظنك بالصحبة لهؤلاء، والمجالسة والنظر والخدمة والحب؟ ولقد أحسن من قال:

خليليّ هذا ربعُ نعمانَ فاعقِلا قَلوُصيكما ثم احلِالاَ حيث حلتِ
ولا تيأسَا أن يغفرَ اللهُ ما مضىٰ إذا انتما صليتما حيثُ صلتِ

وقال الإمام شاه بن شجاع الكرماني - رحمه الله - ما تعبد متعبد بأفضل من التحبب إلى أولياء الله تعالى. وقال الشيخ الكبير عبد الرحمن بن على بن أبي بكر علوي؛ من اعتقد الصالحين وصحبهم يحصل له من أذواقهم وأحوالهم في حياته ولو بعد حين، فاحفظ يا أخي حرمة الله في عباده تظفر بالخير بل ترجى نفاعتهم وشفاعتهم لكل مؤمن سلم عن الإنكار عليهم، والبغض لهم كما ذكره أهل التحقيق. فمن عباد الله الصالحين أهل التقوىٰ والسر واليقين المشهور والمستور المحترف والمتجرد والمختلط والمنفرد، ولهم البشرية وطبائع كالبشر، ولهم خصوصية من الله ومزية. فاحفظهم حيث كانوا وبكل حال تظفر بالخير إن شاء الله تعالى. وفقنا الله وإيّاك. آمين. وعليك بالخدمة لهم، وبذل الإرفاق لهم. قال الشيخ الكبير الهمداني - رحمه الله - في (زبدة الحقائق) والسعاده كل السعادة أن تبذل الخدمة لرجل واصل إلى الله، قد اجتباه إليه. تخدمه بنفسك ومالك وكليّة روحك؛ فبهذا تنال القرب من الله والمكانة عنده، وقد صح أدركنا بذلك ما لم ندركه بعلومنا وأعمالنا فالزم وقال ﷺ: «الخادم في أمان الله عز وجل ما دام الخادم في خدمة أخيه، وللخادم في الخدمة أجر الصائم القائم بالليل، وأجر المجاهد في سبيل الله، وللخادم كأجر من يخدم». فافهم وهذا حاصل في خدمة عوام المؤمنين. فكيف في خدمه خواصّهم؟ وفي هذا كفاية للسعيد الموفق. وحكى لي الأخ الفقيه الصالح محمد بن أبي بكر باقشير - رحمه الله - قال: ذكر الإمام محمد بن محمد الغزالي - رحمه الله - في بعض كتبه أنه طلب من بعض المشايخ المرّبين أن يجعل له وظيفةً منه

وخدمة يخدم بها الشيخ، فقال له الشيخ قد أخذ أصحابنا حوائجنا وخدمتنا، لكل واحد منهم وظيفة من خدمتنا يقوم بها هذا للماء، وهذا للحطب إلى آخرها. ولم يبق من خدمتنا إلاَّ من يغسل أحجار المستراح للاستنجاء. فقال الغزالي: يا سيدي اجعل لي خدمة أحجار الاستنجاء، فجعلها إليه فلزم ذلك كلما تلوثت تلك الأحجار بالنجاسة نظفها وغسلها. وما فقد منها أبدله بغيره، والتزم هذه الوظيفة مغتبطاً بها، وبارك الله له فيها، وأتته الأمداد بسببها ودام عليها حتى نقله شيخه عنها إلى غيرها. فتأمل يا أخي هذه الفائدة وسلم نفسك لله وللعارفين به. فهم الأمناء العرفاء بمضارك ومنافعك، واحذر تخالف وتفرط تندم. ولله درّ من قال:

ليتني للقومِ عبدٌ أو نزيلٌ أو غلام
فنزيلُ القومِ كلاً لا يُضامُ ولا يضام

وعليك يا أخي بالحبّ لله والمحبة فيه؛ فإنها رتبة عظيمة. روي عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله ﷺ: الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم، قال: «أنت يا أبا ذر مع من أحببت». قلت: إني أحبُّ الله ورسوله. قال: «فإنك مع من أحببت». وروي عن أنس مرفوعاً بنحو ذلك قال: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام كفرحهم بهذا. فاحرص يا أخي على محبة عباد الله الصالحين، والتشبه بهم، فإنه ما اختار أحد التشبه بهم دون غيرهم إلاّ لمحبته إيّاهم والمرء مع من أحب الحديث. فمحبة أهل الصلاح شافعة نافعة لمن أحبهم في الله تعالى ولله ومات على ذلك. فإن المرء يبعث على ما مات عليه ولله درّ من قال:

لك الهنا إن حلَّ فيك ذرة مِنْ حبّهم أو لاحَ منك خطره
في ذكرِهم ما أعظم المسره طوبى لقلبٍ حلَّ حُبّهم فيهْ

واعلم أن سلامة الصدر على المسلمين وعافيته عن اضمار السوء والغِش والسخيمة على أحد منهم مرتبة عظيمة، ومنقبة جسيمة فاحفظ الحرمة لهم. روى أنس - رضى الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني إن قدرت

أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل يا بني فذلك من سنتي ومن أحيا سنّتي فقد أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنّة» الحديث وقد ورد: «أفضل المؤمنين كل مخموم القلب، صدوق اللسان، قيل ما مخموم القلب؟ قال النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل ولا حسد، ثم يليه الذين شنِئوا الدنيا وأحبوا الآخرة، ثم يليه مؤمن في خُلقٍ حسن. والخم بالمعجمة الكنس والتنقية. فالقلب السليم، والنفس الزكية، والطبيعة الطاهرة أدرك صاحبها بها مراتب الأبدال من غير عناء ولا صيام ولا قيام. فعليك بمجالستهم والدَوْبَ في ذلك عسىٰ أن تقتبس من أنوارهم وتنال من شمائلهم، وأرغبْ فيها بقلبك، ولا تلهو عنها بغيرها. «فالمرء من جليسه» الحديث. فقد حكي عن بعض المشايخ الكبار العارفين بالله تعالى أنه كان في مجلسه جماعة من أصحابه، فسمع رجلاً منهم مشغولاً بأوراده من الذكر والتسبيح ونحوه، فزجره وقال له: يا فلان لا تشتغل عندنا في مجلسنا بما يشغلك عنا. افعل ذلك في بيتك وخلوتك. فتأمل فقد يشكل هذا على من لا معرفة له، ولا علم عنده، وليس بمشكل فقد قال الأئمة من العلماء كالإمام الشافعي وغيره إن استماع العلم وتعلّمه أفضل من صلاة النافلة. وفي رواية: تعلّم العلم أفضل القربات بعد الفريضة. فالإشتغال عنه بغيره تفريط في الفضل؛ فإن يكن في مجلس العالم فهو أشدُّ وهو دلالة الجهل، وسوء الأدب فمراعاة جبر قلب الأستاذ، وحفظ ودّه ولو في حال سكوته عن التعليم والتذكير أولى وأفضل. وفي الإعراض عنه من الجفاء وقلة المبالاة به ما لا يخفى، والاستراحة عن التعليم بسكوته أو كلام لعود النشاط ودفع الملل مندوب إليه. فالموافقة للأستاذ في ذلك ونحوه أهم وأقدم، وينبغي لكل عاقل أن يفهم حكمة الله فيما صنع، ويجري مع تدبيره للأمور وترتيبه لها كما أتقن وأبدع. قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره في حكم النعم والشكر عليها قال: فنعمة وصلت إلينا من جهة غير الله في ظاهر الأمر، وفي الحقيقه فهي إنما وصلت من الله تعالى، وذلك لأنه تعالى هو الخالق لتلك النعمة، والخالق لذلك المنعم، والخالق لداعية الإنعام بتلك النعمة في قلب ذلك المنعم، إلاّ أنه تعالى لما أجرى تلك النعمة على يد ذلك العبد كان ذلك العبد مشكوراً، ولكن

المشكور في الحقيقة هو الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾ فبدأ بنفسه، وختم تنبيهاً على أن الكل منه إليه انتهى. قال الله تعالى: ﴿هو الأول والاخر والظاهر والباطن﴾ فبدأ بذكره قبل كل مذكور، وبدا بشكره قبل كل مشكور. قال تعالى: ﴿واتبع سبيل من أناب إليّ ولا تكن من الغافلين﴾. وقد ندبت الشريعة إلى شكر الوسائط والوفاء بحقوقها. فالمؤمن القوي الإيمان يقوم بالحق، ويتصف قلبه بالحقيقة، ولا يكون من أهل الغفلة الذين لم يفهموا القسمة ولم يعلموا مراتب الحكمة؛ فحجبتهم الوسائط والأسباب عن المشاهدة باليقين لنور رب الأرباب. قال الله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ وقد ورد: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» وورد أيضاً: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير» قال الإمام مغلطائي في شرح البخاري يعنى من كان طبعه كفران نعمة الناس، وترك شكرهم كان من عادته كفر نعمة الله تعالى وترك الشكر له. وقيل إن الله لا يقبل شكر الشاكر له إن لم يشكر الناس. انتهى فافهم ما ذكرناه، وتعرض لنفحات الله تعالى بدوام ذكره وشكره، وملازمة طاعته واجتناب معصيته، واعكف على بابه وألح في الدعاء عليه. فمن لجّ ولج. ولله درّ من قال:

لما لزمتُ قرعَ بابِ الله ... كنتُ المراقبَ لَمْ أكنْ باللاهي
حتى بَدتْ للعينِ غرةُ وجهِهِ ... وإلى هلم لم تكن إلاّ هي

وقال الآخر:

إذا كانَ عونُ اللهِ للمرء ناصراً ... تأتّى لَهُ مِنْ كلِّ شيءٍ مرادُه
وإن لَمْ يكن عوناً من اللهِ للفتىٰ ... فأول ما يجني عليه اجتهادُه

وقال غيره يشير إلى وقت الظفر بالمراد وطيبه شعر بعده:

ألا إن وادي الجزعِ أضحى ترابُه ... من المس كافوراً وأعواده رندا
وما ذاكَ إلاّ أن هنداً عشية ... تمشتْ وجرتْ في جوانبه بردا

وقال رسول الله ﷺ: «كلٌّ ميسرٌ لما خُلق له» قال الإمام أبو الوفا

الشاذلي ـ نفع الله به ـ من لم يجد قلبه منبعثاً إلاّ لأمر ما، ولم يجد جسمه نشطاً إلاّ في أسباب حصوله؛ فليعلم أنه لم يخلق في القدر السابق إلاّ له خيراً كان أو شراً. ففي صورته يقطع دنياه، وإلى حقيقته تصير أخراه. فاشرفُ منال، وأجلُّ رتبة من لم يخلق إلاّ لله وحبه وقربه. فهنيئاً لهم وطوبى. قال الإمام سهل التسترى ـ رحمه الله ـ لا يدخل النور قلب من عصىٰ الله. وقال ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت؛ فإنك مفارقه. واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وعش ما عشت فإنك ميت» الحديث وفي الأثر: القدسي يقول الله تعالى: «أهل ذكري في كرامتي، وأهل شكري في زيادتي، وأهل معصيتي مرضاء، وأنا طبيبهم؛ فإن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا أؤدبهم بالمصائب حتى أطهرهم بها من المعائب». فإذا فهم هذا فالعبد المؤمن لا يكره المصائب بل يحبها. فكل عبد وإن بلغ في التقوى الغاية فلا يخلو عن هفوات تصيبه الفينة بعد الفينة. وكما قد ورد ذلك في الحديث: «من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله» وهذا مجال أهل التقوىٰ، وعنوان أهل السعادة. فانصح يا أخي لنفسك، وليكن ظنك بالمسلمين حسناً. فالخير كله في التقوىٰ، والعاقبه للمتقين. قال الفقيه الورع محمد بن علي الحنفي السمرقندي ـ رحمه الله ـ قال مشايخنا وعلماؤنا: إن العبد التقي الحافظ لحدود الله غير أنه مسترسل في الشهوات الحلال كالماشي على رجلين من خشب، والمتقى المجاهد نفسه المخالف لهواه على قانون الشريعة كالماشي مستوياً على رجليه، والذي حصل له مع ذلك فتح من الله في قلبه وعون. ومدد كالذي أعطي مع ذلك جناحين يطير بهما، ﴿وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ فافهم ولم يذكر المخلط في عمله وهو كمريض الجسد مرضه بقدر أخلاطه، وعوده إلى الصحة بعلاج التوبة بشروطها. فافهم وقال ﷺ: من كانت له سريرة صالحة أو سيئة نشر الله عليه منها رداء يعرف به. فتأمل ذلك يا أخي. وقد يستر الله على عبده ليرجع إليه ويصلح فيما بينه وبينه؛ فإن أصرَّ على الذنب فضحه وهتك ستره بين الملأ

كما ذكره في الحديث. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الجن ثلاثة أصناف: صنف كالحيات وخشاش الأرض، وصنف كالريح في الهوىٰ، وصنف عليهم الحساب والعقاب. وخلق الله الإِنس ثلاثة أصناف؛ صنف كالبهائم، وهذه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ حتى قال: ﴿أولئك كالأنعام﴾ وصنف أجسادهم أجساد بني آدم، وأرواحهم أرواح الشياطين. وهذه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿شياطين الإِنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ وصنف في ظل الله يوم لا ظلّ إلا ظله. وهذه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ الآية. وقد ورد أن الملائكة عقل بلا شهوة، والبهائم شهوة بلا عقل. والإِنس والجن عقل وشهوة فمنهم من يغلب عقله على شهوته فيلتحق بالملائكة ومنهم من تغلب شهوته على عقله فيلتحق بالبهائم. فافهم يا أخي منازل الخلق، فإن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة. فالمعدن الخالص والأصل الطيب لا ينتج من القول والفعل إلاّ الطيب. ولله درّ من قال يشير إلى الفتوة والحرية:

وَلو أنني أسعى لنفسي وجدتني ... كثيرَ التواني في الّذي أنا طالبه

ولكنني أسعى لأنصح صاحبي ... وشبع الغني عاراً إذا جاع صاحبه

واعلم أن أم الخبائث ومجمع الرذائل حبّ الدنيا بأنواعها فبالزهد الصحيح فيها تتيسر لصاحبه الخلق الحسن، والقلب السليم، والدين السهل، والعلم اللُّدني النوراني، والعبادة الخالصة، ويدرك بذلك مراتب الأبدال كما ذكره المحققون إذ قد ورد: الدنيا والآخرة ضرتان وحبهما في القلب لا يجتمعان، وإنما يحصل حبُّ الله لعبده بزهده في الدنيا «أزهد في الدنيا يحبك الله» الحديث. وقال الإِمام الشافعي ـ رحمه الله ـ من ادّعى أنه جمع بين حب الله تعالى وحب الدنيا في قلبه فقد كذب. وقال رسول الله ﷺ: «من أصبح والدنيا أكبر همّه فليس من الله في شيء. وألزم الله قلبه أربع خصال: همًّا لا ينقطع أبداً، وشغلاً لا يفرغ منه أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً». ولله درّ من قال:

محبةُ الدنيا بلا وفتنةٌ ... وجامعُ الدّنيا ملان محنة

وهـمّ دائـم يـا فـتـى وشـحـنـةٌ في سجن الأقذار الخسيس محبوس

وقال ﷺ: «من طلب الدنيا مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر». فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد والنية، وهما في السعي والكسب سواء. فاحرص يا أخي على الزهد فيها، وارفع قلبك وهمتك عن الرغبة في هذه الجيفة القذرة الخسيسة الدنية، التي لا يعكف عليها إلاّ خسيسُ الهمّة شبيه بكلاب الجيفة ولله درّ الإمام الشافعي - رحمه الله - حيث قال:

ومن جهل الدنيا فإني طعمتها وسيق إلينا عذْبُها وعذابُها
فلم أرها إلاّ غروراً وباطلاً كما لاحَ في أرض الفلاةِ سرابُها
وهل هي إلاّ جيفةٌ مستحيلةٌ عليها كلابٌ همّهن اجتذابُها
فإن تجتنبها كنتَ سلماً لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابُها

وله أيضاً يشير إلى طيب وقت القانع:

فبالقناعة تسلم عن الافات الطاعة
أفادتني القناعة كلَّ عزٍ وأيّ عزًّا أعزُّ من القناعة
فصيِّرها لنفسك رأسَ مالٍ وصيِّر بعدها التقوىٰ بِضاعة

ولله درّ الإمام القشيري - رحمه الله - حيث قال:

إذا شئت أن تحيا حياةً هنيةً فنقِّ مِن الأطماعِ ثوبَك واقنعْ
وإن شئتَ عيشاً لا يفارق ذلةً فعلِّق بمخلوقٍ فؤادك واطمعْ

واعلم أن الفقر وخلو اليد من الدنيا مع القناعة به من محاسن الصفات، ومجامع الخيرات، وبه تحصل السلامة عن جملة الآفات فعليك يا أخي باختياره والمصابرة عليه. قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بالعبد يوم القيامة فيتعذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزتي ما زويت عنك الدنيا لهوائك عليّ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضل اخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف فمن أطعمك أو كساك يريد بذلك وجهي فخذ بيده. والناس قد ألجمهم العرق فيأخذ بيد من له يدٌ عنده».**

واعلم أنّ الشفاعة على قدر الجاه والمنزلة عند الله تعالى لا على قدر الجاه والمنزلة عند الناس. فقد روي أن أويس القرني يشفع في مثل ربيعة ومضر. وقد كان في عصره من أخمل الناس ذكراً لا يعرفه بالصلاح إلاّ النادر. فافهم يا أخي واعرف رتبة الفقر، واحفظ حرمته. والحذر الحذر من احتقار أهله فما أسرع العقوبة لمن احتقرهم عاجلاً وآجلاً. قال رسول الله ﷺ إذا أبغض الناس فقراءهم، وأظهروا عمارة الدنيا وتكابوا على جمع الدراهم رماهم الله تعالى بأربع خصال: بالقحط من الزمان، والجور من السلطان، والخيانة من ولاة الأحكام، والشوكة من الأعداء». فافهم يا أخي وانصح لنفسك. فهذه الخصلة القبيحة التي أشرنا إليها قد عمت في هذا القطر على أهل العصر، وهي آفة ضارة مضرة بها آثروا الدنيا على الآخرة، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل. وهذه الافة إنما حدثت واشتهرت في هذه الجهة. وقال الإمام الشعبي: من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقه أحوج من الفقير إلى صدقته. فقد أبطل صدقته وضُرِب بها وجهه. فتفطن لذلك. وقد كان السلف من أهل الثروة والعقل والمروءة معترفون بفضل الفقر، ويكرمون أهله، ويتخذون عندهم الأيادي، ويغتبطون بالإحسان إليهم، ويقولون نحن المخلطون الملطخون بالرذائل، فعسى أن يدركنا الله بشفاعتهم. وليس معنا ذخيرة من أموالنا أحسن مما إتخذناه عند الفقراء. ولقد صدقوا ونصحوا نفوسهم. وهذه مرتبة أهل العقل والثروة ويرتجى لهم بذلك من الله الرحمة والمغفرة، فانعكس اليوم الحال والله المستعان ولله درّ من قال:

قل التقى والدينُ والأمانةُ ... زاد السَّفَه والبغي والخيانة
ولا لموضع محترمٍ صيانةٌ ... والحقُّ ساقط بينهم ومرهوس

فالله الله يا أخي تناول ما قسم الله لك من الرزق، وخذه بالقناعة والسماحة وقِلّ الحرصُ وفي الخبر القدسي يقول الله تعالى: «يا ابن آدم إن رضيت بما قسمتُ لك أرحت بدنك وقلبك وأنت عبدي محموداً وإن لم ترض بما قسمت لك سلطتُ عليك الدنيا تركض فيها كركض الوحش في البرية، ثم وعزتي وجلالي لا تنال إلاّ ما قسمت لك، وأنت عندي مذموم».

ولله درّ الإمام الشافعي حيث قال:

فما شئت كان وإن لَمْ اشأ ... وما شئت إن لم تشأ لم يكنْ
خلقت العباد على ما علمتْ ... ففي العلمِ يمضي الفتىٰ والمسنْ
فمنهم شقيٌ ومنهم سعيدْ ... ومنهم قبيحٌ ومنهم حسنْ
على ذا مننتَ وهذا أهنتْ ... وهذا أعنت وذا لم تعنْ

وقال رسول الله ﷺ: «إن من ضعف اليقين إن ترضي الناس بسخط الله، وإن تحمدهم على رزق الله وإن تذمهم على ما لم يؤتك الله. إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يدفعه كراهة كاره. واعلم أن الكون وأحواله، والحيوان وأفعاله الكل فعل الله وقضائه وقدره، ولا يكون في ملكه إلاّ ما يريد من خير أو شر. فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكنْ». فيجب على كل مسلم أن يؤمن بالقدر خيره وشره، أن الكل مراده بإرادة سابقة موافقه لعلمه القديم الكامل الذي لا يلحقه تبديل بنقص أو زيادة ﴿لا تبديل لكلماته وهو السميع العليم﴾ وقال ﷺ: «لا يجد أحدكم حلاوة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه». واعلم أن الكون وأحواله كلها واقعة على وفق الإرادة السابقة الجارية على وفق علم الله القديم الأزلي فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وقد جف القلم بما هو كائن أبداً. قاله أهل التحقيق والفضل. فعليك يا أخي برسوخ الإيمان وقوة اليقين، والطاعة للمحبوب؛ فإن العمل القليل مع اليقين مضاعف أجره جزيل. ففي الأثر: أنه جاء رجل إلى معاذ ـ رضي الله عنه ـ فقال: أخبرني عن رجلين: أحدهما مجتهد في العبادة، كثير العلم، قليل الذنوب؛ إلاّ أنه ضعيف اليقين، يعتريه الشك. فقال معاذ ليحبطن شكه عمله. قال فأخبرني عن رجل قليل العمل إلاّ أنه قوي اليقين، وهو في ذلك كثير الذنوب. فسكت معاذ عن جوابه فقال الرجل: والله لئن أحبط شك الأول أعمال بَره ليمحين يقين هذا ذنوبه كلها. فأخذ معاذ بيده وقال: ما رأيت الذي هو أفقه من هذا. فتأمل فضل اليقين لأهله، واحفظ الحرمة بحسن الظن للمؤمنين؛ فإن الله قد أخفى سرّه في خلقه فافهم. وعليك يا أخي بعد التفقه في الدين بالإنفراد عن الناس جملة إلى من يدلك على الله تعالى

بإشارة صادقة، وأعمال موافقة. يعني للكتاب والسنة. فلا يمكن السلامة لنفسك في هذا الزمان إلاّ بالعزلة عن أهله، واجعل نيتك فيها السلامة من شرهم والتسليم لهم من شرك، واجعل أنيسك الخلوة، وجليسك فيها ربك، وذلك بدوام ذكره وطاعته. ففي الحديث: يقول الله: «أنا جليس من ذكرني»، وقد ورد أيضاً: «كل شيء ليس فيه ذكر الله فهو سهو ولغو». رواه ابن ماجة وغيره ولله درّ من قال:

أنست بوحدتي ولزمت بيتي   فطاب الأنس لي وصف السرور
وأدبني الزمان فلا أبالي   هجرت فلا أزار ولا أزورُ
ولستُ بسائل ما عشتُ يوماً   أسار الجند أم ركب الأميرُ

فافهم يا أخي فعليك بها، وصابر عليها تغنم؛ وإن تركتها وآثرت الخلطة تخسر وتندم. فقد قال الإمام الجليل محمد بن موسى اليمني في (حديقة الأذهان) قال: فالذي أشير عليك به وينبغي لك التمسك بسببه هو الإعراض عن أهل زمانك، والإقبال على خويصتك وشأنك وترك الإنكار بيدك ولسانك. لضعف إيمانهم، لا لضعف إيمانك. فقد وضح بالبرهان، وصح لك في هذا الزمان أن الدنيا مؤثرة على الأديان والشح مطاع، والهوى مع الشيطان، وكل معجب برأيه كيف ما كان، وخرج الأمر عن الضبط كيف ما كان، فليس لك به يدان وهو ما أشار به ابن مسعود، والذي هو في زمانك موجود، حيث يقول - رضى الله عنه - إذا اختلف الهوىٰ ولبستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرء ونفسه. وعن أبي أمية - رضى الله عنه - قال: أتينا أبا ثعلبة الخشني - رضي الله عنه - فقلنا: كيف نصنع بهذه الآية؟ فقال: أيّةُ آية؟ قلنا: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾. فقال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «نعم بل أئتمروا بالمعروف وتناهو عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىً متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت الأمر لا يدان لك به فعليك نفسك، ودع أمر العوّام» الحديث. وأنت إذا تركت اللدد علمت أن الزمان قد فسدْ والرشد عندهم غي، والغي رشد. فكن جليس بيتك الأبد، وفرّ عنهم فرارك من الأسد

ودعهم وما هم، ولا تنكر على أحد. فقد قيل اعتزال العامة مروءةٌ تامة:

أنت بالدهرِ والذي فيه أدرىٰ ... وبما ضمنوه خيراً وشراً
فتأمل وَرُدّ حِسّك فيهم ... هل ترىٰ أو رأيتَ في الناس حراً
يحفظ العهد من مروئته أو ... يجعل الله والصنائع ذخراً
كلهم كالحميرِ في الجهلِ غرقا ... فراذا قستهم فاحقر قذرا
وعلى ذا فيدّعون كمالاً ... تعسوا ما لكمال خُبزاً وتمرا
خيرُ ما فيهم ولا خير فيهمُ ... إن مُغتابهم يقدم أجرا
فأقلِهم جملةً ولا تحتفلهم ... وعلى الله فاعتمد تلق برا

انتهى كلامه بلفظه. فتأمل يا أخي ذلك، وعليك يا أخي بالتقوى لله والصبر على ما أمر الله، والرضا بقضاء الله، والمسارعة إلى طاعة الله فبذلك تحيا حياة طيبةً، ويرزقك الله من حيث لا تحتسب، ويجعل لك من كل همّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً فهذا سبيل أهل الهدى وأولي العزم الرشدا، ولا تغتر بمن سلك غير سبيلهم من أهل الرداء. ولقد أحسن من قال:

فساد كبير عالم متهتك ... واكبر منه جاهل متنسك
هما فتنة للعالمين عظيمة ... لمن بهما في دينه يتمسك

ذكرهما الإمام أبو الليث ـ رحمه الله ـ وقال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق. حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» الحديث فتأمل ذلك. وقال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدّث الناس فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت له مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته. وقد ورد هذا حديثاً مرفوعاً. فاحرص على ذلك فإن هنا مجال أهل العقل والمروءة، ولا دين لمن لا مروءة له. الحديث ولا يخفاك انعكاس الأحوال لفساد الزمن بالضياع، والإهمال لمحاسن الشيم وكريم الخصال، وظهور اللئام الأنذال بالتصدر في المجالس والمحافل بالقبول والإجلال، وهذا هو غربة الدين، وانقراض

العلم وانطوى بساط البركات والرحمة، واستحقاق المقت واللعنة ولله درّ من قال وهو سيدي الحبيب عبد الرحمن بن الشيخ علي بن أبي بكر السكران بن عبد الرحمن السقاف باعلوي:

هذا زمانُ الجور فيه ظاهر	قليل ما تلقى قليب طاهر
غاص البعر وصلّل الجواهر	والظلم زايد فيه جم مكبوس
عزيز صدق الناس فيه جداً	والكل صاروا للصحيح أعدا
خلوا الدواء جانباً وصاحبوا الدا	جميعهم في الغدر غيص مغطوس

واعلم أن أجلَّ المواضع وأشرف البقاع المساجد، وأشرها وأبغضها الأسواق. ففي الحديث: «أحب البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق»؛ لأن المساجد بيوت الله وعش عباده الصالحين، والأسواق محل المكر والخصومات، وعش اخوان الشياطين؛ فيجب عليك تعظيم المسجد، وحفظ حرمته؛ فإن المعتكف فيه كالمجالس لربه وهو من أضيافه وكالزائر له. واعلم أن الحديث المباح في المسجد قد جزم بتحريمه غير واحد من العلماء كالإمام فخر الدين الرازي وغيره كما ورد في الأخبار من التهديد الشديد في ذلك، نقله الإمام ابن خليل القلعي - رحمه الله - فافهم وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراركم وخصوماتكم وإقامة حدودكم، وسل سيوفكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها في الجمع. رواه الإمام ابن أبي الصيف اليمني - رحمه الله - وقد انعكس اليوم الحال بالضياع لهذه الخصال، والحمد لله على كل حال. فالله الله يا أخي في تعظيم حرمات الله، وحفظ شعائر الدين؛ فإن حفظ الحرمة سرُّ كل شريعة، ولبُّ كل دين. قال رسول الله ﷺ: «إن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وبيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح، لا يستطيعونهما. ومن لقي الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ بشيء من حسناته، والصلاه عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين» الحديث وقال تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلٰوة الوسطى﴾ فالمحافظة على الصلوات الخمس أم الخيرات، وذريعة إلى حصول البركات، وتتيسر بقية الطاعات. وصحة الجسد من جميع الآفات،

وتسهيل الرزق وحصول الحفظ إلى الممات. وقد جرب ذلك أهل الخيرات. وقال ﷺ: «لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلاّ شهد له يوم القيامة، وهم أطول الناس أعناقاً يوم القيامة - أعني (المؤذنون)» وقال رسول الله ﷺ: «بُني الإِسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلٰوة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان» رواه البخاري ومسلم. فهذه واجبة على كل مسلم بإجماع العلماء والطوائف - قديماً وحديثاً - فمن جحد الوجوب لواحدة منها فهو كافر خارج عن الملة، ومن ترك واحدة منها تهاوناً وتكاسلاً مع اعتقاده الوجوب فقد هدم ركناً من الإِسلام، وارتكب كبيرة من الاثام. بل قد اختلف العلماء في تكفيره خصوصاً من ترك الصلاة فقد جزم بكفره غير واحد من الصحابة والتابعين، والعلماء والمحققين. نقل هذا كله الإِمام القاضي عياض وغيره. فالله الله يا أخي في مجالسة عباد الله الصالحين، والتباعد عن الجهلة الفاسقين، فإن الرحمة تنزل في مجالس الذكر لله، والنشر لسير عباد الله الصالحين والسخط واللعنة تنزل في مجالس اللهو والغفلات، وحكاية أفعال الظالمين، ومجالسة الفاسقين. فالحذر من ذلك فإنه يجر إلى قسوة القلوب، والجرأة على الذنوب، وذلك كله محظور، وعليك بذكر الله في كل حال. قال رسول الله ﷺ: «قال موسى وددت أني أعلم من تحب من عبادك فأحبه. قال إذا رأيت عبدي يكثر من ذكري فأنا أذنت له وأنا أحبّه وإذا رأيت عبدي لا يذكرني فأنا حجبته عن ذلك، وأنا أبغضه». رواه ابن أبي الصيف. وقال رسول الله ﷺ: «بدأ الدين غريباً ويرجع غريباً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسده الناس من بعدي من سنتي». وقال ﷺ: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون» إذ في الإِكثار منه والجهر به براءة من النفاق، و (في الحلية) للحافظ أبي نعيم مرفوعاً أنه قال: اذكروا الله ذكراً حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون ومعناه اذكر الله جهراً في الملأ، وبالغوا فيه لتعرفوا به، ويُقتدى بكم ويذكركم الله في ملأ خير منه، ولا تبالوا بمن يطعن فيكم بالظن السوء، فإنه منافق. فمن أين له أن الذاكر منافق. هل أطلعه الله على قلب الذاكر فيا ويله يوم تُبلى السرائر، فما له من قوة ولا ناصر. فكن يا أخي من أعوان أهل الدين، فإن الله لا يحب المفسدين. وقال كعب الأحبار

من أكثر ذكر الله بريء من النفاق، وسئل الحسن ـ رحمه الله ـ عن رجل لا يتحاشا عن المعصية إلاّ أن لسانه لا يفتر عن ذكر الله. فقال: إن ذلك لعون حسن وشفاعة حسنة لصاحبه، وفضل من الله عليه. قال تعالى: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ فلا يمنعك ما تعلمه من نفسك من خطيئتك وذنبك عن التضرع لربك، والعبادة له بقلبك وقالبك، وكيف ما كان الإنسان فذكر الله تعالى مطلوب له، ومرغوب فيه جداً. ذكر هذا الإمام ابن خليل القلعي في التحفة: وعليك بتدارك وقتك، وتعهّد قلبك وإصلاح نفسك في كل وقت؛ فإن كنت ممن يحترف بالحرفة، ويكتسب للمعيشة للصيانة والاستعانة فلا تغفل عن التعهد لقلبك، والحفظ لوظائف دينك. واجعل لنفسك وقتاً تترك فيه أشغالك، وتخلو فيه لربك، ولو في الأسبوع ثم في العشر ثم في الشهر، ثم في الأربعين. وهذا كله كما ذكر العلماء. قال الشيخ عمر بن محمد بن حميد في رسالته: إذا خلا القلب من الوسواس والهموم، وخلال البدن من مزاحمة الناس، لُقِّم من لطائف المعارف، وانقطعت النفس عن كدورات المآلف. وإذا كثرت المكاره والهموم على القلب مات، وإذا مات عُدم المطلوب وفات. وإذا كثر الشقاء على البدن خرب، إذا فقد القلب الذكر والمذاكرة ثلاثة أيام قسا، وإذا قسا تجرأ، وإذا تجرأ وقع فيما لا طاقة له به. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ـ رحمه الله ـ إن الله أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات؛ فمن فاته من الطاعة صنف فقد من النور بمقدار ذلك، فلا تهملوا شيئاً من الطاعات، ولا تستغنوا عن الأوراد بالواردات. فقد اغترّ قوم بلوائح من الأنوار وروائح من الأسرار، فاستغنوا بها ففتروا عن الأوراد والأذكار، فحجبوا وسلبوا وصاروا من الأشرار. قال الغزالي في ميزان العمل: اعلم أن العلماء المحققين قالوا: لو رأيت إنساناً يمشي على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان، وهو الحق لأن الشريعة حنيفية سمحة مهما مست حاجة أو ضرورة كان للشرع فيها رخصة مشهورة؛ فمن جاوز الشريعة وتعدّى حدودها فإنما يعبد هواه، ويتبع شيطانه. قال والكامل من جمع بين الظاهر والباطن جميعاً وهذا مجمع البحرين، وفيه مجال العبد الواسع الكامل الجامع. فقد قالوا: الكامل من لا يطفيء نور معرفته نور ورعه؛ ولذلك لا ترى الكامل تسمح نفسه بترك حدٍ من حدود الشرع مع كمال البصيرة،

لعلمهم أن الباب الأعظم، والواسطة العظمى هو الشارع الواسع النور والبصيرة. فانطوى العارف الكامل ببصيرته ونوره في بصيرة الرسول ﷺ ونوره، فاعمل يا أخي بالمتابعة بالصدق والإخلاص تكرم بنور الاختصاص، وأيقن بجزيل الثواب في العاجل والآجل، ولا تقلد بصيرتك في العلم به؛ فإن الله يدس في قلبك ما شاء من أنواره وأسراره، وإن لم تقف ببصيرتك عليه. وهذا هو الغالب على المؤمنين، وهو طريق سلف الأمة من الصحابة وأكابر الأئمة. فلا تشغل نفسك بالتطلع إلى العلم بثمرة الأوراد. وقال الشيخ أبو العباس الصياد - رحمه الله ونفع به - الواردات ثمراتُ الأوراد، فمن دامت أوراده كثُر من الخير ازدياده. وقال أيضاً: الحركة بركة فحركة الظواهر تورث بركات السرائر. فعليك بدوام الأوراد، ولزوم الأذكار. وكان السيد الشريف أحمد بن فرج باعلوي التريمي - رحمه الله - عابداً زاهداً ورعاً مُولهاً بذكر الله، كثير التردد في البلدان، وكان لا يدخل بلدة إلاّ أحيّاها بذكر الله، وجمع بها جماعة حلقة يذكرون الله معه بالليل والنهار جهراً بأي مكان. اتفق له حتى يخرج من البلدة وكان يحب ابتداء السفر باكراً، ويأمر به. قال هذا الوقت ليس فيه وقت فريضة من الصلاة؛ فيبلغ المرء مقصده دون الرواح والعشية. انتهى فاقتد بفعله.

فائدة ١٧

في الترغيب في الحب لله والتحذير من معاداة عباد الله الصالحين

قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب وإن لم يعمل كعمله» الحديث ومن دعائه ﷺ: «أسألك حبك وحبّ من يحبك، وحب من يقربني إلى حبك» وإذا دخل بلدة قال: «اللهم حبب صالحي أهلها إلينا» ومثل هذا كثير فعليك يا أخي بحبهم وودّهم، والتعلق بهم وبخدمتهم، وجبران قلوبهم، والتودد إليهم، واستعطاف خواطرهم حسب الإمكان. بكل حال. ففي ذلك الخير والبركة عاجلاً وآجلاً، واحتذر من ضد ذلك، وتباعد مما يؤذيهم البتة البتة. ففي غضبهم الشؤم والهلكة، فلحومهم مسمومة، والعقوبة لمنتقصهم مقسومة محتومة. قال أهل التفسير عند قوله تعالى: ﴿إنّا لننصر رُسلَنا والذين آمنوا في الحيٰوة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ أن الأنبياء والعباد الصالحين منصورون في هذه الحياة الدنيا، وإن قتلوا وأوذوا، ولا يموت من آذاهم إلاّ وقد أهانه الله وأخزاه، وأظهر ذلك عليه بين الناس، كفعل الله بمن قتل يحيى بن زكريا وغيره. فافهم وحقق ذلك. فقد ثبت في الحديث النبوي: «يقول الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب». وفي رواية: «من أهان لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، ومن أحاربه أهلِكه، ثم أقذفه في جهنم. وإني لأغضب لأوليائي كما يغضبُ الليثُ الحرد» الحديث رواه الإمام الرازي في تفسيره. والإذاية فوق المعاداة وأيضاً الإهانة احتقار القلب، وإن كان بدون إذاية. وشمل الحديث كل ذلك. فانصح لنفسك، واشفق على دينك. قال الشيخ الكبير ابن الصباغ ـ رحمه الله ـ إذا أراد الله هلاك قوم سلطهم على صالحي زمانهم، يعني وإن وفق الله قوماً وأهل بلد للإكرام وحسن الظن والاحترام لصالحي زمانهم لم يهلكوا، بل أدركوا

فلا يزال العوامُّ بخير ما عظموا الخواصَّ، ولا يزال الناس بخير ما عظموا العلماء والصلحاء وأهل الدين؛ لأنهم شفعاؤهم، والمدفوع بهم البلاء عنهم. وتلك سنة الله في عباده وبلاده. قال الله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ وفي الأخرى ﴿لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد﴾ قيل في التفسير: الدافع لفساد المفسدين هم ولاة العدل المصلحون. وتشتمل الآية أيضاً: دفع الله عن الناس البلايا والنوازل والمصائب بدعاء الصالحين، وبشفاعة أهل القرب العارفين. فقد وردت أخبار كثيرة وآثار مشهورة بذلك، وهم أولى بما هنالك. فقد ورد، ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل عن الفارين، فلولا دفاع المقاتل الشجاع عن الفار المنهزم لأدركه عدوه. فكذلك يدفع الله بالذاكر عن أهل الغفلة فافهم. واحرص على إكرامهم واحترامهم تظفر بالخير والبركة، والحذر كل الحذر من إذايتهم ومعاداتهم وإهانتهم، والتهاون بجانبهم. فقد غَلط عوامُّ أهل العصر ذوو البلادة والجهل في حسن ظنهم بأولياء الله العارفين، وعباده الصالحين. فقد يطلب الواحد حاجة يعول على قضائها فيأتي إلى من يعتقده في زعمه فيذكر له حاجته ويلازمه في قضائها ملازمة قبيحة، مشتملة على أنواع من المؤذيات للوليّ لله تعالى، وذلك موجب لغضب الله على من آذى وليّه ومقته، وإذ لم يرد الوليّ ذلك، ولم يغضب غيرة من الله تعالى عليه وانتصارٌ له لقوله: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب» الحديث وكل من آذيته فقد أهنته وعاديته، فإن الحرمة والتعظيم لا يأتي إلا بالأدب معه والإكرام والتوقير والاحترام، حتى إن من العوامّ من يربط بحبل أو ثوب على رقبة من له فيه حسن عقيدة في زعمه الكاذب، فيخنقه ويشد على رقبته فيؤذيه بذلك أشدّ إذاية، يفعل ذلك لينجح حاجته في ظنه؛ فينعكس عليه الأمر، ويحيق به المكر، فيكون فعله به سبباً لنقمته وسخط الله عليه؛ فيرميه القضاء بكل سوء في حاله، ويهجمه بكل شؤم ومكروه في نفسه وماله، حتى لقد قيل: إن الدعوة والسخط من الولي يبلغ إلى الولد السابع، كما أن الدعاء والعطف يبلغ إلى الولد السابع إذ هو خليفة في عباده، لو أقسم على الله في تعجيل بغيته لأبَرّهُ وأعطاه مسألته الحديث. فافهم لذلك والجاهل يسلك بنفسه لجهله

أخبث المسالك مسكين من لا فهم فيه مسكين. وفق الله كل مسلم لكل خير، وحفظهم من كل شر آمين. **قال الشيخ الكبير إسماعيل الجبرتي ـــ رحمه الله تعالى ـــ جالسوا أولياء الله بالأدب؛ فإنهم جواسيس القلوب، وإن الله يغضب لغضبهم وإن لم يغضبوا.** حكي عن الشيخ الكبير الشهير أبي الغيث بن جميل ـ رحمه الله ونفع به ـ وكان يشار إليه بعلم السيمياء والكيمياء، وكان بعض ملوك غسان في زمنه له فيه حسن عقيدة؛ فاتفق أنه خاصم بعض ملوك اليمن، وحاصر بلدته، وحط عليها بجنده، وطال حصاره، واشتدت حاجته إلى كفاية العسكر بالنفقه؛ فأشار عليه بعض الفقهاء أن يرسل للشيخ أبي الغيث ابن جميل ويلازمه ليعلمه الكيمياء لينتفع بها، فأرسل إليه فجاءه فشكا عليه حاجته، وطلب منه ذلك. فقال الشيخ له: ليس عندي مما تظن شيء فلم يعذره، وظن أنه يكتم عليه فلازمه ولم يقبل منه عذراً وهو كالمدل عليه بحسن العقيدة في زعمه، فلم يزل يطلب منه التعليم ويقول له يا سيدي: أنت تعرفها حقيقة عندي، ثم لم يتركه فغضب الشيخ وقال: نعم أنا أعرف إكسير الريح. الآن تخرج عليكم من هذا الوادي ريح عاصف؛ فخرجت عليهم منه ريح عاصف عصفت على الملك وعسكره، فأظلمت عليهم، وعكّرت خيولهم، وطارت بخيامهم، وقطعت أطنابها، وشغلوا بنفوسهم؛ فتخلص منه الشيخ ومضى لشأنه، فكانوا في أبخس حال، وأقبح منال. فانظر يا أخي واعتبر، وانصح لنفسك واحتذر. فقد حلت النقمة، وسلبت النعمة عن جملة العوام مثال ذلك، وهم لا يشعرون. ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ كان دويس والي تريم يؤذي بعض الصالحين، فقال الشيخ الشريف أبو بكر بن عبد الرحمن السقاف ـ يوماً ـ لأصحابه: أصاب اليوم دويس سهماً من بعض الصالحين فيه حتفه، وسهم الصالحين لا يحجبه جبل ولا جبلان ولا مسيرة شهر ولا شهرين. وفي الحديث: «حب الدنيا يعمي ويصمي» وفي رواية: «حبك الشيء يعمي ويصمي» فافهم الحق ولا تصغ إلى قول من أعماه الله وأصمّه بحب الدنيا، فنطق بالضلالة، وعمل بالجهالة. قال الشيخ الكبير إسماعيل الجبرتي ـ رحمه الله ـ فيما روى عنه الفقيه ابن الأشكل ـ رحمه الله ـ

إذا سمعتم الوليّ يقول للشيء إنه سيكون فلم يكن كذلك، فليس ذلك لعدم كشفه، وقل بصيرته، بل مراتب الأرواح متفاوتة، وعلوم الألواح تابعة لذلك، ﴿ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب لا تبديل لكلماته وهو السميع العليم﴾ فالله تعالى يتولى عباده الصالحين، فيعاملهم بلطفه، ويربيهم ويرقيهم في أطوار القرب، وأنوار اليقين. فهم في زيادة في ذلك في كل وقت وحين، ومن النّاس من يقول من لم ينفعنا اليوم من العباد لم ينفعنا غداً. وهذا زعم باطل. وأمارة فساد الاعتقاد، ويخاف على صاحبه حرمان الشفاعة فإن ميدان شفاعة الأنبياء والأولياء يوم القيامة. كما ورد: ﴿ادّخرت شفاعتي لأمتي ليوم القيامة﴾. وقد ورد أيضاً نحو ذلك فافهم. فعليك يا أخي بحسن الظن التام بعباد الله الصالحين خصوصاً، وبجميع المسلمين عموماً. ففيه الخير والرحمة والكرامة، وأدناه السلامة. وفي سوء الظن الشؤم والحتف والندامة، ولله درّ الإمام عليّ بن أبي طالب - كرم الله وجهه - حيث قال:

أرى الناسَ أشكالاً فكلٌّ له شكلُ ... فحرٌّ له حرٌّ ونذلٌ له نذلُ
وذو النقص يصبو نحو ذي النقص مثله ... وينفرُ ممن في أخلاقه فضلُ

فالمؤمن يستر العورات، ويقيل العثرات، ويقبل المعاذير طلباً لنصيبه من الخير، وفراراً من الشر. والمنافق بضد ذلك يتتبع العورات ويشمت بالعثرات، وكل ينفق مما آتاه الله والإناء يرشح بما فيه. والقلب الطيب يخرج طيباً، والخبيث ينتج خبيثاً. وفي الحديث: «المؤمن فطن حذر ثلثاه تغافل» فافهم والله المستعان، وبه الثقة والتكلان. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فائدة ١٧

في رتبة حفظ حرمة المؤمن وحرمة كل شيء قدره ومنزلته وحقه

اعلم أن المؤمن له ذمة عند الله كبيرة، وله حرمة عظيمة. وذلك بقدر إيمانه وخصوصيته من ربه. هذا غيب في القلوب لا يعلمه إلاّ علاّم الغيوب. فاحفظ الذمة والحرمة لكل مسلم بكل حال، والتمس من كل أحد منهم الدعاء. فقد ورد أن لله تعالى ثلاث حرمات. فمن حفظهن حفظه الله في دينه ودنياه، ومن لم يحفظهن لم يحفظ الله له دنياه ولا آخرته. قيل وما هن قال حرمة الإسلام وحرمتي وحرمة رحمي. ففي الحديث: «المؤمن القوي أحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير» فيجب أن تعتقد أن كل مؤمن فيه من الله بركة، وله عنده ذمة وحرمة. فاحفظ يا أخي ذلك ولا تغفل مما هنالك. فقد ورد: ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت، ولا في القبور، ولا عند النشور. ففي الحديث: «إن الله أخفى أربعاً في أربع: أخفى رضاه في طاعته؛ فلا تتركوا منها شيئاً لقلته، فلعل فيه رضاه. وأخفى غضبه في معصيته؛ فلا تتهاونوا بشيء منها لصغره وقلته، فلعل فيه غضبه ونقمته. وأخفى سرَّه في عباده؛ فلا تحقروا منهم أحداً لفقره ورثاثته؛ فلعل السرَّ والخصوصية فيه؛ فتقعوا في المحذور. وأخفى الموت في وقته؛ فلا يأتي إلاّ بغتة، فاستعدوا له في كل وقت». وقد روي بدل هذه الرابعة «وأخفى الإجابة في الدعاء؛ فلا تترك منه شيئاً، فلعل إجابته فيه» الحديث بمعناه والحذر من بغض المسلم بغير سبب. فقد ورد: «البغضاء هي الحالقة للدِّين لا الشعر، ولقد أحسن الشيخ ناصر الدين الشاذلي ـ رحمه الله ـ في ذلك فقال:

أعــوذُ بــوجــهِــكَ الــقــدوسِ ممــا أحــاذره ومِــنْ كــلِّ المخــاوفْ
فــأنــتَ مــلاذُ خــلــقِــك يــا إلٰــهــي أغــثــنــي إنــنــي بــالــبــابِ واقــفْ
أغــثــنــي غــوثَ مــقــتــدرٍ رحــيــمٍ عــلــيــمٍ بــالــذّي أنــا مــنــه خــائــفْ

قال الشافعي - رحمه الله ونفع به - من أراد أن يقضي الله له بالخير فليحسن الظن بالناس. وقد ورد في الحديث أن هدم الكعبه ستين مرة أهون عند الله من إيذاء المؤمن، وهدم قلبه مرة واحدة، ويدل على عظم حرمة المسلم اتفاق أهل العلم على أن الزائر لمشهده يستدبر القبلة ويستقيل وجهه. فتفطن لهذا في العامة. فما ظنك بالخاصة منهم؟ ففي الحديث: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله» فاحفظ حرمته كلها إلاّ بحق الإِسلام ومتابعة الشريعة. فحق الله على كل شيء مقدم، وطاعته أحرى وألزم؛ فمن خصه الله بالإِسلام وهو أجلُّ الأنعام جدير منك بالإِكرام والإِحترام. فاعرف له ذلك، ولا تغفل عما هنالك. وذكر الإِمام فخر الدين الرازي في تفسيره قال فيه: واعلم أن فائدة الصلاة في الجماعة معلومة في مواضعها، وفضلها عظيم يدل عليه قوله ﷺ: «التكبيرة الأولى في صلاة الجماعة خير من الدنيا وما فيها» وغير ذلك من الفضل العظيم الجزيل، ثم يقول مع ذلك كله إن الإِنسان لو أكل ثوماً أو بصلاً فليس له أن يحضر الجماعة لئلا يتأذى منه مسلم. فانظر إلى هذه الطاعة الجلية التي لها هذه الفضائل الجزيلة، ثم لا يفي ثوابها بتأذى واحد من المسلمين برائحة الثوم والبصل هذه القليله، وقدم صيانة المسلم من هذا الأذىٰ الضعيف على هذا الثواب الشريف. فكيف يفي بإيذاء المسلم بغيره بالغيبه والنميمة وشبههما انتهىٰ قال الإِمام ابن خليل القلعي - رحمه الله - في التحفة لو أن رجلاً له ثواب سبعين نبياً وله خصم بنصف دانق لم يدخل الجنة حتى يرضى خصمه، ولقد قيل إنه يؤخذ بدانقٍ ثواب سبعمائة صلاة مقبولة؛ فتعطى للخصم المظلوم. فانظر يا أخي وتأمل ذلك، وتباعد عما يؤذي كل مسلم، واحفظ حرمته. فقد عرفت العقاب العظيم لمن آذاه ولو بالقليل في النفس، أو في العرض، أو في المال، وتدارك ما فرط من أمسك قبل حلول رمسك بالتخليص والنصيحة لنفسك. هذا في واحد من عامة المسلمين.

فما ظنك بما يكون لمن آذى واحداً من خاصة الله وأوليائه المقربين، وعباد الله الصالحين؟ فاحفظ نفسك بالتفكر في أمرك، وانظر في عيبك. فطوبىٰ لمن شغله عيبه عن عيوب الناس. فأنت من معرفة عيبك، والعلم بذنبك على يقين، ومن معرفة ذلك من غيرك على جهل أو ظن يحتمل غيره. فيتعين عليك حسن الظن بالمسلمين، لذلك وسوء الظن بنفسك، والشغل بإصلاح شأنك. وهذه طريقه السلف الصالح من أهل الحق. وصن دينك بحفظ حرمات الله كما قال تعالى: ﴿ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾ وقال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ قال الشيخ الفقيه محمد بن حسين البجلي - رحمه الله ونفع به - يشير في هذه الآية لولا وجود الخاصة في العامة مع ما هم فيه من الغفلة والمعاصي؛ لنزل بهم الأمر، ولكن الله يدفع بالخاصة عن العامة العقوبة، وتلك سنة الله في عباده وبلاده، وله الحمد والمنة. حتى إذا اقتربت الساعة رفع الله من الأرض أسراره، وطوى عنها أنواره؛ فيرفع القرآن من المصاحف والصدور، ويقبض العلم بموت أهله، ويذهب الصالحون فيموت كل مؤمن بالله ومؤمنة، ولا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله الله. ولله درّ القائل حيث قال:

لولا الذّين لَهمْ وردٌ يولمونا ... وآخرونَ لهمْ سردٌ يصومُونا
لدكدكتُ بِكمْ الأرضَ لأنكمْ ... قوم سوءٍ ما تطيعُونا

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فائدة ١٧

في بيان حدّ الدين

اعلم أن الدينَ كله يشتمل على عزائم فيه ورخص، والكل نعمة من الله على المسلمين. قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» الحديث. وقال الله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ وقال تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدِّين من حرج﴾ فإن الله لا يكلف نفساً إلاّ وسعها، ولم يفترض على عباده من الأمور إلاّ أيسر مما يطيقون، ودون ما يحتملون ويتسعون. فالحمد لله على سابغ نعمته، وواسع رحمته لنا وللمسلمين. وفي الحديث: «بعثت بالحنفية السمحة السهلة» الحديث فإنه ما حظر الله أمراً من المحظورات، ونهياً من المحرمات إلاّ وأباح مثله وأوسع منه من أنواعه المقصودات، وما كلفهم بأمر وعيّن له وقتاً إلاّ وسامح في أضعافه من سائر الأوقات. فانظر إلى ما كلف من فرائض الصلوات في الليل والنهار، والذي يتسع له بعض الساعات، وإلى ما فرض من الصيام شهراً واحداً في جميع العام، فنهاره صيام وليله شراب وطعام، وقس على ما ذكرناه ما لم نذكره من سائر المفروضات. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ أباح الطيبات وحرّم الخبيثات، وخفف الأثقال، ويسر صالح الأعمال، وحرّم الزنا والفواحش، وأباح النكاح والمحاسن. وقال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ وقال تعالى: ﴿ومن آياته أن جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله ان كنتم إيّاه تعبدون﴾. وقال ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»

الحديث. وفي الحديث أيضاً: «المؤمن خير كله؛ إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له» الحديث قال الحسن ـ رحمه الله ـ الخير الذي لا شرّ فيه العافية مع الشكر، وما أُعطي عبد أفضل من العافية إلاّ اليقين، وهو عافية القلب. وقد ورد: «يقول الله تعالى: إن من عبادي من لا يصلحه إلاّ الفقر، ولو أغنيته لفسد. وإن من عبادي من لا يصلحه إلاّ الغنى، ولو أفقرته لفسد. وإن من عبادي من لا يصلحه إلاّ السقم لجسده، ولو عافيته لفسد، وإن من عبادي من لا يصلحه إلاّ العافية، ولو أسقمته لفسد». فارض بقضاء الله وخيرته لك فإن فيه الرضا والراحة والسلامة. وقد ورد: «لا تتهم الله في شيء قضاه لك؛ فإن من رضي عن الله، رضي الله عنه. وهذه أجلُّ الرتب. قاله العلماء. وقال الشيخ الكبير أبو الحسن الشاذلي ـ رحمه الله ـ في (رسالته) إن الله لا يعذب على راحة يصحبها التواضع، ولكن يعذب على راحة يصحبها التكبر. فافهم فديت من يفهم، والحمد لله على ما علّم وألهم. فكل أحوال المؤمن العاقل عليه نعمة، وهي من الله له رحمة. فالفطن يعرف إنما يريد الله من خلقه أن يشكروه على ألطافه ورزقه، لواجب حقه وتعظيم قدره، ويتعرفوا بالقصور في شكره عن شكره. قال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ عمت نعمة الجاهل والعالم، والمستيقظ والنائم، والفقير والغني، والحقير والعلي. بل واحد من حيوان أو جامد. فاعرف ما أوسع الله عليك من النعمة، ورخص لك من الرحمة. فتناول منها ما تشاء، وخذ منها ما تحب قاصد التلبس بنعمته، والشمول برحمته تزدد منه قرباً، وتتأكد فيه حباً. ولا تتناولها بالغفلة عن الله، وعن ذكره، فينغمس قلبك في ظلمة الشهوة النفسية، ويقسو باللذائذ الخسيسة. فبالغفلة عن الله تقس القلوب. وفي الحديث: «القلب القاسي بعيد عن الله» وفي رواية: يبغض الله القلب القاسي» الحديث. فبالضرورة يكون الغافل عن الله في تناوله لما أبيح له من ملذوذاته متناولاً باللهو والشهوة، فعوِّد لسانك التسمية لله عند إبتداء كل أمر، وتناول كل شيء والحمد والشكر لله عند فراغ كل أمر، وانتهاء كل شيء، والزم قلبك الحضور مع الله بذكره ولزوم شكره في اثناء كل أمر، وبكل حال. وفي كل حال يحصل لك فيه الشفاء، ويتعجل لك به الصفاء، وتحفظ في أمرك عن

مشاركة الشيطان فيه، وعن كيد الأعداء وتكفي. والغافل عن ذكر الله يدركه أعداؤه بالظهور وبالخفاء، فتفطن لذلك يسر الله لنا ولك اليسرى، وجنبنا وإيّاك العسرى. وفي الحديث: «يُنصب لواء الحمد؛ فيعطىٰ الحامدون الله على كل حال، ويقال لهم ادخلوا الجنة بغير حساب. وفي الخبر إن لله ضناين من خلقه يضن بهم عن البلاء، يغذيهم برحمته. يحييهم في عافية ويميتهم في عافية، يعني يحفظهم عن المحن والمصائب في الدّين والدنيا تامة، يضحكون جهراً من سعة رحمته. الحديث فللّه عباد تلبسوا بما أسدىٰ لهم من نعمه، وأظهروا على نفوسهم آثارها، وتحدثوا بها وعرفوا أقدارها، وحفظوا أسرارها. فصفت سرائرهم بذكره، واستوجبوا من الله المزيد لشكره. فهم في كل حال ذاكروه وشاكروه. فانصح يا أخي لنفسك واعرف قدرك، ولا تقس الذاكر لله المتيقظ في توسيعه. فيما أحل له الشاكر لله في كل أحواله بالغافل عنه من أبناء جنسك. قال بعض العارفين إن لله عباداً كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم. فهم كالكواكب كلما قويت ظلمة الليل، قوي إشراقها. أولئك سادة الوقت كما قيل:

لا يـهـتـدي نـوبُ الـزمـانِ إلـيـهـمُ ولـهـمْ عَـلـى خـطـبِ الجليـلِ لجامُ

لكن يعذر الله الغافل عنه في أحوال ضرورته، ويحتمل منه فيها ما لا يحتمل في حال السعة والبطر. فقد قال معاذ بن جبل - رضي الله عنه - ثلاثٌ من فعلهن فقد تعرض للمقت: الضحك من غير عجب، والنوم من غير سهر، والأكل من غير جوع، فافهم وفقنا الله والجميع آمين. فاحفظ نعم الله عليك بالحمد لله عليها وقيدها بالشكر له، والثناء عليه والاعتراف بالقصور عن الوفاء بحقه؛ فإن أعظم نعم الله عليك الواجب تعظيم قدرها، ودوام شكرها وتقديمها هو للعقل المهتدي بالإيمان، المزين بنور الإسلام فإن الله هو الذي حبب إليك الإيمان وزيّنه في قلبك، وكرّه إليك الكفر والفسوق والعصيان. وقل الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، فارغب إليه في حفظه دائماً، وزيادته بالتوفيق منه والإعانة على البر والتقوى؛ حتى تلقاه بنفس مطمئنة راضية مرضية؛ فتسعد بسعادة لا شقاء معها أبداً، ويتلوه من النعم الفقه

في الدين بما يجعلك من المتقين، ويرفعك إلى رتب أهل اليقين، ويتلوه العمل الصالح بموافقة الكتاب والسنة النبوية الخالص لوجه الله تعالى، ويتلوه العافية في جسمك وحواسك كلها، والسلامة عن الأسقام الشاغلة عن تحصيل سعادتك، بما تقدم ذكره ويتلوه تيسير رزقك الذي تغذيه جسمك، وتستعين بقوته على الجد في طاعة ربك، ويتلوه كلما أعان على ذلك ودفع العوائق عنها، وفراغ الهموم، وجعل الهمّ هماً واحداً والإقبال بكل قلبه على ذكر ربه. فيا أخي عدد على نفسك نعم الله عليك، واحمده على ما عرفت وأحصيت، وعلى ما لم تحصي. ففي ذلك الحفظ لك والزيادة والكرامة. **قال الحسن البصري: لقد أدركت سبعين بدرياً كانوا فيما أحل الله لهم. أزهد فيما حرّم عليكم؛ لو رأيتموهم لقلتم مجانين، ولو رأوكم لقالوا شياطين.** وفي رواية لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب. وقال أبو الدرداء: من لم يعرف نعمة الله عليه إلاّ في مطعمه ومشربه فقد قلّ علمه، وحضر عذابه، قال الله تعالى: ﴿فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ واحتذر أن تكون من الذين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها قال تعالى: ﴿فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ والعاقل لا يغفل عن تلبسه بأموره عن احضار نية القربة بها، فينوي عند إتيانه لزوجته صيانة نفسه وسلامة القلب عن وساوسه، بمثل هذا وكذا ينوي عند أكله وشرابه ولبسه الصيانة لقلبه، والكفاية لِشَرهِ نفسه، بما أباح الله تعالى لسلامتها عن ما حرّم عليها. أو يمتد بالطمع إلى غيره ونحو ذلك. وقس على ما ذكرناه ما لم نذكره من شبهه. وهذه نية صالحة يؤجر العبد عليها؛ فمن كفاه الحلال عن الحرام، والطاعة عن المعصية، وصرفه الله عن السوء والفحشاء، فهذا من العناية وأمارة السعادة؛ فإن لنفسه عليه حقاً، ولزوجته عليه حقاً. الحديث وإعانة نفسه على البر والتقوى صدقة عليها، وحفظه وصيانته لها عن الإثم والعدوان صدقة عليها. هو بذلك مأمور، وعند الله مشكور، كما دلت عليه الأخبار النبوية. وفقنا الله وإيّاكم لما يرضاه آمين.

فائدة ١٧٦

في الترغيب في المروءة ومكارم الأخلاق

اعلم أنه لا يرغب عن معالي الأمور ومكارم الأخلاق، ويزهد فيها إلا خسيس النفس، دنيء الهمّة، معدود من الأراذل اللئام. وأمّا السادة الكرام القادة الأعلام؛ فإنما رغبتهم فيها، وحرصهم بكل حال عليها، وتطاولهم ومنافستهم فيها وعليها، وأقوالهم في الثناء عليها وعلى أربابها مشهورة، وأفعالهم فيها منشورة. قال علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - جميع المروءة في قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ الآية، قال أهل التفسير المنكر هو ما لم يعرف في الشريعة، والفحشاء هو ما فحش وقبح من القول والفعل. فتأمل ذلك. وقال أيضاً لإبنه الحسن - رضي الله عنهما - ما المروءة؟ فقال: ملك النفس عن الشهوة، والغضب والبذل في العسر واليسر. قال: فما اللوم؟ قال إحراز المرء ماله، وبذله لعرضه. وأن يرى ما في يده سرفاً، وما أنفقه شرفاً. فتأمل ذلك يا أخي وكفاية في المروءة تعليماً ونصحاً. وقال الأحنف بن قيس - رحمه الله - لا راحة لحاسد، ولا مروءة لكاذب، ولا خُلّة لبخيل، ولا وفاء لمملوك، ولا سؤدد لسيء الخلق، ولا أخ لمملول. وقال عبد الله بن المبارك - رحمه الله - إذا وُصِفَ لي رجل له علم الأولين والآخرين، لا أتأسف على فوت لقاءه. وإذا سمعت برجل له أدب النفس أتمنى لقاءه، وأتأسف على فواته. قوله أدب النفس يعني أخلاقها الحسنة، وصفاتها الطيبة. وفي الحديث: «أهل الفضل أولى بأهل الفضل، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلاّ أهل الفضل» ويندب إكرام أهل الفضل بالتبجيل والتقبيل، والقيام لدخولهم لأجل الإكرام لا للرياء المذموم، والإعظام لكن

يحرم على أهل الفضل أن يحبوا ذلك، ويرغبوا فيه. قاله أهل العلم وقال لقمٰن الحكيم لابنه ـ رحمه الله ـ يا بني إن حسن طلب الحاجة نصف العلم، والتودد إلى الناس نصف العقل، والتقدير في المعيشة نصف الكسب. يا بني أرسل حكيماً ولا توصه؛ فإن لم تجد حكيماً فكن رسول نفسك. وفي الحديث: «شر الناس من أكل وحده، وضرب عبده، ومنع رفده». وقال ابن زياد ـ رحمه الله ـ لرجل من الدهاقين ما المروءة فيكم؟ قال: أربع: أن يعتزل الرجل الذنب، فإنه إذا كان مذنباً كان ذليلاً، ولم يكن له مروءة، وأن يصلح ماله فلا يفسده؛ فإن من أفسد ماله واحتاج إلى غيره فلا مروءة له، وإن يقوم لأهله بما يحتاجون. فمن أحوج أهله إلى الناس فلا مروءة له؛ وأن ينظر إلى ما يوافقه من الطعام والشراب، فيلزمه ولا يعبث بما لا يوافقه، فذلك من المروءة. وقد ندب الشرع الشريف إلى المروءة والتمسك بها. ودعا إلى مكارم الأخلاق والتأسي بأولي العزم والحزم. وقد أوجب المكافأة بالهدية ونحوها غير واحد من أئمة العلماء، صوناً للهمّة عن الذلة للمحسن، وعن تحمل أثقال المنة، وحفظاً للمروءة بذلك. وقد رغب الشرع الشريف في البذل والسماحة والسخاء بكل حالٍ، في الغناء والفقر، والعسر واليسر. ففي الحديث: «اصنع المعروف إلى من هو أهله، وإلى من ليس أهله». فإذا أصبت أهله فهو أهله وإن لم تصب أهله فأنت أهله والمكافأة بالمعروف من شيم الأحرار. وفي الحديث: «إن لله ثلثمائةِ خُلقٍ أحبها إليه السخاء». وقد ورد: «إذا جاءك شيء من هذا المال بلا إشرافٍ ولا تطلع فخذه؛ فإن شئت فتموله، وإن شئت فتصدّق به. ومالا فلا تتبعه نفسك أبداً. وفي الحديث: «تجافوا عن عقوبة ذي المروءة ما لم تكن حداً، وتجافوا عن ذنب السخي؛ فإن الله آخذ بيده كلما عثر. وأقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم ولله درّ القائل حيث قال:

سأنفقُ ريعانَ الشبيبةِ لأبقى ... على طلبِ العلياءِ أو طلبِ الأجرِ
أليسَ مِن الخسرانِ أنَّ لياليا ... تمرُّ بلا نفعٍ وتُحسب من عمرِ

قيل إنهما للإمام الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ونفع به ـ لو كانت

المروءة في ترك شرب الماء البارد لم اشربه رغبة فيها. وقال أيضاً عاشر كرام الناس تعش كريماً، ولا تعاشر اللئام فتنسب إلى اللؤم. وقال أيضاً: صحبة من لا يخاف العار عار يوم القيامة. وقال أيضاً: من الذل تذلل الشريف للدّني لينال منه شيئاً. وتذلل الرجل للمرأة لينال من مالها شيئاً، ومداراة الأحمق فهي غاية لا تدرك. والرجل عليّ الهمّة يحرص على البذل والإيثار في حال السعة والاقتار، يصابر عليه لتعتاد ذلك نفسه، ويصير له خلقاً وطبعاً. ففي الحديث: «أنفق بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، يخاطب السيد بلالاً وأشباهه - رضي الله عنهم - وقوي العزيمة على الهمّة لا يترك البذل خشية الفقر أصلاً، ولا يصغي إلى وسوسة الشيطان وتخويفه بالفقر. قال الإمام الشافعي - رحمه الله - ما فزعت من الفقر قط. وقال: فقر العلماء فقر اختيار، وفقر الجهال فقر اضطرار؛ فإذا عرفت ذلك فهمت أن السماحة مطلوبة بكل حال، وعلى كل حال والإمساك غير محمود. ولله درّ من قال:

مَنْ برَّ عزَّ وصارَ في النّاسِ هيبَته ... ومَنْ تَضعْضَعْ مأكولٌ ومذمومٌ
لا باركَ اللهُ في مالٍ أُخَلِّفُهُ ... للوارثينَ وعَرضي فيه مشتومٌ

والسماحة بالمال من أجل مكارم الرجال خصوصاً بالطعام، وبسطه للنازلين. ولله درّ الإمام الجليل القفال الشاشي - رحمه الله - حيث قال:

أوّسعُ رحِلي عَلى مَنْ نزلْ ... وزادي مباحٌ علىٰ مَنْ أكلْ
نقدمُ حاضرَ ما عِندُنا ... وإن لم يكنْ غيرَ خبزٍ وخلْ
فأمّا الكريمُ فيرضىٰ بهِ ... وأمّا اللئامُ فمَنْ لَمْ أبلْ

وكان الإمام الجليل عبد الله بن المبارك - رحمه الله ونفع به - عظيم القدر في كل أمر تستنزل الرحمة بذكره، وترجى المغفرة بحبه، وهو من تابع التابعين كان كثير الأفضال على أصحابه وقاصديه، عظيم السخاء جليل المحبة عند جميع الطوائف، اثنى عليه عمار بن الحسين بشعره قال:

إذا سارَ عبدُ اللهِ مِنْ مروٍ ليلةً ... فَقدْ سارَ مِنها نورُها وجمالُها
إذا ذُكرَ الأخيارُ من كلِ بلدةٍ ... فهمْ أنجمٌ فيها وأنت هلالُها

وكان ابن المبارك يتمثل كثيرا بهذا وهو:

وإذا صاحبتَ فأصحب صاحباً ذا حياءٍ وعفافٍ وكرمْ
قائِلاً للشيءِ لاَ إن قلتَ لاَ وإذا قلتَ نعمْ قال نعمْ

وكتب الإِمام الجليل أبو حامد الإِسفراييني - رحمه الله - إلى قاضي ترمذ ينشده شعراً لنفسه وهو هذا:

لا يَغْلونّ عليكَ الحمدُ في ثمني فليسَ حمدٌ وإنْ أثمنت بالغالي
الحمدُ يبقىٰ على الأيامِ ما بقيتْ والدهرُ يذهبُ بالأحوالِ والمالِ

نقلهما الإِمام النووي - رحمه الله - في (تهذيبه) كما ذكرناه انتهى. فبذَل المال محمود بكل حال طلباً لمكارم الأخلاق، واكتساباً وجلباً لها، أو دفعاً لرذائل الصفات، ودني الشيم، ووقاية لعرض المرء عن ثلب السُنِ السفهاء، أو طلباً للأجر والثواب، أو إعانة بالمال على النوائب، وسدِّهِ الخلات ودفع المصائب، أو سماحة خلقاً وطبعاً. والكل محمود وهو به مشكور ومأجور، ومن المهلكات الرغبة في المال والحرص والجمع والمنع. وقد ورد: « ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خيرٌ لك، وإن تمسكه شرٌ لك، ولا تلام على كفافٍ». فتأمل ذلك واعمل بما هنالك. فالإِمساك لفضل أموالك عند طلب الحاجة، وظهور الفاقة، ورجحان المصلحة مذموم شرعاً وعقلاً، والإِمساك يجلبُ شيم الأراذل، ويكسب لؤم اللئام الأناذل. من الشح والبخل. الذين نهى الله ورسوله عنهما، ومقت أهلهما. ففي الحديث: «البخيل ممقوت عند الله، ممقوت عند الناس. والسخي محبوب عند الله، محبوب عند الناس». قال تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وأحق الناس بسماحتك وكرم أخلاقك أهلك وجيرانك، ورحمك وعبيدك. ففي الحديث: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» قال الإِمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - «حُسن الخلق ثلاث: كسب الحلال، والتوسعه على العيال، واجتناب المحارم في عموم الأحوال» فافهم والزم. وفي الحديث «خيركم من يرجى خيره، ويؤمن شرّه». وفي الحديث: «ما نقص مال من صدقه ولا عفى رجل عن مظلمة إلاّ زاده الله بها عزّاً» وفي

الحديث ترغيباً في الهدية: «تهادوا فإن الهدية تذهب غل الصدور، تهادوا فإن الهدية تذهب السخيمة، تهادوا تحابوا» وفي الحديث: «اتقوا الشحَّ فإنه أهلك من كان قبلكم». وأيضاً: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» وأيضاً: «داووا مرضاكم بالصدقة» وفي الحديث: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» وفي الحديث: «من آتاه الله خيراً فليُرَ عليه» يعني آثاره، ويتحدث بالنعمة عليه. وقد ورد الندب إلى التجمل في اللباس من غير تكلف فيه، ولا شهرة؛ فإن ذلك يدعو إلى التصنع والرياء المذموم، ومن السنّة أيضاً البذاذة وهي الرثاثة فقد ورد البذاذة من الإيمان، وهي معينةٌ على القناعة، والتقلل من الدنيا وعلى التواضع، وهما خلقان جليلان. فينبغي اختيار البذاذة لذلك. وفي الحديث: «السماح رباحٌ، والعسر شؤم» وأيضاً: «التدبير نصف العيش، والاقتصاد نصف الكسب». وفي الحديث: «ما عال من اقتصد» والإقتصاد في النفقة على نفسه وعلى غيره مندوب إليه شرعاً. قال تعالى: ﴿والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾. ففي الحديث يمدح أشياء ويحث عليها. منها البذل في العسر واليسر، والاقتصاد في الغناء والفقر. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب البيت الخصب» وقال عمر - رضي الله عنه - أكثروا خير بيوتكم من الطعام والشراب، فرب رجل كثير المال قليل خير البيت. وقال الحسن البصري: ليس في الطعام إسراف، يعني إذا وسع على عياله وأهله فيه؛ فإن بها تكون نفس الولد سخية، وهمّته عليةً، وسيرته سنية، وطبيعته غير دنية؛ فافهم. ويقال: إن من الجور أن تحرم عيالك، وتعطي ضيفانك. واعلم أن التقلل والإقتصار في التمتع بالحظوظ المباحة مندوب إليه جداً، والإسراف والانهماك فيها مذموم جداً. وقد ورد: «وإيّاك والتنعم؛ فإن عباد الله ليسوا بمتنعمين» بل قال أهل العلم يحرم الأكل بعد الشبع؛ لأن فيه مضرة الجسد وتضيعاً للمال بلا فائدة. قاله الإمام ابن العماد وغيره؛ فينبغي للمرء الاقتصاد في المأكول لذلك. فتفطن لهذا واعمل بما هنالك. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن بات جائعاً وأصبح غازياً. قالوا كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: من كثر عياله، وقل ذات يده، وحسن خلقه معهم يدخل ضاحكاً ويخرج

ضاحكا، أنا منهم وهم مني، وهم الحاجون الغازون في سبيل الله». ذكره الشيخ عبد العزيز الديريني - رحمه الله - في (شرح اسماء الله الحسنى) والاقتصاد مندوب إليه شرعاً في النفقة بكل شيء في الغناء والفقر. وخير الأمور أوسطها الحديث. وهو أعون على الدين خاصةً في حضرموت؛ فإنها قليلة المدد لا تحتمل غيره، والرفق خير كله، ولا يجوز تكليف العبد والبهيمة ما لا تطيق من الخدمة، ولا تجويعها كما قاله العلماء. ولله درّ من قال في مدح الاقتصاد:

لَعمرُكَ ليسَ إمساكي ببخلٍ ... ولكنْ لاَ يفي خرجي بدخلِي
وفي نفسِي السماحةُ غيرَ أني ... عَلى قدرِ الفِراشِ مَددتُ رجلِي

فتأمل كل ذلك ترشد إن شاء الله تعالى.

فائدة ١٧

في التحذير من شؤم المعاصي والمحظورات

قد سبق أول الكتاب ذكر فوائد الطاعات. فبالمعصية تنعكس فوائد الطاعة بضدها. فتأمل ما تقدم فيها. وقد نهىٰ الله عن معاصيه كلها، وزجر عنها وأوعد عليها بعقوبته عاجلاً وآجلاً. فقد قال الله تعالى: ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ وقال تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ وقال تعالى: ﴿ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾. وقال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وقال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ فيا أخي انظر إلى شؤم المعصية، ووبال الجريمة فيها حل بأهلها المقت، ونزل بهم الأمر، وأحاطت بهم خطيئاتهم، وحاق بهم المكر؛ فخسف بهذا وأغرق هذا، ومسخ هذا، وحرم الرزق هذا، وسلط على هذا الشيطان القرين يتخبطه. وبها هتك ستر صاحبها، ومقت ذكره؛ فكان بغيضاً عند الله، بغيضاً عند أهله، وعند الناس ثقيلاً ذكره، مملولاً وجهه، مقتراً عليه رزقه، حرجاً صدره، سيئاً خلقه، معسرة عليه حوائجه، منكدة عليه أموره. فقد وكل إلى نفسه وشيطانِهِ إلى أن يرجع إلى ربه، ويتوب ويقلع صدقاً من ذنوبه، ويؤب قال الله تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾ فلا يخفاك يا أخي أن جميع النقم إنما حلت، وجميع النعم إنما سلبت، بسبب الذنوب والجراءة على المبارزة بها لعلاّم الغيوب؛ فإنما قحطت السماء، وقبضت بركاتها، ومحقت

الأرزاق والسعي وتسلطت الظلمة بالجور والبغي، وخربت الديار والمناصب، وذهبت المسار، وتبدلت المراتب وتعسرت جميع الأمور، وانتشرت على الناس الشرور. كل ذلك بسبب شؤم المعصية، ووبال الخطيئة. قال الله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ هذا العذاب وأضعافه في الدنيا، ولعذاب الاخرة أكبر لو كانوا يعلمون. فأهل الجهل والبخل أشقياء في الدنيا، وأشقياء في الآخرة. نسأل الله العافية. فيا أخي أصلح أمرك في سرك وجهرك يقيك الله شرّك، ويجمع عليك أمرك، ويطيّب لك ذكرك في الدنيا والاخرة، وبين الناس وعند الملأ الأعلىٰ، ويسخر لك بالنفع كل شيء. واخلص عبادتك لله وحده. لا تشرك به شيئاً. فقد كان أئمة السلف وسادة الخلف من العلماء العارفين، والعباد الصالحين إذا أصابتهم مصيبة، أو نزل بهم مكروه يقولون: هذه المصيبة بذنوبنا، ويتنبهون من رقدة الغفلة، ويفزعون إلى التوبة وإلى الذكر والصلاة والصدقة، ويرجعون إلى ربهم، ويتفقدون أحوالهم ويصلحونها، ويتداركون ما فرط منها. حتى نُقل عن بعضهم أنه قال: إني لأعرف عقوبة ذنبي بسوء خلق حماري، أو انقطاع شَرَك نعالي؛ تصديقاً منهم لقول الله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة﴾ وأجلُّ الثواب المعجل على الطاعة أن لا يفرغ منها إلاّ ووفقه الله تعالى لمثلها أو خيرٍ منها، وأشد العقاب المعجل على المعصية أن لا يخرج منها إلاّ وأوقعه الله في مثلها، وشر منها. قاله العلماء العارفون ـ حفظنا الله وإياكم ـ بما حفظ به عباده الصالحين ونفعنا ببركاتِ حزبه المفلحين، ولله درّ من قال:

كلُّ يومٍ لاَ أعْصِي اللهَ فيه ذاكَ عِنْدي حقيقةً يومُ عيدِ

وفي الحديث: «اتبع السيئة الحسنة تمحها».

وقال الإمام علي بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ في يوم العيد: «اليوم لنا عيد، وغداً لنا عيد وكل يوم لا نعص الله فيه فهو لنا عيد» فتأمل ذلك واستعن بالله. ولله درّ من قال:

وإذا المليحُ أتىٰ بذنبٍ واحدٍ جاءت مَحاسنُه بكلِّ شَفيعِ

وأمارة قبول التوبة والشفاعة والعفو عن السيئة الحفظ عن السيئة والتوفيق للطاعة، فيما أقبل من الوقت. كما قاله العلماء العارفون فطوبىٰ لمن طال عمره في طاعة الله، وكثرت حسناته، وزادت بركاته. وتباً لمن طال عمره في معصية الله، وكثرت سيئاته، وتزايدت عقوباته. فيا ليتنا إذا حرمنا نيل المكارم والمراتب، سلمنا عن كسب الجرائم والمعاطب. اللهم أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، في الدين آمين. آمين. آمين.

تبصرة

فيما عمّت به بلوى أهل هذه الجهة - أعني حضرموت - وهي سبب بلواهم وفتنهم وضنك معيشتهم وغيرها من المحن والفتن . وفيها تنبيه وتذكرة نافعة لهم إن شاء الله تعالى

اعلم أن القلب يكون فعله المنسوب إليه، المؤاخذ به عن إرادة واختيار لا يغلب عليه الإكراه؛ فلهذا تجاوز الله عن المكره. فلو أكره إنسان على فعل فعلة مكرهاً لم يضره لعدم اختياره وقصده. إذ القلب مطمئن بضده، متميز عن رغبته وودّه. «وإنما الأعمال بالنيات» الحديث. فمن هنا قال تعالى: ﴿إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ عذره في فعله. وجوزي على ما انطوى عليه ضميره، وانشرح به صدره، واطمأن به قلبه. وهذا من أعظم المِنن على العباد، والمسامحة لهم وفي الحديث: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ثم بلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه». فقد حصلت النجاة والسلامة لمشاهد المنكرات في طريقه اتفاقاً لا عبثاً قصداً إذا كرهها، وأنكرها بقلبه لعجزه. كما ذكرناه لكنْ من رضي بفعله ولم يكرهه بقلبه كان كفاعله في الوزر، وهذه المسامحة نعمة من الله على المؤمنين الكائنين في زمان الفتنة. قال الله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فنحمده على نعمته وسعته؛ فإذا قوي إيمان العبد ورسخ قدمه فيه لم تضره وقوع الفتن في عصره، ولم ينقصه فساد الزمن عن رتبته وخيره، وكان صالحاً بكل مكان، رابحاً في كل زمان. فالله الله يا أخي في تصحيح إيمانك وتأييده بأنوار القرآن، والأخبار النبوية، ومجالسة العلماء والصالحين، أهل الرسوخ في الإيمان واليقين، فإنما دخل كل نقص على صاحبه لضعف إيمانه، ولعدم أنوار اليقين. فالجهل أصل كل نقيصة وشقاوة وخسران. والعلم أصل كل خيرٍ وسعادةٍ وقربان فإنه، لا تصح العبادة لله إلاّ بالعلم، ولا تصح النية إلا به، ولا يصح الزهد، وتحتسب الأخلاق الحميدة إلاّ به. فالجاهل يضيع عمره وسعيه وان كبر سنه، وشاب شعره، وامتد زمنه. حكي

أن السيد الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن بن الحاج بافضل ـ رحمه الله ـ أنه في حجته رأى بعرفات وقت الوقوف رجلاً ساتراً رأسه، فنهاه فقال له: يا سيدي إني لست حاجاً ولا معتمراً. فقال له يا أخي كيف هذا وقد حضرت في هذا الموقف الشريف؟ فقال يا سيدي: إنما أحضرني هنا صحبة بعيرلي. إني كنت جمالاً اكترى جمالي رجل من الشام ليحج عليها، فسرت معه لذلك أرعى جمالي، فقال له الفقيه عبد الله: يا أخي قد ضيعت نفسك. قد تعنيت إلى هنا من شُقةٍ بعيدةٍ. هلاّ احرمت بحج وعمرة فقال يا سيدي ويصلح ذلك للجمال؟ فقال نعم. فبكى الجمّالُ وتحسّر كثيراً على ما فرّط. فانظر إلى ضرر الجهل على أهله وضياع أعمارهم بسببه وقس على هذا جميع أعمالهم وأحوالهم. وقد عمت البلوى في جهة حضرموت بعموم الجهل في أهلها. وبالجهل تفسد الأعمال والأحوال، وتخرب البلاد والعباد، وتشيع الفاحشة والفساد. فالجهّال أشبه بالشياطين في أقوالهم وأفعالهم، وأقرب إلى البهائم في طباعهم وحظوظهم، وقد كانت هذه الجهة معمورة بالدين في سالف الزمن، والعلم منتشر فيها مُعظّمٌ بين أهلها، والصلاح غالب فيهم. حكى المؤرخون: أنه كان في بلد (تريم) نحو ثلثمائة مفتياً، وفي (شبام) نحو ستين مفتياً، وقاضٍ شافعي، وقاضٍ حنفي. وفي (الهجرين) قريبٌ من ذلك. واليوم قد ضَعُفَ الأمر كله ـ كما ترى ـ فيها، والحمد لله على كل حال. وأصل الجهل وعمومه في هذه الجهة سببه جهل الولاة والأمراء، واستمرار الغفلة عليهم، وعدم شفقتهم على الرعية. وقِلّ المبالاةِ بصلاحهم وشأنهم، وتركوا تفقدهم، ووكلوا كلاً بنفسه وهواه؛ فضاعت المصالح وعمل كل برأيه، واتبع هواه. وهذه مصيبة عليهم وعلى الرعية، عظيمة في دينهم ودنياهم؛ فإنما يتيسر العلم في كل جهة، ويرغبُ فيه أهلها، ويحترم بترغيب الولاة والأمراء فيه، وإعانتهم أهله وإعزازهم لهم وإكرام العلم. وولاة هذه الجهة بضد ذلك كله. وقد أشار إلى نحو ما ذكرناه في أهل حضرموت ابن سمرة اليمني في تاريخه: وقُبْحُ خِصالهم سبب جهلهم. وقال: وادي حضرموت أكثر سكانه البدو، وكسكان البادية وقد قبّحهم وذمهم بالجهل الشيخ الجليل على بن أبي بكر علوي ـ رحمه الله ـ في كتابه (البرقة)،

ووصفهم بالجهل والجفاء. فمن جفائهم للعلماء والمشايخ الأجلاّء من أهل جهتهم أنا لم نجد بعد البحث عن حال من مضى من مشائخنا وعلمائنا فائدة في الدين نسبت إليهم في ديوان، أو نقلها أحدٌ إلينا عنهم، إلاّ نوادرٌ شاذة مع كبر الحال وسعة العلم فيمن مضى. فمن هنا ضاعوا. وخمدت أنوارهم، وذهبت علومهم وآثارهم، وخفيت بركاتهم وأسرارهم بموتهم وانقراضهم ودفن أمرهم، وشأنهم بدفنهم ودرست آثارهم كأن لم يكن منهم بالأمس أحد، وأهل كل جهة مع أكابرهم ليسوا كحال أهل هذه الجهة، كما ترى والله المستعان. وذكر من أثق به أن بعض الأكابر من علماء أهل السنّة طاف في بلد (حضرموت) للزيارة، فأقام (بهينن) أياماً، فشهد علامة عموم الجهل في الجهة كلها، فقال يوماً لجلسائه: من أراد أن يتعلم الجهل بالدين، وبسيرة الصالحين، فليسكن ويقيم بهذه الجهة. فأحوال أهلها أشبه بالبدو. وسكان البادية يغلب عليهم الجهل والجفاء. وقد ورد: «من بدا جفا» الحديث. فالجهل ظلمة لا يجلوها إلاّ العلم، وداء لا يشفيه إلا العلم. وقد ورد: «إنما العلم بالتعلّم» فبالجهل يضيع العمر، وتفسد النية والعقيدة. فمن ذلك ما حكى الفقيه الورع عبد الله بن عبد الرحمن باوزير في كتاب (مناقب الشريف الشيخ العيدروس) ـ نفع الله به ـ أن واحداً من كبار آل عامر (بالسور) أرسل حليفه الملكي إلى دويس والي (تريم) لقصة بين القبائل، فجاء الملكي يستودع من الفقيه باوزير فقال له: إذا دخلت (تريم) فاقصد أولاً بيت الشيخ العيدروس، واطلبه الدعاء لك، ولقضاء حاجتك. فوصل الملكي إلى (تريم) عازماً على ذلك. فوجد فيها رجلين من آل عامر، فأخبرهما أنه يريد زيارة الشيخ فقالا له: نحن نذهب معك إليه عسى يعطينا تمراً وحنيذاً. فذهبوا إلى بيت الشيخ فوجدوه عند الباب فبدأهم وقال لخادمه: هذان طلبا منا تمراً وحنيذاً فاعطيهما إيّاه، وهذا جاءنا زائراً تحصل له البركة منا مع الطعام. وذكر أيضاً الفقيه علي باعكابة الهويمل في مناقب الشيخ سعيد بن عيسى العمودي ـ رحمه الله ونفع به ـ قال: عزم رجل من آل بخضر لزيارة الشيخ سعيد بقيدون، فوافق رجلاً من آل محفوظ بالطريق فأخبره فقال له: نذهب معك يعطينا صحفة تمر، فلما وصل ابتدأ الشيخ سعيد وقال لخادمه: هذا جاء يطلب منا

تمراً فاعطه صحفة تمر، وهذا جاءنا زائراً تحصل له البركة والضيافة الحسنة. ولقد صدقا ونصحا. فاعتقد في الزيارة لعباده الصالحين وفي التعلق بهم حصول البركة، والنفع لك في دينك وآخرتك. فقد ورد أن الله يعطي الدنيا على نية الآخرة، ولا يعطي الآخرة على نية الدنيا. فاحتذر أن تطلب منهم حظوظ الدنيا، وبمجردها تحرم النفع وتندم. وقد ورد «إنما لكل امرىء ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدينا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» حديث صحيح. وبالجهل تفسدُ النية، وتبطل العقيدة ويضيع العمر. فقد ورد: «لولا العلماء من بعدي لرجع الناس إلى الجاهلية الأولى» يعني فدرستِ الأحكام، واختلط الحلال بالحرام، وذهبت شعائر الإسلام، وتزعزعت قواعد الدين على جميع الأنام؛ فإنما العلمُ بالتعلّم منهم الحديث. وقد ورد أيضاً في الأخبار والآثار ترغيب كثير في التزاورِ في الله تعالى، وفي المشي لزيارة العلماء والصالحين. ولو بالرحلة إليهم حيث كانوا. والأصل في ندب التزاور والملاقاة بين الأحياء للفائدة الحاصلة العاجلة بينهم، وزيارة قبور الأموات تبعٌ لها، وزيارة الحيّ أفضل من زيارة الميت، وفوائده أعظم وأنفع. وقد ورد الترغيب في زيارة الصالحين أحياءً وأمواتاً. وفضلُها عظيم والدعاء في مجالسهم وعند قبورهم مستجابٌ، والرحمة تنزل عليهم، وتعم الحاضر والزائر، وهذه الخصوصية للمحب الزائر فافهم. وقد ورد في ذلك أدلة واضحة، ونقلت عنهم في إجابة الدعاء وقضاء الحاجات وتفريج الهموم، بل وصفاء الأسرار وحصول العلوم الإلهامية، ودرك الأمور الغيبية بالفتح على الزائر بسببهم حكايات صالحة، وروايات راجحة، وذلك بقدر الصدق وقوة العقيدة، وجمع الهم. فقد ورد إذا خرج الرجل ماشياً لزيارة أخ له في الله تعالى تحفُّه الملائكة، وتستغفر له وتقول: طبت وطاب ممشاك وتبوأ منزلاً من الجنة. الحديث، وقد روي واشتهر عن الفقيه الكبير محمد بن الحسين البجلي اليمني - رحمه الله - أنه رأى رسول الله ﷺ في منامه وقال: يا رسول الله: أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال له وقوفك بين يدي وليّ لله تعالى كحلبةِ شاةٍ، أو كشج بيضةٍ أفضل من أن تعبد الله حتى تتقطع إرباً إرباً. فقال: قلت يا رسول الله: حيّاً كان أو ميتاً؟

فقال: حيًا كان أو ميتاً. فانظر إلى هذه الفضيلة الجزيلة الحاصلة في زيارة عباد الله الصالحين، والوقوف عند مشاهدهم ومقابرهم، والدخول تحت شمولهم التماساً لبركاتهم، ورجاءً لنيل نفحاتهم. إذ الحصول على قدر استمدادهم، وذلك ما لا تبلغه بعلمك أصلاً. فالله الله يا أخي في طلب زيارتهم، والتردد إليهم طلباً لنفاعتهم وشفاعتهم، أحياءً وأمواتاً. واحفظ لهم الحرمة، والتزم معهم الأدب، واعتقد فيهم بحسن الظن التام، وصحة العقيدة؛ فإنما لكل امرىء ما نوى الحديث. ويروى عن السيد الصالح أبي بكر بن عبد الله باصهي ـ رحمه الله ـ أنه سافر مع جماعة للحج، فلما وصلوا بعض القرىٰ أرادوا أن يذهبوا عنه لزيارة من في مقبرتها من الصالحين الميتين. فقال لهم: ويحكم يا هؤلاء تذهبون إلى زيارة الميت وأنا عندكم حي بين أظهركم؟ زيارتكم لي وملازمتكم معي خير لكم لو كنتم تعلمون، يشير إلى تفضيل زيارة الحي على الميت، وإلى أن الفائدة حاصلةٌ ناجزةٌ ظاهرةٌ في زيارة الحي أكثر من الميت، وهذا ظاهرٌ إن النظر إلى وجه الصالح عباده، وكلامه علم وحكمة. والمرء من جليسه الحديث. فافهم. والله أعلم. وحكي أن البهلول أبا بكر باجعفر التريمي ـ رحمه الله ـ خرج يوماً لزيارة مقبرة (شبام) المشهورة، وكان كثير التردد لزيارة الأموات، فصادف في خروجه وقت زيارة الناس لها، ومجيئهم إليها من أماكنهم المختلفة، فرأى الناس في زيهم ولباسهم وهيئتهم متزينين متعطرين بالزينة والطيب، كفعلهم يوم العيد وهم يترددون بين المقابر كعادتهم في ذلك، وكان البهلول ينظر إليهم ويتعجب من حالهم، فقيل له: من أي شيء تتعجب؟ فقال: أعجب من غفلة هؤلاء الناس وقساوة قلوبهم، كأنهم لم يؤمنوا بيوم الحساب، ولم يؤمنوا بالموت والذهاب، ولم يشاهدوا هذه المقابر ما بين الأعداء والأحباب، وإنما أمر الله ورسوله العباد الأحياء أن يزوروا الأموات، ليعتبروا بهم وينظروا إلى مصارعهم. وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فصاروا هموداً تحت التراب. فالزائرون لهم، الناظرون إليهم يعتبرون بهم، وتقصر آمالهم في الدنيا، ويزهدون في التمتع بها، وينجدد ذكر الموت هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ويقوي الإِستعداد ليوم المعاد؛ فحينئذ يخشع الزائر ويرق قلبه، وتذهب قساوته، ويحصل

ندمه وتوبته، ويرجع إلى ربه. فقد قيل: زر القبور تذكر به الآخرة، فانعكس اليوم حال الناس، وغلب عليهم الهوى والوسواس، فصارت المقبرة عندهم كميدان اللعب واللهو، ويخرجون إليها بالزينة والطيب والزهو، وهذه العادة القبيحة غالبة على الزوار من أهل هذه الجهة؛ وسببه عموم الجهل في كلهم إلاّ من شاء الله، وقليل ما هم. فالله الله يا أخي في إصلاح نفسك ونيتك وعملك قبل حلول رمسك. فالرجل يدرك بصدقِهِ في زيارته لأهل الله وأهل حضرته، وقربه وحبه الأحياء منهم والأموات الأنوار العالية والأسرار الغالية ويبلغ أمنيته، ونجح حاجته. فمن المقابر المشهورة المقصودة للزيارة في هذه الجهة ثلاثة مقبرة (تريم) المحروسة، فهي محشوة من المشايخ العارفين والعلماء العاملين، والزهاد والعباد الورعين الخاملين والمشهورين من أهلها وغيرهم، خصوصاً من السادة الأشراف أهل البيت ـ رضي الله عن الجميع ـ والثانية: مقبرة (شبام) المحروسة، فهي أيضاً محشوة ممن ذكرناه من أهلها وغيرهم المشهورين والمستورين. والثالثة: مقبرة (الهجرين) المحروسة فهي أيضاً محشوة من أمثال ما ذكرناه من أهلها وغيرهم المشهورين والمستورين وأيضاً فمقبرة (قيدون) محشوة ممن ذكرناه من أهلها وغيرهم، إذ هي محل أهل العلم والعبادة لحصول إعانتهم فيها، ورفقهم بالكفاية بها، قديماً وحديثاً وغير ما ذكرناه في الجهة من المقابر ولله درّ من قال في زيارة مقبرة (تريم) خاصة أهل البيت فقال:

مَنْ زارهم يُعطى مناهُ | في الدّينِ والدُّنيا الجميعْ
يُبشر يقع له ما يَشاه | مِنْ ربّنا المولىٰ سريعْ
في طولِ عمرِه والحياة | والنور في القبرِ الوسيعْ
بالأنسِ باللهِ ممتلي | مِنْ سرِّ أهل الفضائلْ

فينبغي لكل عاقلٍ أن لا يترك الزيارة ولو بالرحلةِ إليهم من بعيد، خصوصاً إذا خاف محذوراً، أو أهمّه أمراً يستغيث بهم في نجح حاجته وكفاية

همّه يقال: إذا تحيرتم في بعض الأمور، فاستعينوا فيه بأهل القبور. ومما يتأكد الإِعتناء بزيارته خاصة على هذه الجهة قبر النبيّ الكريم المشهد الجليل العظيم قبر نبي الله ورسوله هود عليه أفضل الصلاة والسلام بأسفل حضرموت المعهود اليوم؛ فإنه يرتجى في زيارته من النفاعة والشفاعة أضعاف ما يرتجى بزيارة غيره من الأولياء المذكورين. وقد قصده في هذ الموضع لزيارته من العلماء المعتبرين، والأئمة المعتمدين، والمشايخ العارفين الناظرين بنور الله، الصادقين من أهل هذه الجهة وغيرها من الجهات - قديماً وحديثاً - من لا يحصره حاصر. وقد ذكر أهل التواريخ المعتمدة كالإِمام أبي العباس الثعالبي وغيره، وكذا أفتى غير واحد من أكابر العلماء: أن قبر نبي الله هود بأسفل حضرموت، كما هو اليوم المعهود، فعليك يا أخي بقصده وزيارته بحسن الظن التام، وصدق العقيدة التامة الكاملة؛ فإن عجزت لعذر منعك فابذل الأجرة لمن يقصده لأجلك، ويرد السلام عنك عليه، ويقف عنده بنيتك، ويدعو لك بما تريد، ويسأله الشفاعة لك، والكرامة دنيا وأخرى. ففي هذا الفضل الجليل، والخير الجزيل. أصلح الله لنا المقاصد ويسرّ لنا من الخير الموارد آمين. أخبرني الفقيه الصالح المقدم بحوطة الخميلة الشيخ عثمان بايزيد - رحمه الله - قال: روي أن رسول الله ﷺ مرّ يوماً في مقبرة الموتى، ومعه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فرفع الله العذاب عنهم مدة، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ أن السبب في تخفيف العذاب عن أهل المقبرة أن شعرة واحدة سقطت فيها من لحية أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فخُفِّفَ عنهم بسببها كرامة للصدِّيق - رضي الله عنه - وإن لم يعلم هو بذلك. فانظر يا أخي إلى هذه الحكاية، وتبرك بالصالحين، واعتقد البركه والنفع في آثارهم وملابستهم، وما ينسب إليهم. نفع الله بالجميع آمين. ولله درّ من قال:

لله قـومٌ إذا حـلّـوا بـمـنـزلـةٍ ... حلّ الرضـا ويـسـيـرُ الجودُ إن سارُوا
تَحيـا بـهـم كـلُّ أرضٍ يـنـزلـونَ بـهـا ... كـأنّـهـمْ لـبـقـاعِ الأرضِ أمـطـارُ

أخبرني الشريف الصالح أبو بكر بن عبد الله عيديد التريمي - رحمه الله - قال: سُئل بعض المشايخ الأجلاّء وقيل له: إنّا نرى كثيراً من مساكين الصوفية

وربطهم، وأماكن اجتماعهم تخرب بعد موتهم، وتهجر؟ فقال: نعم إنما ذلك غيرة من الله عليها؛ لئلا تتبدّل مواضع قد غشيها من الله الرحمة، وشملتها الأنوار والسكينة، ونزل بها الأسرار والعناية فلا تمتهنها الجهلة، وتتردد بها أهل الغفلة أو يَعصيَ اللهَ بها فاسقٌ فيحصل بخرابها هجرانها، وبهجرانها حفظها وصونها عما ذكرناه، وبهذه سعادة البقعة وتشرفها فافهم هديت. وقد ذكر العلماء في الزيارة من الوظائف والآداب عند الزيارة ما لا يسع جهلُهُ، ويتأكد علمهُ وعمله فلا تهمله أصلاً. واعلم أن حرمة المؤمن ميتاً كحرمتهِ حيًّا. فاعرف له ذلك، والزم. ومن أفضل الوقت للزيارة الأيام الفاضلة كيوم الجمعة، ويوم عرفة وشبه ذلك. واعلم أن التصدق والإعانة والرفق لجميع الخلق ـ أحياءً وأمواتاً ـ محمود جداً، قد ندبت إليه الشريعة، ورغبت فيه خصوصاً في حين الفاقة، وشدة الحاجة. فهنا يتعاظم الفضل. فاحرص على إنفاقك وإيصال نفعك بقدر طاقتك لجميع الخلق. ففي ذلك الفتح من الله بكل رزق، بل يحسن أن تدعو لكل آدمي من الأحياء باللطف في دنياه، وبالهداية والتوفيق له في الدين. ولو كان من الفجار والكفار فيرتجى ذلك لهم ما دامت المهلة. ففي الحديث: «في كل كبد رطبة أجر» فهذا يشمل الصدقة على كل حيوان حي بنفعه وبصيانته عن مضرته؛ آدميًّا كان أو بهيمة أو خشاشاً صغيراً أو كبيراً، بل وإنساً وجناً أحياءً وأمواتاً، لكلٍ بما يليق به وينفعه من مطعوم وغيره من سائر المنافع. فافهم هديت. فقد رغب أهل العلم في التصدق على الأموات، والدعاء لهم في سائر الأوقات، وإهداء الثواب إليهم فيما يزيد من أعمال البر والمثوبة. فقد دلت الأخبار الصحيحة على نفع الأموات بذلك، ووصول الثواب إليهم، ورفع درجاتهم ودخول المسرة عليهم، أعني بهدية الأحياء إلى الأموات؛ فإن الروح بعد الموت حياتها باقية، وهي منعمة أو معذبة، ذاهبة إلى حيث شاء الله تعالى. قاله أهل التحقيق، وأيضاً فينبغي للمؤمن العاقل أن يعم بنفعه أهل الجن. فحكمهم كالإنس فيما ذكرنا ـ أحياءً وأمواتاً ـ فيشركهم في دعائه وإنفاقه وصدقته، وإهداء الثواب إلى الأموات، وفي رد السلام على أهل البيت عند دخوله بيته، وما أشبه ذلك. وبالسلام عند الانصراف من صلاته كذا، ذكرهُ غيرُ واحد من العلماء وأيضاً يعم بدعائه الملائكة والطوافين

من عباد الله، كذا ذكره غير واحد من أهل العلم فحكم أهل الجن كالإنس إذ الشريعة واحدة، والرسول إلى الكل واحدٌ. والثواب والعقاب كذلك، ومنهم البرُّ والفاجرُ والمؤمنُ والكافر فيدخل الجنة المؤمن ويدخل النار الكافر كالإنس في سائر الأحكام كذا ذكره أئمة السنّة والجماعة. فالله الله في الصدقة خصوصاً في كل وقت على الأموات. فقد انقطعت عنهم أعمالهم، وانقطع طمعهم حالاً من المنفعة إلاّ من جهة الأحياء. ففضلها عظيم ويرجى لصاحبها حسن الخاتمة. واعلم أن مذهب الشافعي والجمهور أن الخوارج لا يكفرون، وكذا القدرية والمعتزلة وسائر أهل الأهواء المبتدعة. ذكره الإمام ابن أسعد اليافعي وغيره. فالله الله يا أخي. احفظ الحرمة لكل من في دائرة الإسلام؛ ولو كان من المبتدعة والفجار، ولا تحتقر أحداً من أهل القبلة المحمدية، فالكل في مشيئة الله يرتجى لهم المغفرة والشفاعة فلا تقطع بشرٍّ على أحدٍ منهم في الآخرة، فما تدري ما عاقبته، فلا يخلد في النّار مسلمٌ وإن كان ذا كبائر كثيرة، ولو عذب بحسبها فيخرج من النار إلى الجنة لحرمة الإسلام. قاله أهل التحقيق وادع لكل مسلم بالهداية والعفو والتوفيق والمغفرة، وعمَّ بدعائك كلهم فإن الله يحب التعميم في الدعاء، لما ورد في الحديث وأيضاً: ودعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجاب، وقال رسول الله ﷺ: «إن لجهنم باباً لا يدخله إلاّ من شفا غيظهُ بمعصية الله تعالى»، وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي فقالت: سعد من دخلني، قال الجبار سبحانه: وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس. لا يسكن فيكِ مدمن خمر، ولا مصرٌّ على الزنا، ولا قتات، وهو النمام، ولا ديوث، ولا شرطي، ولا مخنث، ولا قاطع رحم، ولا الذي يقول علي عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يفِ به». ذكره في الإحياء فتأمل هذا. فقد عمت الفتنة في هذه الجهة بكثير من هذه الفتن على أهلها، وشملت العقوبة للكل بسببها، وانتشارها وعدم إنكارها. فمن لا علم له ولا بصيرة ولا معرفة عنده، قد يتلبس عليه الرياءُ بالحياء، والحسد بالغبطة، والعجز بالتوكل، وقلة الغضب وضعف الغيرة بالحلم وحسن الخُلُق. فيستمر في ذلك الباطل، ويظن أنه على طائل. فتأمل ما ذكرناه ترشد إن شاء الله تعالى.

فالله الله يا أخي في إصلاح شأنك، وحفظ وقتك، وتفقد قلبك، والمصابرة على فعل الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالمصابرة عليه من أفضل الجهاد في سبيل الله، والنصرة للدين. فافهم والزم وأكثر الفتن في هذه الجهة إنما انتشرت وغلبت من النساء، وإهمال الرجال القوامين عليهن لهن، وهذا من عموم الجهل فيهم، وغلبته عليهم، وبالجهل يفسد الدين والدنيا، ويستولي الشيطان على أهله: ويلعب بهم كما يلعب الصبيان بالكرة. يقلبهم كما أراد. أعاذنا الله منه ومن كل فتنة آمين. وإذا ضعفت الحَميّة من الرجال، والغيرة على الحرم والنساء؛ انتشرت منهن الفواحش وخِلطة المرأةِ الفاسقة للنساء حرام؛ وإن كانت الأمُ لبنتها مثل الرجالِ الأجانب، بل أشد. قاله العلماء. قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ يقال كل أُمةٍ وضعت الغيرة في رجالها، وضعت الصيانة في نسائها. وكل أُمةٍ وضعت الركاكة والضعف في رجالها، وضع التهتك والفاحشة في نسائها. وقد جعل الله حماية النساء على رجالهن إذ قال تعالى: ﴿الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ خلق النساء من ضعف، والرجال من قوة، وجرت بهذا سنة الله في خلقه. وقال رسول الله ﷺ: «النساء خلقن من ضعف وعورة، فاستروا عوراتهن بالبيوت، واغلبوا على ضعفهن بالسكوت. ومن بلغت له ابنته ثنتي عشرة سنة فلم يزوجها فأصابت إثماً فإثم ذلك عليه». الحديث ذكره ابن أبي الصيف وغيره. فرحم الله والداً أعان ولده على برِّه وأحسن أدبه، وصان دينه، ولو أنفق في ذلك مالاً كثيراً. وقد ورد الحث على إشاعة عقود الأنكحة، والنهي عن كتمها لأنه يترتب على كتمه مفاسد كثيرة. والنكاح من شعائر الإسلام. تتأكد إشاعته، وأهل هذه الجهة يخالفون ذلك كثيراً. وقد ورد: «أعلنوا النكاح ولو بضرب الدف» فتأمل ذلك. وقد وضع الله في النساء في الشهوة أضعاف ما وضع في الرجال، لكن وضع فيهن من الحياء المانع عن التهتك أضعاف ما وضع في الرجال من الحياء. فمن هتك حجاب الحياء من النساء ضاع، وظهر منه التهتك لغلبة الشهوة فيهن، وزوال المانع في الهاتكة لحجاب الحياء منهن. قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد أحب إليه المدح من اللّه تعالى» ومن أجل ذلك مدح نفسه وليس أحد

أحب إليه العذر من الله تعالى، ومن أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل قال الإمام أبو القاسم الصقلي ـ رحمه الله ـ العالم لا ينكر اليوم كل بلاءٍ نزل بالناس من خسف وقذف لِما يرى من تعطيل حدود الإسلام، وتضييع أحكام الإيمان. ومن منكر لا يغير، ومن معروف لا يؤمر به، ومن طلب دنيا بدينٍ؛ فتفطن لهذا وليس أحدٌ أغير من الله تعالى، ومن أجل غيرته حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وقد ورد: «المؤمن يغار وأنا أغيركم». وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الركاكة، لعن الله الركاكة» وهو الديوث الذي لا يغار على أهله، ووصفه بالركاكة مبالغة في الضعف. يقال رجل ركيك وركاكة إذا استضعفته النساء، ولم تَهَبْهُ، وتسمى أيضاً الخنوثة، فإن ضعف الحميّة والغيرة للرجل من أقبح الخصال، ولا يعد في الرجال. فأفٍ ثم أفٍ لرجل لا يغار على أهله وحرمه، وهن أمانة عنده. فقد ركنّ إليه وانطرحن بين يديه، وقد خلقن من الضعف والعورة. فالرجل محاسب بتضييعه لهن، مناقش بأشد الحساب، ومعاتبٌ ومعاقب أشد العقاب. وسواد الوجه بين الملأ، وعاراً له وشيناً. فأفٍ ثم أفٍ ثم أفٍ لرجلٍ لا يُهابُ، بل تترك نساؤهُ الصيانة لضعفه، ولا تهابه ولا تبالي به، فأفٍ ثم أفٍ لرجل يرضى لنسائه بالتهتك والوقاحة، وقلة الحياء. قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: للؤم بالرجل أن لا يكون غيوراً. أما يستحي أحدكم أن يخرج وامرأته تزاحم الناس في الأسواق والمجالس؟ وقال علي بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ بلغني أن نساءَكم يخرجن إلى السوق، يدافعن العلوج. قبّح الله رجالاً لا تغارُ. قبح الله رجالاً لا تغار. والرجل القوي الذكر الصلب يعينه الله، ويسدده لمحامد الصفات، ويصده ويحميه عن مذام الشيم والسمات. ومن لم يبال به تركه ونفسه، ينغمس في كل عارٍ ونارٍ، وينظم في سلك الأشرار، ويعوق عن سلوك سبيل الأخيار. وفق الله الأحبة لكل خير آمين. وكفىٰ نصحاً وتعليماً في شأن النساء، وتأديباً ما أنزل الله في كتابه في سورة النور وغيرها، وكفى قوله تعالى: ﴿يا نساء النبيّ لستن كأحدٍ من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض. وقلن قولاً معروفاً

وقرن في بيوتكن ولا تبرجنّ تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ وكل الصيانة للنساء في ملازمة البيوت كما أمر الله به ورسوله، فمن ترك نساءه يخرجن من بيوتهن ولو لزيارة القبور من غير ضرورة فقد عرضهن للضياع. والخير كله في ملازمة البيوت؛ فإنما عبادتهن وحرفتهن فيها كما أمر به في الحديث: لا يخرجن لذلك إلاّ وجد الشيطان إليهن سبيلاً. فقد عمت البلوىٰ في هذه الجهة بكثرة خروج النساء ليلاً ونهاراً من بيوتهن، عبثاً من غير ضرورة وإهمال الرجال لهن، وعدم الحفظ والمنع. فعمتهم الفتنة، واشتركوا فيها فـ ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ وأيضاً فالنساء يخرجن متزينات بثياب الزينة والحلي، وبالطيب والتعطر، والكشف من ذلك لما لا يحل كشفه. وقد ثبت النهي للنساء أن لا يبدين زينتهن إلاّ لبعولتهن أو المحارم، ويجب أيضاً منع النساء عن النظر إلى الرجال الأجانب من كوات البيوت. ولو أن يشُدهن. ولا شك أن ذلك كله يدعو إلى الفساد، والباعث لهن في الفساد؛ فيلزم الرجل القوّام عليها، الزاجرُ عن ذلك، فلا غرض فيه إلاّ لمفسدة. قطعت بذلك التجربة والمشاهدة، ولا ينكره إلاّ من غلب عليه الجهل والمعاندة. فالله يوفق الأحبة لكل خير، وما أنفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا جاء من أهل القدرة ونفاذ الأمر. كالولاة والأمراء، فيعم نفعه بلا مشقة، ويحصل الإصلاح، وينقطع كيد الشيطان، فافهم. والغيرة المحمودة والحمية هي المنع والدفع عن كل ما يدعو الأجانب إلى الخوض والتذكر لحرمه ونسائه، ولو من تحدث بذكرهن واستماع أصواتهن، ونحو ذلك؛ حسماً لمادة المفسدة: إذ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، والرجل مطلوب بالحمية والغيرة لذلك. وحكي أن الشيخ رشيد التريمي ـ رحمه الله ـ كان إذا دعا الضيف إلى منزله أخرج جميع ما في المنزل من ثياب نسائه، وما ينسب إليهن صيانة لهن. وكان أيضاً يتولى بنفسه غسل ثياب نسائه، يفعل ذلك مع كبر سنه وحشمته، ويدع بقية أموره إلى خادمه. وكان أيضاً لا يفعل لنسائه من الحلي العضاد المعروف الذي يلبس عند المرفق، ويقول لا يحل لهن كشف الساعد، وهن ضعاف العقل والدين، إذا حصل لهن

العضاد أظهرت الزينة، وكشفن ما لا يحل كشفه. فانظر صيانته وغيرته المحمودة فافهم. وقد انعكس اليوم الحال في الرجال، فغلبن النساء على الرجال، وانقادوا لهن في غالب الخصال، وفي ذلك يظفر الشيطان بهم فيما يريد. في الحديث في شأن النساء: «إنكن ناقصات عقل ودين» وكفىٰ بهذا نصحاً وتعليماً. والغالب في هذه الأزمنة المتأخرة، تساوي الرجال فيها والنساء في نقص العقل والدين إلاّ النادر، كما ذكره صاحب كتاب (طهارة القلوب) فتفطن لذلك. وقد ورد: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» وقال سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - شاوروهن وخالفوهن؛ فإن في خلافهن البركة. هذا في المرأة الصالحة الناسكة. فكيف بنساء أهل هذا الزمان وقد صرن ضحكة للشيطان؟ فالأمر الصادر منهن ليس في فعله بركة في المال والولد وشبهه. وقد ورد: إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم اسخياءكم وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خيرٌ لكم من بطنها؛ وإن كان أمراؤكم أشراركم، واغنياؤكم بخلائكم، وأمركم في نسائكم فبطن الأرض خيرٌ لكم من ظهرها. فاحتذر أن تكون تابعاً لهن فيما ينقصك في الدين، أو يحطك عن رتبة مروءتك وخُلُقِ أمثالك، فصلاح النساء في طاعة رجالهن القوّامين عليهن، وفساد الرجال في طاعة النساء لضعف عقولهن وفساد رأيهن. حكي عن بعض المشايخ المكاشفين من آل باوزير - رحمهم الله - قال بينما أنا منتظرٌ الصلاة في المسجد إذ رأيت إبليس اللعين دخل وقصد أهلِ المسجد، وبيده أزِمّة، فجعل يقلس كل واحد في رقبة رجل منهم، وترك أناساً منهم. فقلت: مالك يا لعين تركت هؤلاء؟ فقال: هم منقادون لي، يتبعوني بلا قلوسٍ. فقلت: لم؟ فقال: قد غلب عليهم حبُّ النساء وطاعتهن. يعني الزوجات. وفي هذه لقد صدق لقوله ﷺ: «النساء حبائل الشيطان» فتأمل فهن أصل كل فتنةٍ. وروي أن الشيخ الجليل إبراهيم بن محمد باهرمز - رحمه الله - كان يقول: ورد في الحديث «حبُ الدنيا رأس كل خطيئة» ونقول نحن: ورأس حبِّ الدنيا حبُّ النساء. وكان في حياته لم يتزوج حتى مات - رحمه الله - فسئل عن تركه له فقال: وإن كان النكاح سنة الأنبياء والأولياء الأقوياء، فنحن لا نقوم بحقوقه الواجبة بسببه، ونخاف أن نحفظ

سنة ونضيع فروضاً. ونقل نحو هذا عن بعض المشايخ الكبار من آل أبي علوي - رحمهم الله - وقد عمت الفتنة في هذه الجهة بتضييع الرجل حقوق الزوجة اللازمة لها، وتكليف الزوج لزوجته ما لا يستحقه عليها؛ ظلماً وعدواناً. فتأمل يا أخي نفسك، واصلح حالك، واجعل مالك وقايةً لعرضك، وصوناً لدينك. وأهل الفضل والمروءة يتناولون المال بسماحة النفس مع سلامة الدين، وصيانة النفس عن مواقف الذلة فيه، والعرض على اللوم فافهم. والأنذال يجمعون الأموال وإن تسخمت منهم الأحوال؛ فإنما خلق الله المال عوناً على الدين، وصوناً عن الشين. وأهل الفضل والعقل يسمحون بالكثير من المال لجلب جميل الأحوال، أو لدفع قبيح الخصال. واللئام بعكس ذلك في المثال. قال رسول الله ﷺ: «نعم العون على تقوى الله للرجل الصالح المال الصالح» قوله الرجل الصالح يعنى لزهده في الدنيا، وفراغ قلبه عن حب المال. وقال مالك بن دينار - رحمه الله - طوبى لمن كانت له غلة تقويه وتعينه، وتغنيه عن الناس. فالكفاف من الرزق أفضل من الغنى. والفقر عند جماعة من المحققين. فقد ورد: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنّعه الله بما رزقه» وورد: «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً» والمرجو أيضاً أنهم في الفضل صدر زمرة الفقراء السابقين. فتفطن لذلك، وينبغي للعاقل الحازم الاحتياط عند معاملة الناس، فيعتمد الأشهاد على كل المعاملات؛ قطعاً للخصومات، ودفعاً للمنازعات. فقد قال بوجوب الأشهاد فيه غير واحد من العلماء لقوله تعالى: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ إِذ الأمر للوجوب عند أهل العلم، ويقاس على البيع سائر المعاملات. فاعمل به خاصة في هذا الزمن الفاسد، للسلامة من الشرّ، والصيانة للنفس. وقال رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى لادم عليه السلام: قل لذريتك إن لم يصبروا فليطلبوا الدنيا بهذه الحرف التي تعلمتها أنت، وقد علمه جبريل عليه السلام ألف حرفة ولا يطلبوها بالدين. فالدين لي خالص.ويل لمن طلب الدنيا بالدين، وهنا مجال أهل الإِخلاص. فأهل الفضل والعلم والعقل يضعون الأشياء في محالها، ويردون الأمور إلى أصلها، ويؤدون الأمانة إلى أهلها. قد أوتوا الحكمة، وميزوا النعمة من النقمة. وأما الجهلاء فأنهم يخبطون ويخلطون فيها، ويغلطون فتفطن لذلك. وكان سلمان الفارسي الصحابي - رضي

الله عنه ـ إذا خرج له عطاءه فرّقه على الفقراء، وأكل من كدّ يده، وكان عطاؤه خمسة آلاف درهم. واشترى يوماً وَسَقاً من طعام، فحمله إلى بيته ثم قال: إن النفس إذا ادّخرت قوتها في بيتها اطمأنت وسكن اضطرابها، واهتمامها للرزق، وتفرغت للعبادة، وقلت وساوسها. فافهم يا أخي. وقد ورد: «المؤمن فطن حذر» يعني فطن لما ينفعه، حذر مما يضرّه. ولا تجوز المسألة لغني بالمال أو بالحرفة. ففي الحديث: «آخر الكسب السؤال» ولا يحل لغني أو سوي قوي، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه بالرغبة والطمع في حظوظ الدنيا. وقد وردت الرخصة بالسؤال لصاحب الحاجة الماسة إذا لم يكن له ما يكفيه، ويسد خلته من مال أو حرفةٍ أو قريب، مع أن التعفف والصبر عنه ما أمكن مندوب إليه، مرغوب فيه شرعاً وعقلاً. وقيل لإبراهيم بن أدهم: الفقير إذا جاع يوماً ما يصنع؟ قال: يصبر. قيل: فإن جاع يومين؟ قال: يصبر. قيل فإن جاع ثلاثة أيام؟ قال: يصبر. قيل: فإن مات؟ قال: ديته على قاتله. ومن كان قاتله مولاه فديته لقاؤه لغلبة السلامة بالصبر في هذه المدة، ولله درّ من قال في مدح الفقير المتجمل في صبره وفقره:

وكَمْ قَدْ رأينا مِن فتىً متحملاً ... يروحُ ويغدُ وليس يملكُ دِرْهَمَا
يراعي نجومَ اللَّيل عمّا يصيبهُ ... ويصبحُ يلقىٰ ضاحكاً متبسِمَا
ولا يسألُ الإخوانَ ما في يديهمُ ... ولو ماتَ جُوعاً عفةً وتكرّمَا

وقد كثر السؤال في هذه الجهة، وغلب على أهلها من غير حاجةٍ، واتخذوه لهم حرفة وبضاعة؛ ليستكثروا منه طمعاً وجمعاً، وسبب عمومه في هذه الجهة الجهل بالعلم والدناءة في الهمم، فعوّد نفسك معالي الأمور تظفر بكل خير. ولله درّ الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال:

ألا يا نفسُ إنْ ترضِي بقوةٍ ... فأنت عزيزةٌ أبداً غنية
دَعِي عنكِ المطامعَ والأماني ... فكَمْ أمنيةٍ جَلَبتْ منية

وقال آخر:

لاَ تحسبنَّ الموتَ موتَ البلا ... وإنما الموتُ سؤالُ الرجالِ
كلاهما موتٌ ولكنْ ذا ... أشدُّ مِنْ ذاكَ لِذلِّ السؤالِ

وقال غيره:

ما اعتاضَ في بذلِ وجههِ بسؤالهِ   عِوضاً وإن نالَ الغنى بسؤالِ
وإذا السُّؤالُ مَع النّوالِ قرنْتَهُ   رَجحَ السؤالُ وخَفّ كلُ نوالِ
فإذا ابتليتَ ببذلِ وجهكِ سائلاً   فابذله للمتكرم المِفْضَالِ

ولله درّ الإمام عليّ بن أبي طالب - كرّم الله وجهه - حيث قال:

لنَقْلُ الصخرِ مِنْ قللِ الجبالِ   أخفُّ عليَّ مِن مِننِ الرجالِ

وقالوا للفتى:

يقولُون لِي في الكسبِ عارٌ   فَقُلتُ العارُ في ذلِّ السؤالِ

وقال غيره:

مَنْ عَفَّ خفَّ على الصديقِ لقاؤُه   وأخو الحوائج وجهُهُ مملولُ

والحرفة والكسب أولى وأفضل من المسأله للناس، وإن كانت الحرفة غير لائقة به. كما قاله العلماء المحققون. قال الفقيه أبو الليث في كتاب (الآداب) ترك الكسب للمعيشة على ثلاثة أوجه: الكسل، والعبادة، والعار. فمن تركه كسلاً فلا بدَّ له من السؤال، ومن تركه للعبادة فلا بد له من الطمع، يعني للمتعبد الضعيف اليقين وهو الحق، ومن تركه للعار فلا بد له من السرقة.انتهى. فاحفظ يا أخي نفسك وأهلك بالصيانة والديانة واجعل مالك خادماً ليحصل ذلك في نفسك وأهلك وعيالك، ولا تبخل بالإنفاق الكثير لذلك، واتق الشحَّ فإنه أعظم المهالك. ففي الحديث: «اتقوا الشحَّ فإنه أهلك من كان قبلكم». وهذه الجهة ضنكة المعيشة على أهلها؛ فيحتاجون فيها إلى الصبر الجميل. ففيه الأجر الجزيل. وقد ورد: «إذا هاجت الفتنة فعليكم باليمن؛ فإنه أقل فتنة وأهله أرق أفئدة» وجهت حضرموت من اليمن كما ذكره العلماء، وقد عمّت الفتنة في هذه الجهة بالتهاون والتكاسل عن الصلوات المفروضات في غالب الأوقات، خصوصاً على سكان البوادي وأهل الحرف، ومن يعمل لغيره بالأجرة. فيجب على المستأجر تمكين الأجير من الصلاة، وأمره بها، وكذا غلب ترك الصلاة

على الأرقاء من العبيد والإماء في هذه الجهة؛ فيجب الزجر عن ذلك لمن قدر عليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه من أوثق عرى الإيمان، فيتأكد الصبر لله فيه، والمصابرة عليه، واحتمال الأذى بسببه. وقد ورد: «موتٌ في طاعة الله خيرٌ من الحياة في معصية الله» الحديث وإنما نبهنا على قليل من أفعال أهل هذه الجهة؛ ليدلك على فسادها وعموم الجهل فيها، وانتشار المنكرات بها، وقل القائم بالأمر النافع لفساد الولاة والأمراء فيها. فمن وجد بلدة خيراً من بلدته، وأسلم له ولدينه من الوقوع في فتنه، والتخلص من جهالته فتجب عليه الهجرة من بلده إليها. كما قاله العلماء المحققون. وقد عمّت البلوىٰ أيضاً في هذه الجهة برجوع النّاس في كثير من أحكامهم إلى من نصبوه فيهم، يسمونه العدل بينهم. فإذا جرت منازعة بينهم قال الحكم عند العدل، والقول فينا قوله، وهذا من أخبث العادات الفاشية بين الناس في هذه الجهة، من غير نكير منهم لها، وفي انتشارها خذل الشريعة، وإطفاء نور الرحمن. ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون﴾ قد صار اليوم المنكر معروفاً، والمعروف منكراً. والعرف والعادة إنما قد ترِدُ الشريعة في أحكامٍ نادرةٍ في معرفة المقادير والتقويمات، وما يعرفه الناس في المعاملات، وشبه ذلك. فقد ترد الشريعة إلى عرف الوقت فالحاكم هي الشريعة حينئذٍ. وفي كل حال والانقياد لها لا لغيرها. فصفة المؤمنين إذا جرت بينهم خصومة ومنازعة يرجعون فيها إلى حكم الله ورسوله، وإذا دُعُوا إلى ذلك سارعوا إلى الانقياد للشريعة، وقالوا: سمعنا وأطعنا. قال الله تعالى: ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾. والمنافقون بضد ذلك إذا دُعُوا لووا رؤوسهم، وتولوا وهم معرضون. فعلامة المؤمن قبول الحكم له وعليه، طيبة به نفسه بلا ضيق ولا حرج، والمنافق إنما ينفذ عليه الحكم وهو كاره قهراً بقهر الولاة والأمراء. والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلاّ نكدا. ومن علامات اقتراب الساعة عموم الجهل، وانقراض العلماء، ورجوع الناس يومئذٍ في حكوماتهم وخصوماتهم إلى رؤساء، فيهم جهال يحكمون بينهم برأيهم الباطل، الخارج عن قانون الشريعة؛ فترى الناس اليوم إذا دُعي

الخصم إلى حكم الشريعة يأبى ويقول: لا أريد إلاّ حكم العادةِ، وكلام العدل فيها. وهذه شعبة من الجاهلية الأولى. وفي الحديث: «سيأتي بعدي أناس لو خبرت منهم تسعة وتسعين رجلاً لما وجدت فيهم أحداً تركن إليه أو تستأنس به، ولو سمعت باسم الرجل من بعيد خيرٌ لك من أن تلقاه؛ وإن لقيته خيرٌ لك من أن تختبره؛ وإن اختبرته نفرت منه، مثل الرجل منهم كمثل الدرهم الخبيث، كلما دلكته بَانَ لك خبثه. سوف يقال للرجل بعدي ما أعقله وما أنبله، ولعل أن لا يكون في قلبه وزن مثقال ذرةٍ من إيمان». فافهم قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدا فطوبى للغرباء. قيل ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتي، والذين يحيون ما أماتوه من سنتي». قال الأئمة وهذه أوان العود إلى الغربة كما نقله الإمام الحبيشي وغيره. وفي رواية: الغرباء. ناس قليل صالحون بين ناس كثير من يبغضهم أكثر ممن يحبهم. فالحق غريب، والناطق بالحق غريب، والمساعد له غريب. روى الإمام أحمد في كتاب (الزهد) أثراً قدسياً يقول الله تعالى: «أنا الله لا إله إلاّ أنا إذا أُطعْتُ رضيت، وإذا رضيتُ باركتُ وبركتي تبلغ السابع من الولد، وإذا عُصِيتُ غضبت، وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد» ذكره ابن قيم الجوزية في (الكافي) فتمسك يا أخي بالطاعة وعوّدها نفسك تنقاد لها، ولا تغتر بكثرة الضالين المبتدعين في الدين. ولله درّ الإمام الجليل الفضيل بن عياض - رحمه الله - حيث قال: اتبع طريق الهدى، ولا يوحشك قلة السالكين وإيّاك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين. وكلما أوردناه من النظم في كتابنا فكله من أقوال العلماء الحكماء المشهورين. وقال رسول الله ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» رواه الحافظ مسلم وغيره - رحمه الله - فللمتبوع في الخير ما أجلّ قدره، وأجزل أجره. وللمتبوع في الشرّ ما أثقل وزره وأطول شره. كما ذكره في الحديث قال: «ويل كل الويل لمن يموت ويبقى بعده ذنوبه وآثاره معاقب بها مكتوبة عليه إلى يوم القيامة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه وعفت آثارها» فعليك بالحق والمصابرة عليه فإن الله يعينك ويصبرك

وينصرك لوعده الحق، وقوله الصدق بذلك في الأخبار النبوية. ومما عمّت به البلوى في هذه الجهة عموم الفساد فيمن يحج ويسير إلى مكة ليحج عن غيره بالأجرة وإن كانت في نفسها حلالاً طيباً لمن أوفي ما التزمه، فتراهم في أوطانهم متمسكين بأعمال البر، محافظين على الصلوات؛ فإذا سافروا لذلك ضيّعوا فرائضهم من الصلاة وغيرها، وعملوا من الذنوب ما لم يألفوه منها في أوطانهم، فخسروا في سفرهم هذا الدين والدنيا مع تحمل المشقة، وفراق الوطن. فيا أخي أصلح نفسك، واشفق على دينك. وهذه النبذة أشرنا فيها إلى جملة من اللوازم بالرمز والإشارة، وفيه كفاية للسعيد الموفق. وخير الكلام ما قل ودل. الحديث فمن أراد التفصيل فليطلبه من كتب العلماء المبسوطة. ففيها الشفاء، وبإمعان النظر في هذه النبذة يكثر فوائدها، وتحضر موائدها؛ فإنها قليلة اللفظ، جزيلة المعنى. واعلم أن رواية الأخبار والاثار بالمعنى جائزة بلفظ يؤدي معناها لمن يحسن ذلك، كما ذكره العلماء لكن طريقة العقلاء الاحتياط والمتابعة في كل الأمور، ومما عمّت به الفتنة على أهل هذه الجهة كثرة القول بالفحش، وغلبة الوقاحة فيهم، والخلاعة عن الحياء عليهم، وهذه الخصلة داعية إلى التهتك والجرأةِ على المفاسد. وقد ورد النهي عن التشبه بأهل الفسق، وكذا تشبه الرجال بالنساء ولو بالزيِّ والهيئة والقول. وفي الحديث: «إن الله يبغض الفاحش المتفحش» وقد ذكر السلف الفحش في القول في كل شيء، ومن الفحش التحدث بما يستحيا من ذكره بالتصريح، بل إن احتاج إلى ذكره فيشير إليه بالتعريض. وأهل هذه الجهة يغلب عليهم التحدث في المجالس والمحافل بعضهم مع بعض بذكر النساء، وأوصافهن المستورة، ويحكون بفعلهم وأتيانهم لنسائهم، واتخذوا ذلك عادة وسلوة يستريحون إلى هذا الحديث القبيح. فقد ذكر أهل التاريخ والتفسير في أخبار قوم لوط أنه كان أول أمرهم والمقدمة الداعية إلى فاحشتهم تحدث بعضهم بإتيانهم لنسائهم، فنهاهم نبيهم لوطٌ عن ذلك فلم ينتهوا؛ فكانوا يتظارطون في مجالسهم ويضحك بعضهم من بعض، فنهوا عن ذلك فلم ينتهوا ولا شك أن ذلك كله يدعو إلى الفاحشة ويدرك الشيطان به نصيبه منهم، فابتلى الله قوم لوط بالفاحشة الكبرى، يأتون الرجال شهوة من دون النساء بالنكاح

الحلال، فنهوا عن اللواط فلم ينتهوا؛ فحذرهم النبيّ لوط عقوبة الله إن لم ينتهوا عن هذه الفاحشة، فغلبتهم الشقوة، وقادتهم إليها الشهوة، فأصروا فخسف الله بهم وبمساكنهم، فأصبحوا كأن لم يكونوا بالأمس هامدين تحت التراب خامدين، والعياذ بالله تعالى. وقد ورد: «المتأنثون من الذكور المتشبهون بالرجال هؤلاء خنازير هذه الأمة فِرّ منهم فرارك من الأسد» فحكاية أفعال الظالمين، والتحدث بالجراءة والمعاصي من الفاسقين لغير غرضٍ شرعي من المحظورات كحكاية أفعال قطاع الطريق وعدوان الظلمة من نهب الأموال وقتل الأنفس عدواناً، وشبه ذلك وكذا مجلس اللهو المحرّم كالضرب بالطنبور، وآلة الأوتار فيجب الزجر عن كل ذلك، وهجر المجلس ومواضع التهم كلها. فاستماع ذلك قصداً عبثاً غير جائز. إذ مشاهدتها واستماعها تقسو به القلوب، وتحصل به الجراءة على الذنوب، ومن بلغه أفعال المنكرات فيجب عليه حينئذٍ إنكارها بقلبه، وكراهتها وإلاّ فالرّاضي بها شريك لفاعلها، عليه من الوزر مثل ما عليه فافهم. وهذه الآفة غالبة على جملة أهل هذه الجهة والعياذ بالله تعالى. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قيل يا رسول الله ﷺ أتهلك القرية وفيهم الصالحون؟ قال: نعم. قيل: لِمَ يا رسول الله ﷺ؟ قال: بتهاونهم وسكوتهم على معاصي الله تعالى. وقال رسول الله ﷺ: لا تقفن عند الرجل يُقْتَلُ مظلوماً فإن اللعنة تنزل على من حضر حين لم يدفعوا عنه، ولا تقفن عند الرجل يُضْرَبُ مظلوماً فإن اللعنة تنزل على من حضر» وقال ﷺ: «إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يُرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه. وقال أبو الدرداء: لتأمرن بالمعروف ولتنهُونّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تنصرون، وتستغفرون فلا يغفر لكم» ذكره في كتاب (الإِحياء) واعلم أن المداومة على الطهارة بالوضوء وإزالة النجاسة له فضل عظيم، وفيه وقاية وحفظ وصيانة لصاحبه من الجن والشياطين، وكيد السحر ومكر الإِنس وغير ذلك. وقد اعتمد عليه العلماء وجرّبه الصالحون. فقد ورد: «الوضوء سلاح المؤمن» فتأمل ذلك. فعليك بدوام الطهارة ليلاً ونهاراً. فلا تأكل أو تنام إلاّ على طهارة.

وقد عمّت الفتنة على جملة من الجهلة بترك ذلك، فمنهم من تحصل عليه الجنابة أو يتظمخ بالنجاسة فيتهاون بغسلها مرة. وقد ورد: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جُنبٌ، والشياطين تتخبطه، ولا تنزل البركة فيما يباشره ويعاينه فافهم. وأيضاً فترى المريض من أهل هذه الجهة إذا اشتد عليه مرضه يتهاون بالصلوات المفروضات، فيكون المرض والمصيبة عليه في دينه ودنياه، بفقد الأجر. ويحصل عليه الوزر، وإنما تتأكد عليه المحافظة على الخير حينئذٍ، والصبر على تفقد أحواله وتدارك تفريطه، والمصابرة عليه لكي: يختم له بخير عمله، ويكون أحسن أمره آخر عمره. ففي الحديث: «اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه» فالمصيبة والمرض لصاحبه كفارة ورحمة من الله، وعناية إن صبر واحتسب وحافظ على أموره، وإن تسخط وجزع كانت المصيبة سبباً لزيادة الذنوب، والتفريط في أموره فهي عقوبة عليه، ونقمة وإهانه. فتفطن لذلك فصديق المريض من يأمره بالمحافظة على أموره، ويعينه عليها. وعدّوه من يسهل عليه التضييع، ويسامحه بالتفريط. وأهل هذه الجهة يجعلون الصداقة والشفقة فيمن يسامح المريض على تفريطه، وهذا من كيد الشيطان لتكون الخاتمة على سوء العمل، وإنما يحذر الصالحون من خاتمته. فاعلم ومن أعمال الجهال وافحش الخصال، تحويل الميراث عن أهله وتغيير الحكم فيه عن أصله، والتوصل إلى حرمان الوارث بالحِيَل الباطلة، وهذه الفتنة غالبة على أهل هذه الجهة. فاحتذر منها ويتأكد على كل مؤمن أن يذهب بقلبه إلى الله تعالى، وينزل حوائجه عليه ويستخيره في كل أموره، ويكون همّه وقفاً عليه فيرجع إليه فيما يطلب ويرغب إليه فيما يحب، فيتداوىٰ بالمراهم، ويرقِ العلة. بما ورد من التعويذات والرقى والعواصيم والتمائم، ويجتنب المحول وغير المأثور من العزائم، ويتبرأ حينئذ من الحول والقوة، وينتظر الشفاء ممن له الخلق والأمر. وقد عمّت الفتنة في هذه الجهة بركون المريض إلى أهل الباطل والضلال، الناطقين بالكذب والمحال، ممن يزعم المعرفة بالتكهن والسحر والتنجيم وخبر الجن والشياطين، وهذا كله محظور محرّم، لا يلتفتُ إليه إلاّ من فقد من الله الهدى والنور، وتركه في الظلمات يدُور. وقد يضرب الواحد منهم المصروع بما يؤذيه، ويعود أثره على جسده. فيجب الزجر عن ذلك ويحرم إيذاؤه بكل ما يؤذيه فافهم

انتهى. والركون إلى مثل هذه الضلالات، يضعف نور الإيمان، ويسخط الرحمٰن، ويضحك الشيطان. فيجب على المؤمن زجر أهله ومن قدر عليه ولم ينه عن ذلك. فقد أغلظ أئمة السلف القول في ذلك فافهم. ففي الحديث: «من أتى كاهناً أو ساحراً وصدّق منجماً فأنا بريء منه». وفي رواية «فقد كذب بمحمد ﷺ» واعلم أن طلب الشفاء والدواء بما أذن الله فيه من الرقى والتعويذات المأثورة والأدوية المشهورة طريقة السلف. فقد ورد: «تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء». فعلى المريض التمسك بذلك وإن طال مرضه، ويحذر من الخروج إلى حيزة الظالمين. فبالمصابرة على الحق يحصل لك العمل الصالح، والخاتمة الحسنىٰ. واليوم قد انعكس الحال في هذه الجهة، وعمّت أفعال أهل الضلال. قال بعض العلماء: كان مشايخ الجهة أهل التربية بجهة اليمن وحضرموت ينفردون بأنفسهم عن القرى والعمران، ويسكنون بأهلهم في حافةٍ منفردة بقرب القرى، ويسمونها الحوطة أو نحوها. يسكن عندهم من سلك طريقهم، وتشبه بهم في ترك الإشتغال والانقطاع عن العلائق، والانفراد عن الخلائق، والصبر على الفقر واختيار القلة، والرغبة في الخلوة والعزلة للتفرغ للعبادة. وتكون هذه الحوطة بهذا الوصف محترمة جداً، معظّمة بين الناس، لا يهتكون حرمتها في شيء أصلاً حتى لو جنى جانٍ على أحدٍ وفرّ إليها يتركونه ما دام فيها، احتراماً لها. وإن عظمت الجناية وتكون هذه الحوطة عند أهلها وسكانها متميزة عن غيرها بالصيانة عن الفواحش والمعاصي، وعن ذكر الدنيا وأموالها وزينتها، وتكون معظّمة بالديانة وإظهار شعائر الدين فيها بين أهلها، وقلوبهم مؤتلفة بالتعاون على البر والتقوىٰ والإنصاف فيما بينهم، والمواساة بما في أيديهم، ولا يتركون أحداً يحل بينهم إلاّ أن يتشبه بهم، وسلك طريقهم. يطلبون بالانفراد الفرار عن مشاهدة الراغبين في الدنيا، فضلاً عن أهل المنكرات. وهذه قاعدة الحوطة المطلوبة بها. وقد انعكس اليوم فيها الحالُ، واتصف سكانها بأضداد صفات أولئك الرجال، ولَطّخوها بقبيح الخصال، وانتهك حرمتها أهلها، وأظهروا فيها الفواحش، وتجاهروا بالمنكرات مراغمة لسلفهم الصالح بعد المبارزة بها لله تعالى. إذ قد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من القرابة والأصدقاء، بل وعلى الأنبياء كل يوم جمعة؛ فإذا

عمل أهل الحوطة بالمعاصي، وأصروا ولم يتوبوا، استحق الكل من الله اللعنة، واشتد عليهم سخط أربابها السالفين، الذين قصدوا بها التعاون على البر والتقوىٰ؛ لتنزل عليهم السكينة، وتغشاهم الرحمة، وتحفهم الملائكة، لما ورد بذلك في مجالس الذكر والعلم والتقوىٰ. فيوشك حينئذٍ أن يتسارع خرابُها، ويهجر مكانها صوناً لها عن انتهاكها. فمن أهمل نفسه في المعاصي وفي هواه وغفلته، وطمِع أن يحفظ في نفسه وأهله وولده وأهل محلته كان طمعه غروراً، وأمانيه كذباً وزوراً. فتأمل ذلك. وأهل هذه الجهة يسمون من ترك السلاح أولاً من القبائل، واستمر على ذلك إلى الآن الفقراء في عرفهم ومن لحق بهم من أهل السلاح، وتركه. يقال له فلان تفقّر: أي تشبه بهم في ذلك، وإنما الفقراء في وضع اللغة وعرف الشرع من لم يكن لهم قدرة على مال، الفقير عديم القدرة. وفي عرف السادة الصوفية الفقير من زاد على ذلك بالتزام طريقهم المعروفة في سيرهم، ولا يبعد أن التسمية بذلك في حضرموت إنها كانت على الأصل الوضعي، والشرط الصوفي لأجداد تلك القبائل فيها. أعني الموسومين بالفقر اليوم، فتباعد العهد عنهم، وتكاثر النسل منهم، ومالوا عن طريق أصولهم وأجدادهم، وتركوا ما كانوا متصفين به من الفقر واختياره. والأحوال السديدة والأفعال الحميدة من العلم والتقوىٰ والمروءة ومكارم الأخلاق. فيقال لهم اليوم الفقراء آل فلان. وفلان من الفقراء وليسوا كذلك بوجهٍ أصلاً البتة. وأيضاً فالقبائل أهل السلاح اليوم ملطخون بسواد العار والنار، كما ترى وقد كان سلفهم وأجدادهم تذكر عنهم مآثر حميدة، وأفعال سديدة، وصنائع مشكورة، ومقاصد صالحة في مواطن الاحتياج إليهم مذكورة ووقائع من المروءة ومكارم الأخلاق مشهورة من الكرم والسخاء، والدفع عن المظلوم، والعفو عن الجاني، والنصرة للضعيف، والغوث للهيف، وحسن الرعاية والحمية النافعة وغير ذلك مما يحمد في الدين، ويكون ذخيرةً للعالمين. فاحرص يا أخي إن كنت من أهل السلاح أن تكون من خيارهم، ولا تضيع شيئاً من خصالهم الحميدة، وطرائقهم السديدة، وتشبه بهم في ذلك بل. إحرص أن تزيد عليهم فيها؛ لتكون خيراً منهم. واحذر أن تتشبه بأهل السلاح الفجار الملطخين بسواد العار والنار،

مسكين من وجهه أسود في الدنيا بين الملأ، وأسود في الآخرة؛ وإن كنت من نسل الفقراء أهل الدين المتباعدين عن أعمال الجاهلين. فاحرص أن تتشبه بالعلماء العاملين، والعباد الورعين الزاهدين، ولا تقنع بالإسم وأنت عارٍ عن الرسم، بل احرص على التمسك بطرائقهم، والتسلك بحقائقهم لتكون منهم؛ بل من أخيارهم. واحتذر أن تكون من أشرارهم الذين هم ضحكة للشيطان، يلعب بهم كما يريد، ويقودهم إلى كل قبيح غير سديد، ثم يتبرأ غداً منهم في اليوم الشديد، ولا يخفى في زماننا هذا أن الغالب على الناس التهتك، وقلة الحياء، وعدم المبالاة بالمذمة والعار. وهذه صفة الدناة الأراذل الأشرار، وقد ورد أن من كلام النبوة: «إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت» ولا يخفى على الناقد البصير التمييز بين المعدن الخالص والطيب الخير، وبين الملبس المموه والخبيث الشرير. فقد غلب في هذه الجهة على الفقراء اليوم الانعكاس والانتكاس على أم الرأس، ولم يبق إلاّ اسم مجرد عن الرسم؛ فـ ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ وقد كانوا في الجهة مصابيح ظلامها، وجلاء قتامها. عندهم شفاء الجاهل، وبهم يسعد الغافل، ويصلح العاطل. فالله يصلح ولاة المسلمين، ويصلح عمومهم في دينهم ودنياهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ولله درُّ الإمام أبي الأسود الدؤلي حيث قال ـ رحمه الله ـ:

العـلـمُ زيـنٌ وشـريـفٌ لـصـاحِـبـه ... فاطلب هُديت فنونَ العلمِ والأدبا
لا خيـرَ فيـمنْ لَـهُ أصلٌ بلا أدبٍ ... حتـىٰ يـكـونَ فـيـمـا زانَـهُ جـذبـا
كَمْ من كريمٍ أخي غيٍّ وطمطمةٍ ... فَدُمْ لـذىٰ القومِ معروف إذا لُبسا
فـي بـيـتِ مـكـرمـةٍ آبـاؤه نجـبٌ ... كـانوا الرؤوسَ أمسى بعدهم ذنبا
وخـامـلٍ مـقـفـرِ الآبـاءِ ذي أدبٍ ... نـالَ المعـالـيَ بـالآدابِ والـرتـبـا
أمسى عزيزاً عظيم الشأن مشتهراً ... في خدّه صِعَرٌ قدْ ظلَّ محتجبا

ويُحكىٰ أنه كان بعض التجار الأخيار من المرسومين بالفقر فيها. ـ اعنى حضرموت ـ له عادة صالحة في معاملته مع النّاس، فكان إذا حاسب مُعامليه وأصحابه في الديون والغرامات، أو خاضهم في الكلام في المعاوضات والمبايعات، الغالب عليه في كلامه يبتديء يقول لمن عنده قل: لا إله إلاّ الله،

ثم خاطب ساعةً، ثم قال: قل لا إله إلاّ الله، ثم خاطبه بما يريد. وهكذا إلى انتهى المجلس. فقيل له تأتي بهذا الذكر في هذا الموطن عرض الكلام؛ فقال: نعم. إن الحديث في الدنيا وذكر أموالها ظلمة في القلب وغفلة. والغفلة تقسو بها القلوب، ولا بد لنا من اكتساب المعيشة. فأردت أن أمزج ذكر الله سبحانه بالكلام الجاري منا فيها، وأن لا يخلو مجلسنا من ذكر الله تعالى؛ لتعود علينا بركته في المجلس، وإذا ذكر الله صاحبي بتذكيري كنت شريكاً معه في ثوابه. وأيضاً فكان عادة هذا التاجر ملاطفة غرمائه، ومن له عليه دين. فكأن من أتاه منهم لقضاء حاجةٍ يلين معه الكلام، ويقدم إليه الطعام، ويعزم عليه ليأكل منه تأنيساً له، ويمهل المديون ولا يعسر عليه، حتى يقتضي دينه بالرفق فيكون عند الله، وعند غريمه مشكوراً ومأجوراً. ويقول حقنا يحصل لنا باللطف والرفق أكثر من العنف. ونحن غانمون باللطف، ولا نكون ظالمين بالعنف. انتهى فاحرص إن كنت من التجار أن تقتدي بالتجار الأبرار، ولا تتشبه بالتجار الفجار. وفق الله الأحبة لطاعته أجمعين آمين. وحُكي أيضاً أنه كان بعض المشايخ أهل الفضل والعقل من أهل هذه الجهة، إذا جاءه من يريد التوبة من أهل السلاح وشبههم، يفرح به كثيراً، ويقنع منه ولو بترك سلاحه وسلامته من العزم على القتل وفعلِهِ عدواناً. ويقول: قتْل المسلم بغير حقٍ أكبرُ الكبائر بعد الشرك. فكيف لا أفرح بمن وفقه الله للتوبة، ونجّاه من هذه الموبقة العظيمة؟ وأرجو للتائب منها إن استمر على توبته أن يصلح الله له أعماله الباقية، ويوفقه في عمره المقبل ببركة هذه التوبة المباركة. فمن السعادة توفيق العبد لأعمال الطاعة التي فيها رضي الله، وقربه ومن العناية صرف العبد وصونه عن أعمال المعاصي، أو بغضها التي فيها سخط الله وبعده. ففعل بعض الخير أرضى من تركه كله، وترك بعض الشر أرضى من فعلِهِ كلِهِ. فاعرف ذلك واحمد الله على ما يسره لك من ذلك، ويُحكى أيضاً أن البهلول أبا بكر باجعفر التريمي ـ رحمه الله ـ جاء إلى سيدي الشيخ إبراهيم بن عبد الله هرمز ـ رحمه الله ونفع به ـ فقال له: يا سيدي قد طفت في البلدان، ودخلت كثيراً من الأمصار، فما رأيت مثل أرضك هذه. ـ يعني حضرموت ـ الدين فيها قليل، والدنيا قليلة، والجهل غالب على أهلها. ما السبب

في ذلك يا سيدي؟ فقال: هو أن المعيشة فيها ضنكة، فاشتغل أهلها بمعيشتهم، واستولى الهمّ على قلوبهم، ولم يمكنهم الفراغ لما يعنيهم من أمر الدنيا والاخرة. فالفقيه فيها مشغول القلب فيها بالمعيشة، والمتفقه مشغول القلب بها، والمتعبد أيضاً. كذلك ففاتهم العلم والعمل، وغلب الجهل لما ذكرناه. وكل جهة فالمعيشة فيها أسهل، والرخاء بها غالب، وسنة الله في عباده وبلاده ارتباط القلب والجسد، فلا يتفرغ القلب عن همومه إلاّ بفراغ الجسد عن اشتغاله، وسبب فساد هذه الجهة في دينها ودنياها، جهلُ ولاتها وسلاطينها، وإهمالهم للرعية، وعدم الحماية والدفع عنهم، فتناقصت فيها الأمور بسببهم بالتبعة والمؤاخذة أيضاً علهيم. فما أثقل وزر الولاة بهذه الجهة؛ فإنهم السبب في إهمال الأمور، وانتشار الشرور، وضنك المعيشة على أهلها، والتجاهر بالفواحش وعموم الجهل، وانقراض العلم وشبه ذلك. إذ هم أهل القدرة بها على إظهار الدين، وحسم مادة الشياطين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والترغيب في العلم والعبادة، والإِعانة عليهما، والاعزاز للدين وأهله، وإظهار شعائر الدين. وفي رواية رُزَيْن - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: السلطان إذا كانت نيته في الرعية أن يغني الفقير، ويؤمن الخائف، وينصف المظلوم، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فهو مع أبي بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - في الجنة. وقال رسول الله ﷺ: «من ولي شيئاً من أمر المسلمين فأراد الله به خيراً جعل معه وزيراً صالحاً. إن نسي ذكرّه، وإن ذكر أعانه». وقال رسول الله ﷺ: «من أهان سلطان الله أهانه الله، ومن أكرم سلطان الله أكرمه الله» وقال رسول الله ﷺ: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً، فجُورُه على نفسه» وقال ﷺ: «السلطان ظل الله في الأرض، يأوى إليه كل مظلوم» وقال ﷺ: «يومٌ من إمام عادل خيرٌ من عبادة ستين سنة» وقال ﷺ: «كل راع مسؤول عن رعيته» وقال ﷺ: «كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه». فتأمل هذه النصوص الصريحة، والنصائح الصحيحة، وتمسك بها، واهجر جميع الأفعال والأحوال القبيحة، ولا تغتر بمن قل عقله، وغلب جهله من الدُّناه اللئام الأراذل. قال الشيخ الجليل عمر بن محمد بن حميد اليمني - رحمه الله ونفع به -: كل

بلاد بلا سلطان فسلطانها الشيطان وكل بلاد بلا سلطان فلا تخلو من لعنة الرحمن تلك البلاد معرك الشيطان لا خير في سكانها وإن كثروا ولا طمع في صلاحهم وإن قلوا وخير البقاع بقاع السلاطين، والسلطان عليه لواء معقود بالستر الجميل ما دام يرعى رعيته، ولله به لطفٌ عظيم، يعني به القدرة. والأمر النافذ على الرعية. وهنا مجال الوالي والأمير والمطالبة عليه هنا، والمحاسبة بهذا لحصول القدرة على إصلاح الرعية، وحمايتهم. وكل أحدٍ ذي حالٍ ورتبة له مجال قد أقيم فيه، وهو مما يعنيه، ويطالب بها في الدنيا والآخرة. فافهم وإنما دخلت المفسدة والنقيصة على العامة بسبب أكابرهم المتبوعين مع الفسق والجهل في الدين، ولله درّ من قال:

وهل أفسدَ الناسَ إلاّ الملوكُ ... وأحبارُ سوءٍ ورهبَانُها
وباعوا النفوسَ ولم يربحُوا ... وَلَمْ يغلُ في البيعِ أثمانُها
لقد وقع القومُ في جيفةٍ ... تبين للعقل أنتانُها

فتأمل يا أخي ذلك، وأصلح نفسك واعرف الحق تعرف أهله ولله درّ من قال:

يا معشرَ القرىٰ يا ملح البلدْ ... ما يُصلحُ الملحَ إذا الملحُ فسدْ

وأيضاً قد ورد: «صنفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس. الأمراء والفقهاء»، وكفىٰ بهذا نصحاً وتعليماً. وكتب عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ إلى بعض إخوانه: أما بعد فإن لأهل التقوىٰ علامات يُعرفُون بها، ويعرفونها من أنفسهم. من صبر على البلاء، ورضي بالقضاء، وشكر النعماء، وذل لحكم القرآن. واعلم أن الإمام كالسوق ما نفق فيها حمل إليها فإن نفق الحق عنده حُمِل إليه وجاءه أهل الحق وإن نفق الباطل عنده حمل إليه وجاءه أهل الباطل انتهى. وما أجمع هذا القول في المعرفة بأحوال الولاة والأمراء، وقد رُوي أن إبليس اللعين يقول لجنوده: اجتهدوا في الظفر بالوالي والأمير، فإن ظفرنا به ظفرنا برعيته، واسترحنا من التعب. وإن لم نظفر به لم نظفر بأحدٍ. وهذا الحال مشاهد بالتجربة في الناس. فما أعظم نفع الوالي

المصلح، وما أعظم ضرر المفسد. فالله يتولى المسلمين بكل خير. فقد ورد رحى الإِسلام دائرة تدور مع الكتاب، تدور حيث دار، ألاّ إنَّ الكتاب والسلطان سيفترقان. فلا تفارقوا الكتاب، واصبروا على ما أصابكم. إن ذلك من عزم الأمور. ويتأكد على الوالي الصبر لله تعالى، والنصرة لدين الله تعالى؛ وإن نالته المشقة في ذلك، فحبذا المشقة في حب الله، وحبذا التعب والنصب في إظهار دين الله، والنصرة لرسول الله ﷺ، والحماية لعباد الله تعالى. كل ذلك ابتغاء مرضاة الله. قال الله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ وقال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾. وهنا مجال السلطان والأمير وأهل القدرة أصلح الله ولاة المسلمين، ووفقهُم لكل خير آمين. ذكر الإِمام النووي في (تهذيبه) - رحمه الله - قال: دخل الإِمام محمد بن نصر المروزي - رحمه الله تعالى - على الأمير اسماعيل بن أحمد والي خرسان فقام له، وبجَّله، وبالغ في تعظيمه؛ فلما خرج عاتبه أخوه اسحاق بن أحمد على شدة إكرامه والمبالغة فيه. فقال إسماعيل: يا أخي إنما قمت له إجلالاً لأحاديث رسول الله ﷺ، وحفظه لها. ثم إن اسماعيل رأى رسول الله ﷺ في النوم فقال: قمت لمحمد بن نصر إجلالاً لأخباري لا جرم ثبت الله ملكك وملك بنيك لإِجلالك له، وذهب ملك أخيك اسحاق وملك بنيه لاستخفافه بمحمد بن نصر، فبقي ملك إسماعيل وبنيه كما ذكره. انتهى ولله درّ من قال في الحث على الحلم والكرم للملوك:

تـنـحَّ عـن الـقـبـيـح ولا تُـرده ... ومَـنْ أولـيـتـه حُـسـنـاً فـزدهُ
ستُـكـفـى مِـنْ عـدوكِ كـلَّ كـيـدٍ ... إذا كـادَ الـعـدوُ فـلا تـكـدهُ

وهذا موافق للحديث: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عن من ظلمك» وهذه أخلاق أهل الصبر والعزيمة. ففي الحديث: من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر» وهنا حكايات قليلة نافعة إن شاء الله تعالى. حُكي أن بعض ملوك الولاة على بلاد هرموز كان من العقلاء له تفقد في مصالح الرعية، ونظر تام في ذلك. فكان لا يجعل البواب على بابه إلاّ رجلاً عرف خبرته وباطن أمره، أنه ذو شفقة على الرعية، يغلب على قلبه الرقة

والشفقة، وله عقلٌ ونظر تام. فاتفق بعض الأيام أن جاء بعض الرعية إلى البواب، وذكر له حاجة يجب قضاؤها من الوالي، وعرف البواب شغل الوالي حينئذٍ فاعتذر على الرجل، ثم علم الوالي بعد فغضب على البواب غضباً شديداً، وعزله عن بابه. وقال: أنت من قطّاع طريق البر، وأنت مناع للخير لا يصلح مثلك على بابنا. كيف لو جاء إليك مظلوم شاك كنت أظنك تمطله وترجيء أمره. إنتهى. ولقد صدق ونصح نفسه، فإنه لا ينبغي للوالي أن يكل أمراً من أمور الرعية إلى أحدٍ إلاّ بعد الخبرة والعلم بباطن أمره، وتأهله بذلك وإلاّ فقد خان الأمانة، وغش نفسه وأفسد رعيته. وحُكي أيضاً أن السلطان عبد الله بن علي الكثيري الحضرمي - رحمه الله - حاصر بجنده بني سعد في قرية (يفل) وكان ذلك في رمضان المعظم، فبينما هم كذلك إذ نادى واحد من بني سعد المحصورين وقال: يا سلطان هذه صدقتك في رمضان، تنفقها علينا كل ليلة. خصصت رمضان بهذا البلاء والشدة؟ فسمع الكثيري قوله وارتحل عنهم؛ حتى خرج شهر رمضان، وكانت عادة الولاة خصوصاً في حضرموت يتجنبون حرب الخصم والضر في رمضان خاصة، وكذا في الأشهر الحرم، وأيام العيد لتأكيد حرمتها ولتشديد الشرع عقوبة الجاني فيها، كما يعرف ذلك من بحث عن أيامهم السالفة، وحُكي أيضاً أن السلطان الكثيري المذكور أعطى فاضل بالكروشي السعدي فرساً، وكان من اتباعه ثم إنه أراد أن يسكن في بلاد خصم للكثيري، فسكن عنده وحارب معه، ثم أرسل فرسه إلى السلطان الكثيري وقال: حاشا الله أن نستعين بعطيتك على مضرتك، وردها إليه. انتهى ومن المشهور عن أهل الفضل والعقل ممن سلف من القبائل من الطرائق الحسنة المرغوبة المطلوبة لأهل السلاح، ذوي الهمم والعزائم والمحامد والمكارم، أنهم يحفظون الذمّة، ولا ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه؛ فإن وعدوا لم يخلفوا، وإن حدّثوا لم يكذبوا، وإن أودعوا أمانة أو خصوا بسريره حفظوا وكتموا. ولم يخونوا، ويكافئون بالصنيعة، ويجازون بالحسنة، وإن قلّت وقلّ مقدارها هذه كلها مما ندبت إليه الشريعة، ورغب فيها أهل العقل والمروءة وأيضاً كانوا يتنزهون عن مجالسة السفهاء واللئام، ويرغبون في مجالسة أهل

الفضل والعقل والمروءة، واليوم قد انعكس بهم الحال كما ترىٰ والله المستعان.
قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ عاشر الكرام تعش كريماً، ولا تعاشر اللئام فتنتسب للؤم. ولله درّ من قال:

مَنْ عاشرَ الأشرفَ عاشَ مُشرّفاً ... وَمَنْ عاشر الأنذالَ غير مشرفِ
أوَ مَا ترىٰ الجلدَ الخسيسَ مقبّلاً ... بالثغرِ لمّا صارَ جلدَ المصحفِ

فتأمل هذه الإشارة فإنك تقصد إلى الجلدين من الجلود. أحدهما تجعله صوناً للمصحف، وجلداً له. والآخر تجعله نعلاً لرجلك تمشي به، كما تريد فحصلت الكرامة، وثبتت الحرمة للأول لمجاورته المصحف المحترم، فيجب حرمته وبندب تقبيله دون الثاني، فإنك تمشي به في الطرقات وعلى النجاسات. فما أعظم فائدة صحبة الكرام، وما أعظم ضرر صحبة اللئام. فالحكمة الدينية مقبولة سواء برزت في لفظ عربي أو عجمي أو نظم أو نثر، وعلى هذا كله جرى العلماء المحققون قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ونفع به ـ صحبة من لا يخاف العار عارٌ يوم القيامة. وقال إذا أخطأتك الصنيعة إلى من يتقي الله فاصطنعها إلى من يتقي العار. وقال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله» وقال ﷺ: «الحياء من الدين» حديث مشهور. فهو ركن قوي في الدين، يبنى عليه كثير من أموره، ويمتنع المرء بسببه عن كثير من الأفعال والأحوال القبيحة في العقل، أو المذمومة في الشرع. وهذا الحديث يشمل الحياء من الله، والحياء من الناس، المانع من ذلك ويقال: الحياء ستر الله على عباده، فمن هتكه وحرقه هتكه الله وفضحه بين الناس، ويحب الله لعبده أن يستر ولا يفضح نفسه، ويذكر عوراته. ومن قل دينه قل حياؤه وقلت صيانته، ووقع في التهتك والتجاهر، ثم خاض الذنوب خوضاً لا يكاد بعده تحصل له سلامة. نسأل الله العافية والسلامة، فاستحق اللعنة من الله والمقت. قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المتجاهرون» وفي الحديث: «لا غيبة لمن تجاهر بفسقه» ولا يتجاهر إلاّ من هتك حجاب ستر الحياء، وسقط عنه المبالاة بنفسه وبعرضه. فأفٍ ثم أفٍ لمن اتصف بالعار بين الملأ، وصحب أهل العار ونسب إليهم. فقد قيل: العالم من يخاف الله حياءً من الناس، وأكمل الناس عقلاً أشدهم حياءً من الناس.

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ إنما أوقعني في المحارم والمساوىء صحبة من لا أحتشمه، ولا أستحي منه. فتأمل ذلك. فمن رضي بنفسه وبعرضه ضحكة في كل محفل، ومسخرة للناس في كل مجمع، بسبب شيء من الخصال القبيحة الدنية، ولم يأنف ويستحي ويصون نفسه من ذلك، فهو معدود من الأراذل اللئام والأنذال. والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل. وقال بعض العلماء المحققين لمن استوصاه: صن نفسك عن عار العاجلة، ونار الآجلة. تكرم في الدنيا والاخرة. وإنما ذكرنا في هذه النبذة قليل من أعمال هذه الجهة مما تجاهروا به، وإنه من غير نكير ولا كراهية ولا زجر من والٍ ولا أمير، فحينئذٍ يعمُّ المقتُ من الله على الناس، وينزل الأمر العام عليهم من القحط، وتسليط ولاة الجور والظلمة عليهم، وتقبض البركات، وتقسو القلوب، وتسلب منها الرحمة وغير ذلك مما ورد في الأخبار النبوية. والغالب على أهل هذه الجهة مما ذكرناه من هذه المصائب بسبب قل التعاون على الدين، وعدم الحرمة والإجلال لأهل الدين، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوه. فافهم. وقد ذكر غير واحدٍ من الأئمة المتأخرين من أهل التفسير كالإمام عبد الرحمن السيوطي ـ رحمه الله ـ وأبى الحسن محمد البكري ـ رحمه الله ـ أن أكثر أشراط الساعة وعلاماتها التي وردت في الأخبار النبوية قد ظهرت منذ زمان. فهي الآن موجودة كما لا يخفى على العالم إذا بحث عنها. رجعنا إلى ما يتعلق بالولاة من أهل هذه الجهة. ذكر بعض الإخوان الثقات أن والي (تريس) بحضرموت، وكان عمر بن سليمان بن ثعلب ـ رحمه الله ـ أنه كانت له أحوال محمودة، وشفقة على الرعية صالحة، ونظر وتفقد تام. ذكر أنه أعد لحوائج أهل بلده من الحمير أربعة، ولنفسه اثنتين ومن البقر لحاجتهم ثورين ولنفسه اثنين وكان كل ما عنده من الماعون والآلة للحرث وغيره مبذولاً لهم، وكان يتفقد أهل الفقر والحاجة فيها، فيواسيهم ويحسن إليهم، ولا يترك المتخاصمين فيها حتى يصلح بينهم، ويطيِّب خواطرهم بعضهم على بعض، ولو أن يحتمل في ذلك مالاً جزيلاً. وقد كان أيضاً أهل الفضل والمروءة يحتمل المشقة في الإصلاح بين الناس، ويبذلون المال فيها فيحصل لهم الأجر

والشكر والعاقبة الحسنة على النسل والذرية، وكان الوالي بدر بن محمد الكثيري - رحمه الله - أيضاً له شفقة تامة على الرعية، وكان يقول: تدخل المسرة عليّ إذا نظرت أحداً من رعيتي مسروراً، وأفرح بحسن حالهم وجمالهم في المال والأهل والولد، وقيل له: فلان من رعيتك عليه كساء فائق إنما يصلح لمثلك. فقال: أفٍ لوالٍ يسلب رعيته كسوتهم، ويفرح نفسه بما يحزنهم. وكان يقول: ولاة هذه الجهة فينبغي لهم أن يعيشوا بالحراثة في الأرض، ويعتمدوا عليها ويقنعوا بما حصل منها، ولا ينبغي لهم أن يقتدوا بملوك العجم في بذل المال وفي السعة والرفاهية والبطر بالنعم؛ فإن هذه الجهة ضنكة المعيشة، قليلة المدد، لا تحتمل سوى الرفق والاقتصاد في الإِنفاق. فافهم فكان بدر يأكل من حراثته ذرة ودخناً ونحوه، ويتأدم بالبصل والكراث ونحوه. وحُكي أيضاً أن الوالي عبد الله بن محمد الكثيري - رحمه الله - كان له تفقد في رعيته ورعاية حسنة وحماية لهم، ودفع عنهم تام، فرأى يوماً بعض الجبارين يبطش ببعض الضعفاء من أهل بلده فنظر إليهم من بعيد فقيل له: إن هذا الضعيف اشترى شاة من هذا الجبار، فهو يلازمه في الثمن. فذهب إليه فدفعه عن الضعيف وضربه بيده وقال له: ما يصنع معك الفقير العديم أمهله واصبر حتى يوسر وأنت قد ضيعت نفسك حيث بعت المعسر شاتك، لا تعد تؤذيه أبداً حتى يوسر؛ وإلاّ عاقبناك عقوبة شديدة. من للضعيف إلاّ نحن إذا لم نحمه فمن يحميه؟ ولقد صدق في كل ذلك. وحكي أن قطّاع الطريق نهبوا الرعية مالاً فتبعهم حتى ردوه كله. ففقد منه حماراً فلم يزل يبحث عنه حتى استرده من بلد (أبراد) المعروف مسيرة ثماني مراحل. وأشباه ذلك كثيرة وبالحماية والدفع عن الضعيف والمسكين ينصر الله الوالي على أعدائه، ويلاطفه في أموره ما دامت حمايته لرعيته قائمة، فإن ضيعهم ضاع في نفسه، وخذل في ولايته. وقد جرّب ذلك الولاة أهل الفضل والعقل. ويكون الوالي ظالماً بترك حمايته، مشاركاً في الوزر لمن نهب مالاً أو قتل نفساً عدواناً؛ لأنه مطالب بالدفع والحماية في محل قدرته، وهو قادر على ذلك. فما أعظم أجر الوالي العادل المصلح، وما أثقل وزر الجائر المفسد. قال رسول الله ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء

فقد أحب أن يُعصي الله في أرضه» وقال رسول الله ﷺ: «إن الله ليغضب إذا مُدح الفاسق» وقال ﷺ: «من أعان فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام» فاحتذر أن تكون من المعتدين أو من أعداء الدين. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرىٰ وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ ولله درّ من قال:

لا تَظلمَن إذا مَا كنتَ مُقتدراً ... فالظلمُ آخرهُ يأتيكَ بالنّدمِ
تنامُ عينيكَ والمظلومُ منتبهٌ ... يدعو عليكَ وعينُ اللهِ لَمْ تنمِ

قال الشعبي: يعجبني الرجل إذا شتم هو إن دعته الأنفة إلى المكافأة وجزاء سيئة سيئة مثلها، ومكافأة السيئة بمثلها جائزة، والعفو أفضل وأسلم وأعز وأكرم. وقد ورد الحديث بذلك. ولله درّ من قال:

ولا خيرَ في عرضِ امرىءٍ لا يصونهُ ... ولا خيرَ في حلمِ امرىءٍ ذلّ جانبُه

وقال غيره يشير إلى بيان الحلم المحمود في موضعه:

إذا كان حلمُ المرءِ عونَ عدوِّه ... عليه، فإنَّ الجهلَ أعفى وأروحُ
وفى الحلمِ ضعفٌ والعقوبة هينةٌ ... إذا كنت تخشى أنت مَنْ عنه تصفحُ

وكريم الطبع إذا حلم عنه نفعه، وخبيث الطبع ربما يزيده الحلم إغراء وجراءة. وقد قيل ما كل جاهل يغدر، ولا كل ذنب يغفر. فتأمل ما ذكرناه واقتد في كل فن بساداته المتبوعين فيه انتهى.

خاتمة الكتاب



فائدة ١٧

في الترغيب في جملة من أبواب البر، وفي تعلق العبد بربه كيف ما كان وحسن الظن به وقوة الطمع في رحمته ومغفرته.

ويتأكد ذلك في أحوال كربه وشدته. - خصوصاً - للمريض عند انتظار منيته. قال الإمام عمر بن محمد جمعان - رحمه الله - أوصيك بحسن الظن بالله في جميع الأحوال والأوقات، ولا يبعدك منه ذنب، وفر منه إليه، فإنه رحيم ودود. قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي. إن ظن خيراً فله، وإن ظن شراً فله». رواه ابن حبان في صحيحه. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: والذي لا إله غيره لا يُحسن عبدٌ بالله الظنَّ إلاّ أعطاه ظنه. وذلك أن الخير كله بيده. رواه الطبراني. وقال ﷺ: «حُسن الظنِّ مِن حُسن العبادة» رواه أبو داود فافهم يا أخي، وتعرض لنفحات ربك بأسبابها، وأتوا البيوت من أبوابها. وسنة الله التي أجراها بحكمته في عباده ترتيب المسببات على أسبابها، وهو المنفرد في حكمه، لا شريك له في ملكه. فبالحركات تنزل البركات، وبالهز للشجرة تسقط الثمرة، وأما العجز أبداً عقيمٌ. وأيضاً فالقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله من أكبر الكبائر بكل حال. فالمؤمن لا بدّ له من الخوف لربه، والرجاء له بكل حال، والأحب أن يغلب الخوف عليه مدّة الحياة، ويغلب عليه حُسن الظن بربه والرجاء لرحمته عند حضور الوفاة. قاله أهل التحقيق. قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للمؤمنين يوم القيامة: هل أحببتم لقائي؟ فيقولون: نعم هذا قوله لهم. فيقول: لم؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك. فيقول: قد وجبت لكم مغفرتي» رواه الإمام أحمد وقال رسول الله ﷺ: «من أذنب ذنباً فعلم أن الله إن شاء

يعذِّبه، وإن شاء يغفُر له كان حقاً على الله أن يغفر له» رواه ابن حبان. فتأمل ذلك. فاعتراف المؤمن بذنبه وسؤاله وارتجاء المغفرة له من ربه رتبة من معرفة الحق، وشعبة من الدين، وإن كانت من أواخرها. وقال ﷺ: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى، لا يريدون بذلك إلاّ وجهه إلاّ ناداهم منادٍ من السماء. قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات» رواه الطبراني. قال أبو الدرداء - رضي الله عنه - إن الذين لا تزال ألسنتهم رطبة من ذكر الله يدخلون الجنة وهم يضحكون. وقد ورد: أمتي أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة. عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل» وقال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ مائة كتب الله له ما بين عينيه براءة من النار، وبراءة من النفاق، وأسكنه يوم القيامة مع الشهداء» رواه الحافظ المنذري. والصلاة عليه العطف والحنانة من الله عليه. وقد ورد: «لا تصلوا عليّ الصلاة البتراء تقولوا اللهم صل على محمد ثم تسكتوا، قولوا اللهم صل على محمدٍ وعلى آل محمد» فافهم وقال عطاء بن خالد - رحمه الله تعالى - يقال: من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله العظيم وبحمده، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ثلاث مرات لم يُر في نفسه ولا في أهله، ولا في ماله مكروه حتى يمسى أو يصبح. ذكره الأقليشي قال أبو الدرداء - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ: «هذه كلمات من قالها صباحاً لم تصبه مصيبة حتى يمسي، أو مساء لم تصبه مصيبة حتى يصبح. اللهم أنت ربي لا إله إلاّ أنت، عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم اعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً. اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة أنت آخذٌ بناصيتها. إن ربي على صراط مستقيم» رواه ابن السني. وقال رسول الله ﷺ: «من قال في اليوم عشر مرات بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ووقاه الله سبعين باباً من بلاء الدنيا مثل: الجنون والجذام والفالج، وكان أعظم عند الله من سبعين حجة وعمرة متقبلة بعد حجة الإسلام، ووكل الله به سبعين ملكاً يستغفرون له

إلى الليل، ووقي تسعة وتسعين باباً من البلاء» رواه في (الأربعين المحررة) وقال ﷺ: «لا يسبغ عبدٌ الوضوءَ إلاّ غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» رواه البزّار. وقال ﷺ: «من أكل من سقط المائدة عُوفي في ولده وولد ولده من الحمق، وعاش في سعة». وقال ﷺ: «ما أنعم الله على عبد بنعمة فقال الحمد لله إلاّ أدّىٰ الله شكرها، وإن قالها ثانياً جدد الله له ثوابها، وإن قالها ثلاثاً غفر الله له ذنوبه» رواه الحاكم وقال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من الله إلاّ كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها، وما أذنب عبد ذنباً فندم عليه إلاّ كتبَ الله له مغفرتهُ قبل أن يستغفره، وما اشترى عبد ثوباً فلبسه فحمد الله، إلاّ لم يبلغ ركبتيه حتى يغفر الله له» رواه الحاكم. وقال ﷺ: «من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه». رواه الحاكم وفي رواية وما تأخر. وقال ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة وعلى الرحم ثنتان: صدقة وصلة» رواه ابن خزيمة. وقال ﷺ: «من سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر ويضع عنه» رواه مسلم، وقال ﷺ: «من سعى في حاجة أخيه المسلم قضيت له أو لم تقضَ غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكتب له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق» رواه اللخمي في (شرح الأربعين) يعني أو لم تُقض بعد أن سعى لها صادقاً وتعذر قضاؤها بعد بذل مجهوده. وقال ﷺ: «من لبس ثوباً جديداً ثم قال الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتي، وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الذي أخلق فتصدق به كان في كنف الله وفي حفظ الله، وفي ستر الله، وفي جوار الله، وفي ذمة الله حياً وميتاً، حياً وميتاً، حياً وميتاً» رواه الترمذي فتأمل هذه الفائدة، واعمل بها، واخلص النية في ذلك، وليقوى يقينك وإيمانك من غير ريب، بتصديق الأخبار النبوية وحصول وعدها في العاجل والآجل فإن الله لا يتعاظمه شيء، وإن الخير كله بيده، يرزق من يشاء بغير حساب، يختص من يشاء بما يشاء من الفضل والموهبة، وهذا بمثابة الرزق المقسوم. يأتي حيناً لمن شاء بسعي، وحيناً بغير سعي، وبطلب وغير طلب، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. وقال ﷺ: «أيما مسلم كسا

مسلماً ثوباً على عري كساه الله من خضر الجنة، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمر الجنة؛ وأيما مسلم سقا مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم» رواه الترمذي وقال ﷺ: «من أنعم الله عليه نعمة فأراد بقاءها، فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلاّ بالله» رواه الطبراني. وقد روي: «من قال لا حول ولا قوة إلاّ بالله قضى الله له مائة حاجة. ثمانين في الآخرة وعشرين في الدنيا». وقال ﷺ: «حلف الله بعزته أن لا يُسمى اسمه على شيء إلاّ شفاه، ولا يسمى باسمه على شيء إلاّ بارك عليه، ومن قرأ بسم الله الرحمن الرحيم دخل الجنة» رواه الإِمام الثعالبي. وقال ﷺ: «ما من عبد يقول بسم الله الرحمن الرحيم إلاّ غفر الله له ذنوب خمسين سنة، ومن زاد زاده الله». وقال ﷺ: «يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول القرآن ربّ حله، فيلبس تاج الكرامة فيقول: يا رب زده، فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول يا رب ارضى عنه؛ فيرضى عنه فيقال له اقرأ وارق؛ فيزداد بكل آية حسنة» رواه الترمذي. وقال ﷺ: «ما من مريض يقرأ عنده «يّس» إلا مات ريّاناً وأدخل قبره ريّاناً، وحشر من قبره ريّاناً». ذكره أبو الفتح في (شرح المنهاج) وقال ﷺ: «من قرأ قل هو الله أحد حين يدخل منزله نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل والجيران» رواه الطبراني. وقال ﷺ: «من قال دبر كل صلاة مكتوبة استغفر الله وأتوب إليه غفر له وإن كان قد فر من الزحف» رواه الطبراني. وقال ﷺ: «من قال بعدما يصلي الجمعة سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة غفر له مائة ألف ذنب، وغفر لوالديه مائة ألف ذنب، وأربعة وعشرين ألف ذنب. ومن قالها في سائر الأيام كتبت له مائة ألف حسنة، ومحي عنه من السيئات مثلها، ورفع له من الدرجات مثلها». ذكره أبو الحسن الهكاري في (هدية الأحياء) وقال ﷺ: «من قال استغفر الله قبل صلاة العصر سبعين مرة كفّر الله عنه ذنوب سبعين سنة قيل وإن لم يبلغ عمري ذلك؟ قال: لأبيك ثم لأخوتك» وهذا الحديث رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في (تاريخه) مرفوعاً، وقال فيه: يقول بعد صلاة العصر استغفر الله الذي لا إله إلاّ هو الحي القيوم، وأتوب إليه سبعين مرة إلى آخر ما ذكره. قال حديث صحيح فما أعظم فضل الله على عباده، وقال

رسول الله ﷺ: «فاتحة الكتاب شفاء من كل داء» وفي رواية: «من كل سم» رواه الثعالبي وغيره حديث مشهور. وما أنزل الله من داءٍ إلاّ وجعل الله له دواءً أو شفاء إلاّ الموت. وقد ورد، أن فاتحة الكتاب وكذا يس لما قُرئت له، وماء زمزم لما شرب له، وأعظم ما يُشتفى به القرآن المنزل من عنده، وقد قال فيه تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ الآية. فعالج نفسك وغيرك بالفاتحة. فقد ورد: أن اسمها الشافية والكافية والواقية، وغير ذلك؛ فاعتمدها لكل شدّةٍ، ولدفع كل ملمة، وارق بها كل علة يحصل ما تروم إن شاء الله تعالى. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليَّ في يوم جمعة ثمانين مرة غَفر الله له ذنوب ثمانين سنة. قيل يا رسول الله ﷺ: كيف الصلاة عليك؟ قال: تقولوا اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبيِّ الأميِّ وتعقد واحدة» رواه الدار قطني. وقال رسول الله ﷺ: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال». وفي رواية: «من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عصم من فتنته، من أدرك الدجال فليقرأ عليه فواتحها» يعني الكهف. وفي رواية: «من قرأ عشر آيات من آخرها فخرج الدجال لم يسلط عليه» فإنها جواركم من فتنته. فينبغي لكل مؤمن تعليم أهله وأهل شفقته هذه الآيات العاصمة؛ فإن أشراط الساعة قد ظهرت. وتكاثرت، كما ذكره أهل العلم. وقد ورد: ليس فتنة منذ خلق الله الدنيا إلى قيام الساعة أعظم من فتنة الدجال، وإنه أعور العين اليمين، مكتوب بين عينيه كافرٌ يقرأ هذا كل مؤمن كاتب وغير كاتب. فيا أخي صحح إيمانك بالله بالاعتصام بحبله، لا تخرج عن حفظه وكلاءته، فإنه يكلؤك ما دمت ملتزماً لطاعته، مجتنباً لمعصيته، زاهداً في الدنيا الملعونة على لسانه ولسان أنبيائه وملائكته؛ فإنما أدرك الشيطان والدجال نصيبه ممن رغب في الجيفة القذرة الخسيسة النتنة. وقال رسول الله ﷺ: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة». وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله: ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك، ولا أبالي». وقال رسول الله ﷺ: «من قال في اليوم لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة لم يسبقه

أحد إلاّ من قال مثل ما قال أو زاد عليه». وقال ﷺ: «لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدعُ بها رجل مسلم في شيء قط إلاّ استجاب الله له».

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من انفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم؛ فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ذكر الله. ما عمل ابن آدم عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله» رواه الترمذي. فتأمل هذا الحديث، وعوّد لسانك وقلبك ذكر الله بكل حال. فنعم العطية ذكر الله، ونعم الخبية ذكر الله، فإنه منشور الولاية، وعنوان الهداية، وأمارة السعادة، ورأس العبادة. وفي الحديث: «من أكثر من الإستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب» وكان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ أجمعين يعدون لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة يقول: رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم. وفي الحديث: «اصطفىٰ الله من الكلام سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله، والله أكبر» وفي رواية «ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، فهن الباقيات الصالحات يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها. فاستكثروا منها. فما أعظم فضلها. وكان النبي ﷺ إذا أفصح الولد من بني عبد المطلب علمه، ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا﴾ الآية إلى آخرها. رواه ابن السني وقال غير واحد من العلماء؛ يستحب أن يُلقن الصبي أول ما يفصح بالكلام لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، ويفهم معناهما عند بلوغه سن الفهم؛ ليتمكن الإسلام في ذهنه، ويرسخ في قلبه. ففي الحديث: «أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ما أحد يشهد بها إلا حرّمه الله على النار» وحديث البطاقة التي تثقل بالتسعة والتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر هي أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، واللفظ الوارد في التحيات أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله، والكل صحيح. وقوله هنا رسول الله برفع اللام من رسول؛ فلو فتح هذا اللام فهو لحن يخل بالمعنى، وتبطل به صلاته، ويحرم عليه إن عرف النحو وكذا فيها إن لم يعرف لتقصيره أيضاً إن أمكنه التعلم. نقله القاضي بن كبن وغيره وهذا هو اللفظ. والباب الذي يدخل منه الكافر إلى الإسلام، وينتقل به عن

وصف أجناسه، ويغتسل به عن أنجاسه. فافهم ذلك فما أجل قدرها، وأجزل أجرها. فينبغي لكل مسلم الإكثار منها، فقد ورد: «جددوا إيمانكم؛ فإنه يخلق كما يخلق الثوب» فذكر أن تجديده بما ذكرناه من كلمة الإسلام. واعلم أن كل عطية ونعمة فإن فوقها نعمة الإسلام، وطاعة الرحمن. وكل بلية ونقمة فإن فوقها نقمة الكفر والعصيان. فاعلم ذلك. وقال ﷺ: «إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمتة من الدنيا، وأمّا المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته». رواه مسلم. وقد ورد: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وورد: «لا راحة لمؤمن حتى يلقى الله تعالى» وكفى بهذا تعليماً وتنبيهاً. فتأمل ذلك فقد يحصل للكفار أو الفجار في هذه الحياة الدنيا المعيشة الواسعة، والحياة الطيبة بأسباب ظاهرة وخفية، منها أن الله قد يجعل بحكمته في الرجل الفاجر أخلاقاً جميلة من العفو والسخاء والدفع عن المظلوم، ونحو ذلك فيعجل الله له بسببها المجازاة بالنعم الدنيوية العاجلة كما قال تعالى: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبواباً وسُرراً عليها يتكئون، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ وقال تعالى: ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا﴾ فتفطن لذلك فإن طريقة الأنبياء والأولياء الشدة والإبتلاء في هذه الحياة الدنيا إلاّ في النادر في بعض الأحوال أو بعض الأشخاص، ومن تعرف أحوالهم، ونظر في سيرهم وطرائقهم حقق ما ذكرناه. وقوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ الآية. والكافر ليس له في الآخرة من خلاق، ولا نصيب. والمؤمن له الآخرة خالصة يوم القيامة، وقد يجمع الله له نعيم الدنيا ونعيم الآخرة؛ وإن ابتلاه بفقر أو شدة، ادخر له من ثوابه في الآخرة ما تقر به الأعين، ولا يخطر على قلب بشر. فاصبر يا أخي على ما أصابك ليتوفر لك ثوابك. واعلم أنه لا يجب على الله تعالى لأحدٍ من خلقه حق، ولا مصلحة، بل يجب عليهم طاعته بإيجابه، وهو متفضل على من يشاء كيف شاء من عباده بثوابه، وحكم عدله على من شاء كيف شاء، بحسابه وعقابه. فثوابه لعباده فضل،

وعقابه لهم عدل، وتصرفه في ملكه كيف شاء عدل وحق. إذ لا شريك له في ملكه، ولا معقب له في حكمه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. واعلم: أن المؤمن حاله خيرٌ كله؛ إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له. الحديث فالمؤمن يفرح بزيادة دينه وأجره، وإن نقصت دنياه أو جاهه. والمنافق يفرح بزيادة دنياه وجاهه وإن نقص دينه، وفسد قلبه. واعلم أن الحسنات والمصائب يذهبن السيئات وتمحو بهن الخطيئات، وليست السيئات يذهبن الحسنات، ولا يحبطن الخيرات؛ إلاّ السيئة الكبرى. ومن مات على الكفر ـ والعياذ بالله ـ لنا وللأحبة والمسلمين، وهذا من لطف الله ورحمته بعباده المؤمنين؛ فبمقتضى أخلاقه الرحمانية، وأسمائه الحسنى، والحمد لله على سبق رحمته، وغلبت رأفته، والحمد لله على كماله التام، وجماله العام. قال تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ وقال ﷺ: «إن الرجل لتكون له عند الله منزلة فما يبلغها بعمل، فما يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إيّاها» رواه ابن حبان. فيا أخي انظر لاختيار الله وتدبيره لك، وأنت لا تعلم فإنما يطلب منك الصبر على قضائه، والشكر على نعمائه. وقال ﷺ: «لا يصيب المؤمن نصب ولا وصب ولا سقم ولا حزن حتى الهمّ يُهمّه إلا كفّر الله به من سيئاته» رواه الشيخان. قال بعض العلماء العارفين بالله تعالى: لولا البلاء والمصائب لجئنا يوم القيامة مفاليس، فالمحنة منحة عند أهل العقل والفضل. وقال ﷺ: «من زار قبر والديه أو احدهما كل جمعة فيقرأ عند القبر يس والقرآن الحكيم غفر له بعدد كل آية وحرف» رواه الحافظ المقدسي. وقد ورد: «من قرأ عند قبر والديه الفاتحة، وقل هو الله أحد سبع مرات نوّر الله قبورهما إلى يوم القيامة» وقال رسول الله ﷺ: «من مرّ على المقابر وقرأ قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ثم وهب أجره للأموات، أُعطي من الأجر بعدد الأموات. فاحرص على العمل بذلك تحصل لك الحياة الطيبة، والمعيشة الواسعة، والعاقبة الحسنة على النسل والذرية. وقال ﷺ: «من قرأ آية الكرسي إذا أخذ مضجعه أمنّه الله على نفسه وجاره، وجار جاره والأبيات حوله» ذكره

الحبيشي في كتاب (البركة) فمجاورة العباد الصالحين نافعة شافعة في الدنيا والآخرة، كما ذكره في هذا الحديث وأشباهه. واعلم أن كل مؤمن له أعمالٌ صالحة، وحسنات مكتوبة، ولا يخلو أيضاً من مصائب له محسوبة، وإن كان مخلطاً في عمله على اختلاف درجاته، وتفاوت حالاته. وقد علمت أن السيئات لا تحبط الحسنات، بل على العكس من ذلك؛ فينبغي لكل عاقل قوة الرجاء المرَحَمَة لجميع هذه الأمة وليشغله عيبه عن عيوب الناس كما أمر به في الحديث، وكان أهل الفضل والعقل من السلف الصالح يزرون على نفوسهم، ويرجون الرحمة لجميع الأمة. كما نُقِلَ عن الإمام ابن سيرين. وغيره. ذكره الإمام النووي وغيره في (تهذيبه) قال الله تعالى: ﴿فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى﴾ في هذه إشارة وبشارة من الله تعالى لعباده، أن من اختصه بالإسلام، ووفقه للإيمان أن لا يسلبه إيّاه، ولا ينزعه منه. بل يثبته عليه ويديمه له؛ تفضلاً وتكرماً. فتفطن لهذا. قال الشيخ ابن أفلح في كتاب (تنبيه المسترشدين) قال رسول الله ﷺ: «لا تجالسوا كل عالمٍ إلاّ عالماً يدعوكم من خمسٍ إلى خمس: من الشك إلى اليقين، ومن الكِبر إلى التواضع، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن العداوة إلى النصيحة» وذكر الغزالي أيضاً في كتاب (الاحياء) واعلم أنَّ السلف الصالح كانوا إذا عملوا الحسنة فرحوا بها، وشكروا عليها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة حزنوا عليها، وتابوا منها، وسألوا الله أن يغفرها. وهذا وصف أهل اليقين: وكانوا يضعون الأشياء في محالها، ويعرفون لها آدابها، ويحاذرون من انقلابها فافهم وتأمل ذلك. وقال ﷺ: «تعلموا اليقين» يعني جالسوا الموقنين. وقد ورد: «المرء من جليسه» الحديث. وهذا جامع لكل صنف ولأهل كل فن فافهم، واختر لنفسك. والتواضع طريق إلى رقة القلب وذهاب قساوته، كما أن التكبر طريق إلى الطبع على القلب وقساوته. وبعد الطبع لا ينفعه الذكرى، ولا تنجعُ فيه الموعظة، ولا تؤثر فيه النصيحة. فلا تشغل نفسك بما اتضح لك سبيله بهذا الوصف، وعرفت دليله. فإنما النصيحة لمن يقبل، وإلاّ ففيها ظلم لها، وإضاعة. كما قد ورد ذلك. قال الله تعالى: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾. وقال

فاعمل بهذا، ولا تغتر بمن غش نفسه من الجهال. ولا خير في معاشرة النساء بحال. وقال رسول الله ﷺ: «من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتاً في ربض الجنّة، ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنّة إذ المراء يوحِر الصدور ويثير الشرور ولله درّ من قال:

وَلاَ تُمَارِي جَاهِلاً فتتعبَا ... ومَا عَليكَ عَتْبة فتعتِبا

ولله درّ من قال ايضاحاً لسبيل الرشاد، وتبييناً لعلة المراد:

كلٌّ يَرىٰ أنّه ناجٍ بما اجتهدا ... فلا تُنازِعْ ذا رأيٍ بِما اعتقَدا

ودعْهُ يَجْرِي بما يَهوىٰ فغايتُه ... أنْ ليسَ يَرجِعُ عمّا قاله أبَدا

ولا يعودُ إلىٰ ما أنتَ قائلُه ... وَلَوْ أتيتَ طريقَ الرشدِ مجتهدًا

والزم طريقَك وارفض كل من ذهبت ... به المذاهب فيما خالف الرشدَا

وما عليكَ بِمَنْ ضلَّ الطريقَ به ... إذا اهتديتَ ومَنْ غير الهدىٰ قَصدَا

فالحقُّ كالشمسِ لا يَخفىٰ على أحدٍ ... فالزمْ ولاَ تُساكن عَنْ مذهبٍ أحدَا

وقال رسول الله ﷺ: «أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال. قيل من هو يا رسول الله؟ قال هم علماء السوء، وهم كل فاجر القلب، عليم اللسان». وقد ورد: «هم كل عليم اللسان جاهل القلب» والعمل يعني أن الدجال متميز بعلاماته، يعرفه المؤمنون بنعته، ويدعو إلى الضلال الواضح البيّن، فلا يغتر به ذو فطنة مؤمن، وهذا العالم قد يخفى تلبيسه على أكثر الناس إلاّ على مؤمن فطن حذر؛ فينبغي لكل عاقل البحث وتدقيق النظر فيمن يريد صحبته. فقد ورد: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» الحديث. قال بعض العلماء من أهل اليمن ـ رحمه الله ـ مركوب أم صوفي سمح لراكبه، وإن لم يكن غير صاحبه، ومركوب أم فقيه يجمع براكبه إلاّ أن يكون هو صاحبه، يعني بهذا أن أهل الكذب والإفتراء الملبسين في هذا الزمان من أهل كل فن كحصى البطحاء كثرة اقتناصاً للدنيا، لكن الملبس باسم الفقيه، المدّعي للفقه، لا يخفى تلبيسه على من له أدنى تمييز؛ فإن فن الفقه أمر ظاهر، والقول فيه شاهر. وأما فن التصوف فيكثر التلبيس به. وأهل الدعوى الكاذبة فيه لدقة مداركه، وخفاء مسالكه، وعدم أهل

الله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آيةٍ لا يؤمنوا بها﴾ الآية إلى آخرها. ودخل عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب وأبو هريرة ـ رضي الله عنهم ـ على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله. من أعلم الناس؟ قال: العاقل. قالوا: فمن أعبد الناس؟ قال: العاقل. قالوا: فمن أفضل الناس؟ قال: العاقل. قالوا: يا رسول الله ﷺ العاقل من تمت مروءته، وظهرت فصاحته، وجادت كفُّهُ، وعظمت منزلته. فقال ﷺ: «وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين. العاقلُ هو المتقي، والله إني لأرجو أن أكون أتقاهم لله» الحديث ومحل التقوى هو القلب لما قال في الحديث: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، ويشير به إلى صدره» الحديث إذن التقوىٰ خشية في السرِّ والعلانية؛ لكن الظاهر عنوان الباطن. فقد ورد: «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه» والباطن بلا ظاهر خراب» ودعوى عمران القلب مع خراب الظاهر كذب وزور. قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ الآية. فعليك بملازمة التقوىٰ سرًّا وعلانية، ومجانبة الأثم باطناً وظاهراً ولله درّ من قال:

فمالكَ يومَ الحشرِ شيءٌ سِوىٰ الّذي ... تـزودْتُـه قـبـلَ المماتِ إلى الحشـرِ
إذا أنتَ لَمْ تزرعْ وأبصرتَ حاصداً ... ندمتَ على التفريطِ في زمنِ البذرِ

وقال غيره:

إذا أنت لم ترحلْ بزادٍ من التقىٰ ... ولاقيتَ بعدَ الموتِ مَنْ قد تزودَا
ندمتَ على أن لا تكونَ كمثلهِ ... وإنّك لَمْ ترصدْ كما كانَ أرصدا

وقال ﷺ: الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يحسد من لا فقه له، وعليها يعادي من لا علم له، ولها يسعى من لا يقين له» الحديث. فقد قال العلماء: يظهر عقل الرجل ورزانته بزهده في الدنيا، ولو أوصى بمالٍ لأَعْقَلِ الناس صُرِف إلى الزهاد في الدنيا، ويظهر نقص العقل وسخافته بالرغبة فيها ولله درّ من قال:

عجبتُ لمبتاعِ الضلالةِ بالهُدىٰ ... ومَنْ يشتري دُنياه بالدينِ أعجبُ
واعجبُ مِن هذين من باعَ دينهُ ... بدنيا سواهُ فهو مِنْ ذينِ أعجبُ

قال العلماء: فسفلة الناس من باع دينه بدنياه، وسفلة السفلة من باع دينه بدنيا غيره. أفتوا بذلك فيما إذا علق الطلاق بهذه الصفة فتأمل ذلك. فقد عمت البلوىٰ بذلك في هذا الزمان على أهله وعمّت هذه الخصلة الرذيلة الدنية عليهم؛ حتى لا تجد سالماً منها إلاّ من شاء الله، وقليل ما هم. وفيها خسران الدنيا والآخرة - والعياذ بالله - فعليك بتفقد نفسك وخاصتك، واحفظها بعزائم التقوىٰ ومجانبة رخص الهوىٰ التي لا يرغب فيها، ويبرح عليها إلاّ من رق دينه، وقل يقينه؛ فإنها الداء العضال. وذكر الإمام الشهاب السهروردي في عوارفه عن بعضهم أنه قال: قسم الله العقل مائة جزء. تسعة وتسعون منها جعلت في النبيِّ ﷺ، وواحد في سائر المؤمنين. انتهى. فالكل مقتبس من أنواره، وملتمس من أدراره، ومنغمس في بحاره، ومنطمس في بحاره. فكل مهتدي فهو أمامه خص من العقل بأجزله، ومن الفضل بأكمله. إنما سياسة الملوك للرعايا وتربية المشايخ للتلامذة وتأديب الكبار للصغار. كل ذلك مأخوذ من أنواره وشريعته وأسراره. ففيها غنى لكل طالب، ونهاية رغبة كل راغب. فمن خرج في سياسته عن حدود الشريعة من الملوك وغيرهم، فقد عبد هواه، واتبع شيطانه، و كانت عاقبته الخزي والهوان في الدنيا، والعذاب والوبال في الآخرة. قال رسول الله ﷺ: «إقامة حدٍ من حدود الله أنفع للأمة من غيث أربعين ليلة في بلاد الله». رواه ابن ماجة فتأمل أسرار هذا. ففي إقامة الحدود نشر الأحكام، ونصر الإسلام، وزجر الأنام عن كسب الاثام، وانقطاع كيد اللعين. وبالتهاون بإقامة الحدود يتظاهرون بالفسوق، ويتجاهرون بالفواحش. فتعم العقوبة واللعنة على الكل، وينقطع قطر السماء وبركات الأرض، وتسلط الظلمة وولاة الجور على الأنفس والأموال، وتغلب التفرقة بين القلوب وغير ذلك. قال رسول الله ﷺ: «الطابع معلق بالعرش، فإذا انتهكت الحرمة واجترأوا على الخطايا وعمل بالمعاصي بعث الله الطابع فيطبع على القلب، فلا يعقل بعد ذلك شيئاً» رواه ابن أبي الصيف وغيره فتأمل هذه الآفة الواقعة بالإصرار على الخطايا وعدم التوبة. وقل الرجوع إلى رب البرايا فلا يرجى بعد حصول هذه الآفة خيراً؛ فإذا عمّت هذه على أهل الأرض بأسرهم قامت

القيامة. قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء إقبالاً وإدباراً، وإن من إقبال هذا الدين أن تفقه القبيلة كلها فلا يبقى فيها إلاّ فاسق، أو فاسقان، أو جاهل أو جاهلان. فهما مقموعان بينهم، ذليلان؛ وإنّ من إدبار هذا الدين إن تجهل وتجفو القبيله كلها، فلا يبقى فيها إلاّ عالُم أو عالمان، فهما مقموعان بينهم، ذليلان إن تكلما أو نطقا. قالوا كلهم لهما أتطغيان علينا؟ أتطغيان علينا؟ رواه الحافظ أبو نعيم. وقد عمت الفتنه بعموم الجهل في قبائل هذه الجهة، وزادهم فتنة وغروراً انتماء الأولاد بالنسب المجرد إلى من سلف من علماء الأجداد والتعزز بعلمهم وصلاحهم، واتخذوا ذلك لهم عدة؛ فكرعوا في منهل كل فساد، وهمعوا بنفوسهم في كل وادٍ، وفقدوا من قلوبهم النور الواعظ، ومن عشيرتهم المعلم الناصح، ومع ما هم فيه من الجهل والفسق فالعوام تبجلهم وتكرمهم فتنة على الفتنة وظلمةٌ فوق ظلمة، وكل هذا من عموم الجهل في الكل؛ فيلعب بهم الشيطان كما يريد. فالأحمق الغافل هو المغتر الهالك، والجاهل سلك بجهله أخبث المسالك. فتأمل يا أخي هذه النصيحة، واعمل بما هنالك. مسكين من لا فهم فيه، مسكين. حُكي أن السيد الشيخ الصالح سالم الشواف الهينني، وكان شديد الحرمة لشعائر الله وحرماته وأيضاً فكان كل من لقيه من أولاد الصالحين والعلماء المشهورين، يقبل عليه بالإجلال له، والتعظيم كائناً ذاك من كان، وربما يعمل له مجلس السماع، وينشد له من أقوال السلف تشبيهاً بالصادقين السادة من أجداده مع عدم التأهل منه، لذلك فقال له سيدنا الشيخ إبراهيم بن عبد الله هرمز - رحمه الله - يا سالم إنا نراك شديد الحرمة والإجلال لأولادهم، يغلب عليك أظهاره معهم، والآفة التي نهينا عن المدح في الوجه لأجلها موجودة هنا في هذه الحالة وقد قال ﷺ لمن سمعه يمدح مؤمناً: لو سمعها ما أفلح، وقال لمادح آخر: يا هذا قصمت ظهر صاحبك؛ فآفة المدح مضرة للتقي العالم، فكيف بسفهاء أهل هذه الجهة إن عندي يا سالم إن كتم الحرمة لمثل هؤلاء أصلح بهم، وأسلم لهم من الفتنة والاغترار. وأسلم لك من الوقوع في النهي. انتهى وتأمل لهذا، وعليك نفسك، ولا تغتر بكرم سلفك. ففي الاغترار حتفك وتلفك. ولله درّ من قال:

مالي عقلي وهمّتي حسَبِي مَا أنا مَوْلىٰ ولاَ مِن العَربِ
إنْ أنت مُنتم إلى أحدٍ فإنني مُنتم إلىٰ أدبي

فيا أخي من جهل حالك، وستر الله عليه عيبك، ولم يطلعه على ذنبك، ثم أتاك وأحسن الظن بك، واعتقد أنك من أهل الصلاح وأنت تعرف عيبك، وتعلم فسقك وذنبك، ثم فرحت بإكرامه وأعجبت من اعتقاده كنت مخدوعاً ممكوراً بك، مغروراً. وأما ذاك فيؤجر على حسن ظنه، ويشكر لجهله بالحال. وبعد العلم فلا عذر ولا حجة. فتفطن لهذا. قال الإمام البيهقي ـ رحمه الله ـ الحسب شرف النفس وفضائلها. وقيل شرف الاباء والأجداد، وقيل غير ذلك والأول أصح. ومن تتبع الأقوال النبوية وأقوال العرب فيه حقق ما ذكرنا وقال غيره:

إنّا وإن كَرُمتْ أوائِلُنا لَسْنَا عَلى الأحسابِ نَتّكلُ
نبي كما كانتْ أوائِلُنا تبني ونفعلُ مثلَ مَا فعلُوا

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ كل كرم دونه لؤمٌ. فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه كرم. فالكرم أولى به. تعني بهذا أن الإنسان مأخوذ بنفسه، وأنّ أولى الأشياء به طبائع نفسه وخصالها؛ فإذا أكرمت فلا يضره لؤم أوائله، وإن لؤمت فلا ينفعه كرم أوائله. ذكره ابن عبد ربه ـ رحمه الله ـ انتهى. ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون﴾. فالمراتب مختلفة. فما النحاس كالذهب، ولا الغصن كالحطب، ولا الحشفُ كالرطب، ولا الرأس كالذنب. وإن اتفقت هذه في الإسم والرسم، فهي متباعدة في الرتبة والحكمة. واعلم أن الأسرار نتيجة الأذكار، وأن الواردات ثمرة الأوراد. قال غير واحدٍ من العلماء من لم يكن له ورد فهو قرد. يعني إذا ترك نفسه سداً فقد أشبه البهائم المهملة السائمة. فكيف وقد قال العلماء المجربون هي نفسك عمالة أبداً، إن لم تشغلها شغلتك، فاشغلها بخير وإلاّ شغلتك بشر. وقد قيل: من لم يطالع الأذكار ما هو ذكر. فالقائل لهذا يعني به كتاب الأذكار للأمام النووي ـ رحمه الله ـ فينبغي اعتماد ما فيه من الأذكار والأدعية والوظائف، فقد التزم المصنف بصحتها، وقد اعترف

بتقديمه العلماء المتأخرون، واعتمدوا ترجحهُ في الأحكام. والعلماء قد جوّزوا العمل بما في الأخبار الضعيفة في الترغيب والترهيب دون الموضوعة المشهورة؛ لكن ينبغي للموفق أن يعتمد في أوراده ووظائفه بما صح واشتهر منها عند الأئمة الحفاظ. ففي ذلك ما يكفيه ويستغرق وقته. فالتزم ما ذكرناه، ولا تحتفل بمن يصدّك عن العمل بالبر والخيرات، والملازمة لوظائف الدين؛ فإنه من قطّاع الطريق وإخوان الشياطين. قال رسول الله ﷺ: «يأتي بعدي زمان يكون الصابر على دينه كالقابض على الجمر، للعامل فيه مثل أجر خمسين منكم. قالوا بل منهم يا رسول الله؟ قال: بل منكم أنتم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون على الخير أعواناً، صاحب الحق فيه غريب» رواه الترمذي. وقال رسول الله ﷺ: «تكون بعدي فتنة يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، لا ينجو منها إلاّ من أحياه الله بالعلم» رواه ابن ماجة. وقال ﷺ: «إن أناساً من أمتي يستفقهون في الدين، ويقرؤون القرآن ويقولون نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم، ونعتز لهم بديننا. ولا يكون ذلك كما لا يُجتنى من القتاء إلاّ الشوك، كذلك لا يجتنى من قربهم إلاّ الخطايا» رواه ابن ماجة. ولله درّ الإمام إبراهيم ابن أدهم - رحمه الله - حيث قال:

أرىٰ أُناساً بأدنىٰ الدّينِ قَدْ قَنِعوا ... ولاَ أراهمْ رَضوْا في العيشِ بالدّونِ
فاسْتَغْنِ باللهِ في دُنيا الملوكِ كما ... استغنىٰ الملوكُ بدنياهُم عن الدّينِ

وقال ﷺ: «الفقهاءُ أمناء الرسل على عباد الله، لم يدخلوا في الدنيا أو يتبعوا السلطان وفي رواية ويخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فاحذرهم» رواه الحافظ العسكري والحاكم ولله درّ من قال:

صبرتُ عن اللّذاتِ لمّا تولتْ ... وألزمتُ نفْسِي صَبْرَها فاستمرتِ
وكانتْ على الأيامِ نَفْسِي عزيزة ... فَلمّا رأتْ صَبْرِي على الذلِّ ذَلّتِ
وَمَا النفسُ إلاّ حيثُ يجعلُها الفتىٰ ... فإن أُطعِمَتْ تاقتْ وإلاّ تسلتِ

وقال رسول الله ﷺ: «من أراد أن يكرم دينه، فلا يدخل على السلطان، ولا يخلو بالنسوان، ولا يخاصمن أصحاب الأهوى» رواه الدارمي

البصيرة النقاد فيه، المميزين الطيب من الخبيث، والسمين من الغث. فتأمل ما ذكرنا، واعلم أن الفائدة بكتابنا هذا لا تكمل إلاّ بمطالعته كله؛ فربما كلمة جامعة، أو حكمة نافعة مناسبة للفائدة المرسومة التي أنت بصددها، وهي قد ذكرت قبلها أو بعدها لغرض اقتضىٰ ذلك، وقد قصدنا في هذه النبذة الحق، وتحرينا بها الصواب. فمن وقف فيها على زللٍ أو خللٍ فليصلح، وليرد الزلل. بعد التبيين، ويسد الخلل بعد التيقن، وهو عند الله مأجور، وعندنا مشكور. والله يعلم المفسد من المصلح. اللهم اهدنا فيمن هديت، وتولنا فيمن توليت نحن وأحبابنا والمسلمين.
واعلم أن الناس اليوم في عقائدهم في زعمهم للصالحين هم فيها كخبط عشوى، تصيب خطوى وتخطيء خطوى، وكحاطب ليل ربما جمع في حطبه من الأفاعي، والحيات ما فيه عطبة فترى كثيراً من الناس يساعد الموسومين بالفقر في هذه الجهة على المعاصي والخطايا في مواطن كثيرة، أو يشاهد بعينه منهم ذلك. فإذا سألته عن حاله معهم يقول: أنا أحبهم لله، ولي فيهم حسن ظن، وحسن عقيدة. فهذا القول والزعم غاية الضلال عن الحق المبين، ومنتهى كيد إبليس اللعين. فقد ظفر بهم جميعاً. فلما افتضحوا بالمخالفة، اصطلحوا على الموافقة، وضحكوا بما به هلكوا. والواجب على المؤمن أن يحب التقيّ يواليه لله ويبغض العاصي ولو نفسه، ويهجره لله. وقد عكس الجهال ولله درّ من قال:

يابنَ الفقيهِ هذا زمان معكوس ... ما تنظرُ إلاّ كلّ شيٍ منكوسْ
وكل أرجلٍ فيه قد غدتْ رؤوس ... والرؤوس أرجلٌ والضعيف منهوسْ
يا ويلَ غافلٍ مذنبٍ مضيعٍ ... جاثمٍ على الزّلاتِ ليس يَروغْ
إلى المعاصي والذنوبِ يسرغْ ... أسيرَ شهواتِ النفوسِ منحوسْ

وقال غيره ولله درّه:

يا دهرُ مالكَ للئامِ مُساعداً ... أبداً ومالكَ للكرامِ مُعانِدَا
فأراكَ كالميزانِ ترفعُ ناقصاً ... أبداً وتَخْفضَ لا مُحالة زائِدَا

وقال غيره ولله درّه:

دهرٌ وفتْ للجاهلين وعودُها ... واختصّ بالعيشِ اللّذيذِ قرودُها

وضرورة الجاهل الغاوي، والفاجر القاسي السخرية في هذه الحياة الدنيا بالعالم الوليّ، والعابد التقي اقتضت ذلك الحكمة، وسبقت به الكلمة. فمنزلة السفيه عند الفقيه كمنزلة الفقيه عند السفيه. كُلُّ وَاحِدٍ زَاهِدٌ فيما عند صاحبه. قال الإِمام الشافعي ـ رحمه الله ـ قال تعالى: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين، فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾. وقال تعالى: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مروا بهم يتغامزون﴾ إلى قوله: ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ وفي هذا كفاية للسعيد الموفق، ومن لم ينفعه القليل من الكلام، لم ينفعه الكثير. كما قاله العلماء المجربون: فمن طلب هنا البسط والتفصيل، فليطلبه من كتب العلماء المشتملة على الأحاديث النبوية، والأخبار عن الأمم السالفة الموضوعة لذلك. ففيها الشفاء إن شاء الله، ولله درّ من قال:

اصبرْ على غصصِ المكارهِ كلّها ... فلَعلّها أنْ تنجلي فلَعلّها
في كلِّ أرضٍ محنةٌ وبَليةٌ ... ولعلَّ أرضكَ إن صَبَرْتَ أقلّها

ولله درّ الإِمام الشافعي ـ رحمه الله ـ حيث قال:

توقع صنعَ ربكِ سوفَ يأتي ... بما تهواهُ مِن فرجٍ قريبِ
ولا تيأس إذا ما ناب خطبٌ ... فَكَمْ في الغيبِ مِنْ عجبٍ عجيبِ

ولله درّ من قال:

ولربَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفتىٰ ... ذَرعاً وعِنْدَ اللهِ منها المخرجُ
كَمُلَتْ فلمّا استحكمتْ حلقاتُها ... فُرِجَتْ وكان يظنُّها لا تُفرجُ

ولله درّ من قال:

كلُّ مَنْ ليسَ يمنعُ نفسَهُ ... عن حضيضِ الهوىٰ ذاقَ الهوانْ
مَنْ تدنى دَنَتْ بهِ همّتهُ ... لو يكنْ عَالياً بالزِبْرِقانْ
لا تُعادي زمانَكَ يَغلبَك ... كُنْ مُسايراً يُسايرْك الزمانْ

يعني بالزبرقان الكواكب، والزبرقة الصفرة تسمى به لصفرة شعاعة. وقال

عليّ ـ كرم الله وجهه ـ إن للمحن غاياتٍ فينبغي للعاقل أن ينام لها إلى وقت انتهائها؛ فإن الحيلة فيها غير مدركة قبل انتهائها. ولله درّ من قال:

سيكونُ الّذي قُضِي ... سَخِطَ العبدُ أم رضِي
فَدَعْ يا فَتى كلَّ همٍّ سينقضِي

ولله درّ الإمام أبو الدرداء حيث قال:

يريدُ المرء أنْ يُعطَى مناهُ ... ويأبى الله إلاّ ما أرادَا

قيل إنه لم يكن له من الشعر سواه. وفي الحديث النبوي: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» وقد ورد أيضاً «المعونة على قدر المؤنة الحديث». فإذا فهمت ذلك يا أخي وأنت قويُ اليقين بحصول وعود الأخبار النبوية بما ذكرناه وتصديقها بكل ما جاءت به، رجونا لك الصبر الجميل عند المصائب والمضرات، وقوة العزم معها على أعمال الخيرات. قال رسول الله ﷺ: «وعلى العاقل أن تكون له ساعاتٌ: ساعةٌ يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب». الحديث. قال الإمام البارزي ـ رحمه الله ـ ومحاسبة النفس على كل عبدٍ واجبة إجماعاً في ماضي الأعمال ومستقبلها، ليدّارك ما قد فات، ويستعد لما هو آتٍ من الأمور اللازمات، ويحسن أن يكون من الليل إلى الليل انتهى. قال رسول الله ﷺ: «من قال إذا أصبح وإذا أمسى حسبي الله لا إله إلاّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمّه صادقاً كان أو كاذباً» رواه ابن السني وغيره. وقال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» رواه البخاري ومسلم. وقال رسول الله ﷺ: «دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة» وقال رسول الله ﷺ: «أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لغائب» رواه أبو داود. وفي الحديث: «لا يجتمع ملأ فيدعون بعضهم ويؤمن بعضهم إلاّ أجابهم الله» رواه الحاكم. ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا. ربنا إنك رؤوف رحيم ولله درّ من قال متابعة لما في الأخبار النبوية:

هَلْ ربٌّ تَجِدون غيرَ ربِّكم رب   أوعنه يا ضعفاء العقول مهربُ
وإن هربَ عبدٌ فأينَ يذهبُ   مالَه سوى ربِّه وإن هو أذنبُ

فتأمل هذا يعني أنه يتأكد على المذنب أن يعكف بقلبه على ربه، ولا يبعده ذنبه عن بابه، أو يوحشه عن جنابه، فرأفته للمؤمن شاملة ورحمته واصلة إليه حاصلة. اللهم أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

ونختم الكتاب تبركاً بكلمات من دعوات رسول الله ﷺ فنقول: بسم الله الرحمن الرحيم (مرة أو ثلاثاً) الحمد لله رب العالمين (ثلاثاً أو أربعاً) اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ونبيك النبيّ الأميّ وعلى آل محمد وسلم (ثلاثاً) إستغفر الله الذي لا إله إلاّ هو الحي القيوم، وأتوب إليه (ثلاثا) أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء، وما يعرج فيها. ومن شر ما درأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل وفتن النهار، ومن طوارق الليل والنهار إلاّ طارق يطرق بخير يا رحمن. لا إله إلاّ أنت وحدك، لا شريك لك سبحانك، استغفرك لذنبي وأسألك رحمتك. اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي (ثلاثاً) اللهم زدني علماً، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا، واشهدك، وكفى بك شهيداً إني أشهد أن لا إله إلاّ أنت وحدك، لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك، وأشهد أن وعدك حق، ولقاءك حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنك تبعث من في القبور، وأنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة، وذنب وخطيئة. وإني لا أثق إلاّ برحمتك؛ فاغفر لي ذنوبي كلها، إنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت، وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم. اللهم ما قلت من قولٍ، أو حلفت من حلفٍ، أو نذرت من نذر، فمشيئتك بين يدي، ذلك كله ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلاّ بك إنك على كل شيء قدير. اللهم ما صلّيت من صلاة فعلى من صليت. وما لعنت من لعنٍ فعلى من لعنت. أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين. اللهم

أنت أحق من ذُكر، وأحق من عَبد، وأعظم من ابتُغي، وأرأف من ملك، وأجود من سُئل، وأوسع من أعطى، أنت الملك لا شريك لك، والفرد لا ند لك. كل شيءٍ هالك إلاّ وجهك لن تطاع إلاّ بإذنك، ولن تُعصى إلاّ بعلمك. تطاع فتشكر، وتُعصى فتغفر. أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، حُلْتَ دون النفوس، وأخذت بالنواصي وكتبت الآثار، ونسخت الآجال. القلوب لك مفضية، والسر عندك علانية. الحلال ما أحللت، والحرام ما حرمت، والدين ما شرّعت، والأمر ما قضيت، والخلق خلقك، والعبد عبدك، وأنت الله الرؤوف الرحيم. أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السلوات والأرض وبكل حق هو لك، وبحق السائلين عليك أن تقبلني في هذه الساعة، وأن تجيرني من النار بقدرتك. اللهم لك الحمد أنت قيوم السلوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السلوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السلوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، وقولك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت؛ فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت اعلم به مني. أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلاّ أنت، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله. اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك ناصيتي، بيدك ماضٍ فيّ حكمك، عدل في قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب غمي وهمّي، وأن تكفيني ووالديّ ومشايخي في الدين كل ضُرٍ وهمٍ، وتعطيني كل خير، وتشملني باللطف والرحمة، والعفو والعافية في الدنيا والآخرة. نحن وأحبابنا وأهلنا وقراباتِنا وجيراننا، وأهل بلدنا ومن أحسن إلينا وجميع المسلمين الأولين والآخرين. اللهم صل على الرحمة الكبرى التامة العامة في الأولى والأخرى، محمد عبدك ورسولك النبيّ الأميّ، وعلى آلِ محمد وإخوانه وأصحابه، وعلى المؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، وعليه وعليهم

السلام ورحمة الله وبركاته. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت. استغفرك وأتوب إليك، عملت سوءً وظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين. تم الكتاب بعون الله الملك الوهاب. قال مصنفه ـ رحمه الله، ورضي عنه ـ انتهى جمعه وكتابته وقت الضحى يوم الخميس، العاشر من ربيع الثاني سنة ٩٥٣ ثلاث وخمسين وتسعمائة من الهجرة النبوية. على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. والحمد لله رب العالمين.

فهرس الكتاب

ترجمة المؤلف .... هـ
صورة عينات من المخطوطة .... ط
خطبة الكتاب ١

الفصل الأول

الفائدة الأولى : في الترغيب في كتب الإمام الغزالي ٥
الفائدة الثانية : في مراتب العلوم النافعة ٦
الفائدة الثالثة : في فوائد طاعة الله ٨
الفائدة الرابعة : في الحث على العبادة والاقتصاد فيها ١٢
الفائدة الخامسة : في لزوم الرحمة والشفقة على خلق الله ١٤
الفائدة السادسة : في حكم العادة وتأثيرها ١٦
الفائدة السابعة : في حسن التربية ١٩
الفائدة الثامنة : في الحث على علو الهمة ٢١
الفائدة التاسعة : في فضل الصبر ٢٥
الفائدة العاشرة : في الحث على العلوم الدينية ٢٩

الفصل الثاني

الفائدة الحادية عشرة : في تأكيد التمسك بالكتاب والسنة ٣٥

الفائدة الثانية عشرة : في تقديم العلوم الإيمانية على غيرها ٣٧

الفائدة الثالثة عشرة : في الحث على العمل الصالح ٤٠

الفائدة الرابعة عشرة : في حكم أعمال القلب واعتقاده.......... ٤٢

الفائدة الخامسة عشرة : في الحث على الإخلاص ٤٣

الفائدة السادسة عشرة : في رتبة حضور القلب ٤٥

الفائدة السابعة عشرة : في الحث على المطعم الحلال ٤٦

الفائدة الثامنة عشرة : في التوبة ٤٧

الفائدة التاسعة عشرة : في رتبة العقل ٤٨

الفائدة العشرون : في رتبة العلوم والأحوال الذوقية........... ٥٠

الفصل الثالث

الفائدة الحادية والعشرون : في التكسب للمعيشة وفضل الزهد ... ٥٣

الفائدة الثانية والعشرون : الآداب مع الشيخ المرشد ٦٢

الفائدة الثالثة والعشرون : في أركان الرياضة وهي الخلوة والصمت
والجوع والسهر............................ ٦٦

الفائدة الرابعة والعشرون : في المفاضلة بين الغني والفقير....... ٧٢

الفائدة الخامسة والعشرون : في السماع والاغترار به ٧٤

الفائدة السادسة والعشرون : في رتبة الكرامات........... ٧٦

الفائدة السابعة والعشرون : في فضل الأخوة في الله ٧٩

الفائدة الثامنة والعشرون : في الصحبة ومراتبها ٨١

الفائدة التاسعة والعشرون : في المعاشرة والمخالطة ٨٣

الفائدة الثلاثون : في حكم الرعاية تتعلق بالولاة والسلاطين ٨٥

الفصل الرابع

الفائدة الحادية والثلاثون : في بيان حسن الظن عموماً وخصوصاً .. ٩١

الفائدة الثانية والثلاثون : في ذم الاغترار وأدويته ٩٧

الفائدة الثالثة والثلاثون : تشتمل على كلمات في المعرفة بالله تعالى ١١٠

الفائدة الرابعة والثلاثون : الحرمة والآداب والتكريم اللازمة للأنبياء والملائكة والأولياء ١١٦

الفائدة الخامسة والثلاثون : جامعة لفوائد نافعة وفيها تحذير من تضييع العمر وتسويف الوقت ١٢٨

الفائدة السادسة والثلاثون : في الترغيب في الحب لله والتحذير من معادات عباد الله الصالحين ١٤٦

الفائدة السابعة والثلاثون : في حرمة المؤمن ١٥٠

الفائدة الثامنة والثلاثون : في بيان حد الدين ١٥٣

الفائدة التاسعة والثلاثون : في الترغيب في المروّة ومكارم الأخلاق . ١٥٧

الفائدة الأربعون : في التحذير من شؤم المعاصي والمحظورات ١٦٣

تبصرة لأهل حضرموت ١٦٦

خاتمة الكتاب

الفائدة الحادية والأربعون : في الترغيب في البر وفي حسن الظن بالله .. ٢٠١